الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد الثالث عشر

تتمة سورة الرحمن

وقيل : الدهان الأديم الأحمر. وقرأ عمرو بن عبيد. وردة بالرفع ، بمعنى : فحصلت سماء وردة ، وهو من الكلام الذي يسمى التجريد ، كقوله :

فلئن بقيت لأرحلنّ بغزوة تحوى الغنائم أو يموت كريم «1»

إِنْسٌ بعض من الإنس وَلا جَانٌّ أريد به : ولا جن ، أى : ولا بعض من الجن ، فوضع الجانّ الذي هو أبو الجن موضع الجن ، كما يقال : هاشم ، ويراد ولده. وإنما وحد ضمير الإنس في قوله عَنْ ذَنْبِهِ لكونه في معنى البعض. والمعنى : لا يسألون لأنهم يعرفون بسيما المجرمين وهي سواد الوجوه وزرقة العيون. فإن قلت : هذا خلاف قوله تعالى فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ وقوله وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ. قلت : ذلك يوم طويل وفيه مواطن ، فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر : قال قتادة : قد كانت مسألة ، ثم ختم على أفواه القوم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. وقيل لا يسأل عن ذنبه ليعلم من جهته ، ولكن يسأل سؤال توبيخ. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : ولا جأن ، فرارا من التقاء الساكنين ، وإن كان على حده.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 41 إلى 45]

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ (41) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (42) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (45)

(1) ومعى أسود من حنيفة في الوغى للبيض فوق رؤسهم توسيم
قوم إذا لبسوا الحديد كأنهم في البيض والحلق الدلاص نجوم
فلئن بقيت لأرجعن بغزوة نحو الغنائم أو يموت كريم
لقتادة بن مسلم الحنفي. والدلاص : اللينة الملساء. واستعار الأسود الشجعان على طريق التصريح ، ثم قال : إنهم موسومون في الحرب بالمغافر حال كونها فوق رؤسهم. والمراد بالحديد : الدروع والمغافر والحلق الدروع وكانت بيضاء. فشبههم فيها بالنجوم للمعانها. أو كانت سوداء ، فشبه وجوههم فيها بالنجوم في السماء ، فالجامع مركب حسى ، والفاء في قوله «فلئن بقيت» تدل على أن ما بعدها مسبب عما قبلها من توفر رجاله وشجاعتهم ومنعتهم ، أى : والله لئن طال عمرى لأرجعن إلى الأعداء بغزوة أخرى تجمع الغنائم ونحوها ، فنحو بالنون : فعل مضارع مجزوم في جواب شرط مقدر ، أى : إن رجعنا إليهم بغزوة نجمع الغنائم منهم. وأما جواب إن المذكورة فمحذوف ، دل عليه جواب القسم. وروى : لأرحلن بغزوة ، أى : لأسافرن بغزوة ، تحوى بالتاء وزيادة الياء ، أى تجمع الغنائم وتحوزها. وإسناد العمل للغزوة ، لأنها سبب الجمع والحيازة. ويجوز أن معناها الكتيبة ، مبالغة في غزوها.
وروى نحوى بالنون مع الياء ، أى : نجمع نحن ونحوز في تلك الغزوة ، فالجملة صفة لغزوة. ويجوز أنه استئناف : جواب لسؤال مصدر. وروى : نحو الغنائم بالنصب على الظرفية ، أى جهة الغنائم. وأو بمعنى إلا ، أى إلا أن يموت كريم يعنى نفسه، فهو من باب التجريد ، كأنه انتزع من نفسه شخصا مثله في الشجاعة فأخبر عنه ، والكرم هنا الشجاعة ، لأنه في كل باب بحسبه ، فليس خاصا بمقابل البخل. ومعنى الاستثناء راجع إلى معنى الجمع والحيازة ، ولا يلزم من اشتراط البقاء في الذهاب اشتراط فيما يوجد عقبه فلا تكرار.

فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ عن الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره وقيل تسحبهم الملائكة : تارة تأخذ بالنواصي ، وتارة تأخذ بالأقدام حَمِيمٍ آنٍ ماء حار قد انتهى حرّه ونضجه ، أى : يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وبين شرب الحميم. وقيل : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم. وقيل : إن واديا من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال ، فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقا جديدا. وقرئ : يطوّفون من التطويف. ويطوّفون ، أى : يتطوّفون ويطافون. وفي قراءة عبد الله : هذه جهنم التي كنتما بها تكذبان تصليان لا تموتان فيها ولا تحييان يطوفون بينها. ونعمة الله فيما ذكره من هول العذاب : نجاة الناجي منه برحمته وفضله ، وما في الإنذار به من اللطف.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 46 إلى 55]

وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (46) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (47) ذَواتا أَفْنانٍ (48) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (49) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (50) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (51) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (52) فَبِأَيِّ آلاءِ

مَقامَ رَبِّهِ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ ونحوه لِمَنْ خافَ مَقامِي ويجوز أن يراد بمقام ربه : أن الله قائم عليه ، أى حافظ مهيمن من قوله تعالى أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته. وقيل : هو مقحم كما تقول : أخاف جانب فلان ، وفعلت هذا لمكانك. وأنشد :

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرّجل اللّعين «1»

(1). قوله «كالرجل اللعين» : هو شيء ينصب وسط الزرع لطرد الوحوش ، كذا في الصحاح. اه عليان.
قلت : وتقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 205 فراجعه إن شئت اه مصححه.

يريد : ونفيت عنه الذئب. فإن قلت : لم قال جَنَّتانِ؟ قلت : الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل : لكل خائفين منكما جنتان : جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى. ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي ، لأنّ التكليف دائر عليهما وأن يقال : جنة يثاب بها ، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل ، كقوله تعالى لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ خص الأفنان بالذكر : وهي الغصنة «1» التي تتشعب من فروع الشجرة ، لأنها هي التي تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجتنى الثمار. وقيل : الأفنان ألوان النعم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. قال : ومن كل أفنان اللّذاذة والصّبا لهوت به والعيش أخضر ناضر «2»

عَيْنانِ تَجْرِيانِ حيث شاءوا في الأعالى والأسافل. وقيل : تجريان من جبل من مسك.

وعن الحسن : تجريان بالماء الزلال : إحداهما التسنيم ، والأخرى : السلسبيل زَوْجانِ صنفان : قيل : صنف معروف وصنف غريب مُتَّكِئِينَ نصب على المدح الخائفين. أو حال منهم ، لأنّ من خاف في معنى الجمع بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ من ديباج ثخين ، وإذا كانت البطائن من الإستبرق ، فما ظنك بالظهائر؟ وقيل : ظهائرها من سندس. وقيل : من نور دانٍ قريب يناله القائم والقاعد والنائم. وقرئ : وجنى ، بكسر الجيم.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 56 إلى 61]

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ (58) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (59) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلاَّ الْإِحْسانُ (60)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (61)

(1). قوله «و هي الغصنة» جمع غصن ، كقرطة جمع قرط. أفاده الصحاح. (ع) [.....]
(2). الأفنان : جمع فنن ، وهو الغصن كثير الورق ، فيكون شبه اللذات والصبا : بروضة أو شجرة ذات أفنان على طريق المكنية. وإثبات الأفنان : تخييل. ويجوز أنه جمع فن ، أى : نوع وصف على غير قياس ، كصحب وأصحاب. واللذاذات : جمع لذاذة ، وهي اللذة. ويروى : اللذاذة بالافراد. والصبا : الشباب أو هوى النفس.
ومن بمعنى بعض على طريقة الزمخشري ، أى : وبعض الأفنان لهوت ، أى : تمتعت به. والجمهور يجعلون نحو هذا مما حذف فيه الموصوف ، كقولهم : منا ظعن ومنا أقام ، لتقدم مجرور يدل عليه ، فمن كل : خبر مقدم ، ولهوت :
صفة لمحذوف مبتدأ مؤخر ، أى : صنف لهوت به ، لكن المعنى على الاخبار باللهو ، فلا بد من المصير إلى رأى الزمخشري. أو جعل الجار والمجرور صفة للمبتدإ ، ولهوت خبرا وإن لم يتقدم المجرور على الصفة. ويجوز أن «من كل» معمول لمحذوف يفسره المذكور ، أى : تمنعت من كل الأفنان لهوت به ، والواو للحال ، أى : والحال أن العيش أخضر ، أى رطب لين ناضر حسن ، نشبه العش بروض يافع. والخضرة تخييل.

فِيهِنَّ في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى. أو في الجنتين ، لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس قاصِراتُ الطَّرْفِ نساء قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ : لا ينظرن إلى غيرهم. لم يطمث الإنسيات منهنّ أحد من الإنس ، ولا الجنيات أحد من الجن «1» وهذا دليل على أنّ الجن يطمثون كما يطمث الإنس ، وقرئ : لم يطمثهنّ ، بضم الميم. قيل : هنّ في صفاء الياقوت وبياض المرجان وصغار الدر : أنصع بياضا. قيل : إنّ الحوراء تلبس سبعين حلة ، فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ في العمل إِلَّا الْإِحْسانُ في الثواب. وعن محمد بن الحنفية : هي مسجلة للبر والفاجر. أى : مرسلة ، يعنى : أنّ كل من أحسن أحسن إليه ، وكل من أساء أسيء إليه.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 62 إلى 69]

وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (62) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (63) مُدْهامَّتانِ (64) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (65) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (66) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (67) فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ(69)

وَمِنْ دُونِهِما ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين جَنَّتانِ لمن دونهم من أصحاب اليمين مُدْهامَّتانِ قد ادهامّتا من شدّة الخضرة نضّاخَتانِ فوّارتان بالماء ، والنضخ أكثر من النضح ، لأنّ النضح غير معجمة مثل الرش ، فإن قلت : لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منها؟ قلت : اختصاصا لهما وبيانا لفضلهما ، كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران ، كقوله تعالى وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ أو لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه. ومنه قال أبو حنيفة رحمه اللّه : إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطبا : لم يحنث ، وخالفه صاحباه.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 70 إلى 78]

فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (70) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (71) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (72) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (76) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (77) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (78)

(1). قال محمود : «لم يطمث الانسية إنسى ولا الجنية جنى ... الخ» قال أحمد : بشير إلى الرد على من زعم أن الجن المؤمنين لا ثواب لهم وإنما جزاؤهم ترك العقوبة وجعلهم ترابا

خَيْراتٌ خيرات فخففت ، كقوله عليه السلام «هينون لينون» «1» وأما «خير» الذي هو بمعنى أخير ، فلا يقال فيه خيرون ولا خيرات. وقرئ : خيرات على الأصل. والمعنى : فاضلات الأخلاق حسان الخلق مَقْصُوراتٌ قصرن في خدورهنّ. يقال : امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة ومخدرة. وقيل : إنّ الخيمة من خيامهنّ درّة مجوّفة قَبْلَهُمْ قبل أصحاب الجنتين ، دل عليهم ذكر الجنتين مُتَّكِئِينَ نصب على الاختصاص. والرفرف : ضرب من البسط. وقيل البسط وقيل الوسائد ، وقيل كل ثوب عريض رفرف. ويقال لأطراف البسط وفضول الفسطاط : رفارف. ورفرف السحاب : هيدبه «2» والعبقري : منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب أنه بلد الجن ، فينسبون إليه كل شيء عجيب. وقرئ : رفارف خضر بضمتين. وعباقرى ، كمدائى : نسبة إلى عباقرى في اسم البلد : وروى ابو حاتم : عباقرى ، بفتح القاف ومنع الصرف ، وهذا لا وجه لصحته. فإن قلت: كيف تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل : ومن دونهما؟

قلت : مدهامّتان ، دون ذواتا أفنان. ونضاختان دون : تجريان. وفاكهة دون : كل فاكهة.

وكذلك صفة الحور والمتكأ. وقرئ : ذو الجلال صفة ، للاسم.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الرحمن أدّى شكر ما أنعم اللّه عليه «3»»

(1). قوله «هينون لينون» لعله ورد في صفة المؤمنين ومثله قال الشاعر :
هينون لينون أيسار ذوو كرم (ع)
(2). قوله «و رفرف السحاب هيديه» في الصحاح : هيدب السحاب : ما تهدب منه ، إذا أراد الورق أراد كأنه خيوط. (ع)
(3). أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب.

سورة الواقعة

مكية [إلا آيتي 81 و82 فمدنيتان] وآياتها 96 وقيل 97 آية [نزلت بعد طه]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الواقعة (56) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (2) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (3) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (5) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (6) وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (7)

وَقَعَتِ الْواقِعَةُ كقولك : كانت الكائنة ، وحدثت الحادثة ، والمراد القيامة : وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة ، فكأنه قيل : إذا وقعت التي لا بدّ من وقوعها ، ووقوع الأمر : نزوله.

يقال : وقع ما كنت أتوقعه ، أى : نزل ما كنت أترقب نزوله. فإن قلت : بم انتصب إذا؟ قلت : بليس. كقولك يوم الجمعة ليس لي شغل. أو بمحذوف ، يعنى : إذا وقعت كان كيت وكيت : أو بإضمار اذكر كاذِبَةٌ نفس كاذبة ، أى : لا تكون حين تقع نفس تكذب على اللّه وتكذب في تكذيب الغيب ، لأنّ كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدّقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات ، كقوله تعالى فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ ، وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً واللام مثلها في قولَه تعالى يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي أو : ليس لها نفس تكذبها وتقول لها : لم تكوني كما لها اليوم نفوس كثيرة يكذبنها ، يقلن لها : لن تكوني. أو هي من قولهم : كذبت فلانا نفسه في الخطب ، بعظيم ، إذا شجعته على مباشرته وقالت له : إنك تطيقه وما فوقه فتعرّض له ولا تبال به ، على معنى : أنها وقعة لا تطاق شدّة وفظاعة. وأن لا نفس حينئذ تحدث صاحبها بما تحدثه به عند عظائم الأمور وتزين له احتمالها وإطاقتها ، لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذل. ألا ترى إلى قوله تعالى كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ والفراش مثل في الضعف. وقيل كاذِبَةٌ مصدر كالعاقبة بمعنى التكذيب ، من قولك : حمل على قرنه فما كذب ، أى : فما جبن وما ثبط. وحقيقته :

فما كذب نفسه فيما حدثته به. من إطاقته له وإقدامه عليه. قال زهير :

.... إذا ما اللّيث كذّب عن أقرانه صدقا «1»

أى : إذا وقعت لم تكن لها رجعة ولا ارتداد خافِضَةٌ رافِعَةٌ على : هي خافضة رافعة ، ترفع أقواما وتضع آخرين : إما وصفا لها بالشدّة ، لأنّ الواقعات العظام كذلك : يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس ، وإما لأنّ الأشقياء يحطون إلى الدركات ، والسعداء يرفعون إلى الدرجات ، وإما أنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارّها ، فتخفض بعضا وترفع بعضا : حيث تسقط السماء كسفا وتنتثر الكواكب وتنكدر وتسير الجبال فتمرّ في الجوّ مرّ السحاب ، وقرئ : خافضة رافعة بالنصب على الحال رُجَّتِ حرّكت تحريكا شديدا حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء وَبُسَّتِ الْجِبالُ وفتت «2» حتى تعود كالسويق ، أو سيقت من بس العنم إذا ساقها ، كقوله وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ ، مُنْبَثًّا متفرقا. وقرئ بالتاء أى : منقطعا. وقرئ : رجت وبست ، أى : ارتجت وذهبت. وفي كلام بنت الخس «3» : عينها هاج ، وصلاها راج. وهي تمشى وتفاج. فإن قلت : بم انتصب إذا رجت؟ قلت : هو بدل من إذا وقعت. ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة. أى : تخفض وترفع وقت رج الأرض ، وبس الجبال لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض أَزْواجاً أصنافا ، يقال للأصناف التي بعضها مع بعض أو يذكر بعضها مع بعض : أزواج.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 8 إلى 9]

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (9)

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ الذين يؤتونها بشمائلهم. أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية ، من قولك : فلان منى باليمين ، فلان منى بالشمال : إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة ، وذلك لتيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل ،

(1) ليث يعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا
لزهير يمدح شجاعا ، فاستعار له اسم الأسد على طريق التصريحية ، والاصطياد ترشيح. وعثر : اسم موضع ، أى شجاع في عثر يقتل الرجال إذا كذب أى جبن وضعف الفارس الشديد عن أقرانه في الحرب ، صدق هو ونفذ عزمه وقتل قرنه ، وفي البيت الطباق بين الصدق والكذب ، وهو من بديع الكلام.
(2). قوله «و فتت حتى تعود كالسويق» عبارة النسفي : وفتتت. (ع)
(3). قوله «و في كلام بنت الخس» في الصحاح : الخس بالفتح : بقلة. والخس بالضم : اسم رجل. ومنه :
هند بنت الخس. وعين هاجة : أى غائرة. والصلا : ما عن يمين الذنب ويساره. وفججت ما بين رجلي أفجهما : إذا فتحت. يقال : هو يمشى مفاجا. (ع)

ولتفاؤلهم بالسانح «1» وتطيرهم من البارح ، ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمن ، وسموا الشمائل الشؤمى. وقيل : أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة : أصحاب اليمن والشؤم ، لأنّ السعداء هيامين على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم. وقيل : يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين وبأهل النار ذات الشمال.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 10 إلى 26]

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ (19) وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً (25) إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً (26)

وَالسَّابِقُونَ المخلصون الذين سبقوا إلى ما دعاهم اللّه إليه وشقوا الغبار في طلب مرضاة اللّه عز وجل وقيل : الناس ثلاثة فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه ، ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا ، فهذا السابق المقرّب ، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة ، ثم تراجع بتوبة ، فهذا صاحب اليمين ، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه ، ثم يزل عليه حتى خرج من الدنيا ، فهذا صاحب الشمال ما أصحاب الميمنة. ما أصحاب المشأمة؟ تعجيب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة «2».

(1). قوله «لتفائلهم بالسانح» هو ما مر من يسارك إلى يمينك من ظبى أو طائر. والبارح : عكسه. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «ما» تعجيب من حال الفريقين ... الخ» قال أحمد : اختار ما هو المختار ، لأنه أقعد بالفصاحة ، لكن بقي التنبيه على المخالفة بين المذكورين في السابقين وفي أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين، فنقول : التعظيم المؤدى بقوله السَّابِقُونَ أبلغ من قرينه ، وذلك أن مؤدى هذا : أن أمر السابقين وعظمة شأنه ما لا يكاد يخفى ، وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور. وأما المذكور في قوله فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ فانه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق. ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فجمع بين اسم الاشارة المشار به إلى معروف ، وبين الاخبار عنه بقوله الْمُقَرَّبُونَ معرفا بالألف واللام العهدية ، وليس مثل هذا مذكورا في بسط حال أصحاب اليمين ، فانه مصدر بقوله فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ.

والمعنى : أى شيء هم؟ والسابقون السابقون ، يريد : والسابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم ، كقوله وعبد اللّه عبد اللّه. وقول أبى النجم : وشعري شعري «1» ، كأنه قال : وشعري ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وبراعته ، وقد جعل السابقون تأكيدا. وأولئك المقرّبون : خبرا وليس بذاك. ووقف بعضهم على : والسابقون ، وابتدأ السابقون أولئك المقرّبون ، والصواب أن يوقف على الثاني ، لأنه تمام الجملة ، وهو في مقابلة : ما أصحاب الميمنة ، وما أصحاب المشأمة الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ الذين قربت درجاتهم في الجنة من العرش وأعليت مراتبهم.

وقرئ : في جنة النعيم. والثلة : الأمة من الناس الكثيرة. قال : وجاءت إليهم ثلّة خندفيّة بجيش كتيّار من السّيل مزبد «2»

وقوله عز وجل وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ كفى به دليلا على الكثرة ، وهي من الثل وهو الكسر ، كما أنّ الأمّة من الأمّ وهو الشج ، كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم. والمعنى : أنّ السابقين من الأوّلين كثير ، وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى اللّه عليه وسلم وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ وهم أمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم.

(1) أنا أبو النجم وشعري شعري للّه درى ما أجن صدري
تنام عينى وفؤادي يسرى مع العفاريت بأرض قفر
لأبى النجم العجلى. يريد : أنا المعروف بالبلاغة بين الناس كالعلم المشهور. وشعري : هو البليغ المعروف بأنه شعر أبى النجم ، لأنه إذا اتحد المبتدأ والخبر أو الشرط والجزاء : دل الكلام على المبالغة في التعظيم أو في التحقير. وما هنا من الأول بدليل السياق. وفيه ادعاء أن نهاية العظمة في الرجل المسمى بأبى النجم ، ونهاية البلاغة في الشعر المنسوب إليه. والدر : اللبن ، لكن المراد به العمل والصنع ، أى : للّه صنيعي ، يعنى : أنه عظيم. وجن الليل : أظلم.
والنبت : طال والتف. والذباب : كثرت أصواته. وجنه الليل : ستره ، وأجنه الصدر : أكنه. وما تعجبية.
وأجن : فعل تعجب ، أى : شيء عظيم جعل صدري محيطا بالمعاني الغريبة ، ويحتمل أن «ما» يدل من درى.
وأجن : فعل ماض صلة أو صفة له ، ومؤادى : قلبي أو عقلى. يسرى : يسير ليلا. أى : يبيت فكرى كأنه ذاهب مع العفاريت بأرض فضاء لا نبات بها ، لا بعاده في المعاني. والبيت الثاني بيان للأول.
(2) وجاءت إليهم ثلة خندفية بحيش كتيار من السيل مزيد
يقول : وجاءت اليهم جماعة من الناس منسوبة إلى خندف امرأة إلياس بن مضر. وقوله «بجيش» من باب التجريد ، كأنه انتزع من الثلة جيشا غيرها مبالغة في الكثرة. ويحتمل أن الباء بمعنى مع ، أو في ، لان الجيش أوسع من الثلة ، وهو من جاش إذا تحرك واضطرب ، كأنه يغلى ، والتيار : الماء الشديد الجري ، ومن بيانية أو تبعيضية. والمزيد : المرتفع زبده على وجهه لكثرته وفوراته.
(3). أخرجه الطبري وابن عدى من رواية أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال في هذه الآية ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «هما جميعا من أمتى» وأبان هو ابن أبى عياش متروك. ورواه إسحاق وسنده إلى الطيالسي وإبراهيم الحربي والطبراني من رواية زيد بن صهبان عن أبى بكرة مرفوعا وموقوفا. والموقوف أولى بالصواب. وعلى ضعيف.

قلت : هذا في السابقين وذلك في أصحاب اليمين ، وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعا.

فإن قلت : فقد روى أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين ، فما زال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يراجع ربه حتى نزلت ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ. قلت : هذا لا يصح لأمرين ، أحدهما : أنّ هذه الآية واردة في السابقين ورودا ظاهرا ، وكذلك الثانية في أصحاب «1» اليمين.

ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم ، على السابقين ووعدهم ، والثاني : أنّ النسخ في الأخبار غير جائز. وعن الحسن رضى اللّه عنه : سابقو الأمم أكثر من سابقي أمّتنا ، وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمّة. وثلة: خبر مبتدإ محذوف ، أى : هم ثلة مَوْضُونَةٍ مرمولة بالذهب ، «2» مشبكة بالدرّ والياقوت ، قد دوخل بعضها في بعض كما توضن حلق الدرع.

قال الأعشى :

ومن نسج داود موضونة «3»

وقيل : متواصلة ، أدنى بعضها من بعض. مُتَّكِئِينَ حال من الضمير في على ، وهو العامل فيها ، أى : استقرّوا عليها متكئين مُتَقابِلِينَ لا ينظر بعضهم في أقفاء بعض. وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب مُخَلَّدُونَ مبقون أبدا على شكل الولدان وحدّ الوصافة ، «4» لا يتحوّلون عنه. وقيل : مقرّطون ، والخلدة : القرط. وقيل: هم أولاد أهل الدنيا : لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ، ولا سيئات فيعاقبوا عليها. روى عن على رضى اللّه عنه وعن الحسن.

وفي الحديث : «أولاد الكفار خدّام أهل الجنة» «5». الأكواب : أوان بلا عرى وخراطيم ،

(1). قوله «و كذلك الثانية في أصحاب اليمين» أى ظاهرة الورود. (ع) [.....]
(2). قوله «مرمولة بالذهب» في الصحاح : رملت الحصير ، أى : سففته. وفيه أيضا : سففت الخوص : أى نسجته. (ع)
(3) ومن نسج داود موضونة تساق مع الحي عيرا فعيرا
للأعشى ، يصف الدروع ، وجعلها من نسج سيدنا داود مبالغة في حسن صنعتها ، لأنه نسجها بأمر من اللّه وتعليمه له. موضونة : أى مدخل بعضها في بعض ، فهي محكمة النسج لتساق ، أى : أصحابها مع الحي. والعير بالفتح :
السيد ، أى سيدا بعد سيد متربين ، ويطلق العير على طائر يطير فوق القافلة السائرة ، وتبعد إرادته هنا.
(4). قوله «و حد الوصافة» هي بلوغ الغلام حد الخدمة. أفاده الصحاح. (ع)
(5). أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من رواية عباد بن منصور عن أبى رجاء العطاردي عن سمرة بن جندب قال «سألنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدم أهل الجنة» ورواه البزار من براية على بن زيد بن جدعان والطيالسي والطبراني وأبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي كلاهما عن أنس بهذا وأتم منه قلت : قد يعارضه حديث سمرة في صحيح البخاري. ففيه أنه رأى أولاد الناس تحت شجرة يكفلهم إبراهيم عليه السلام قال فقلنا : وأولاد المشركين؟ قال : وأولاد المشركين»

والأباريق ، ذوات الخراطيم لا يُصَدَّعُونَ عَنْها أى بسببها ، وحقيقته : لا يصدر صداعهم عنها. أو لا يفرّقون عنها. وقرأ مجاهد : لا يصدعون ، بمعنى : لا يتصدعون لا يتفرقون ، كقوله يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ويصدعون ، أى: لا يصدع بعضهم بعضا ، لا يفرّقونهم يَتَخَيَّرُونَ يأخذون خيره وأفضله يَشْتَهُونَ يتمنون. وقرئ : ولحوم طير. قرئ : وحور عين ، بالرفع على : وفيها حور عين ، كبيت الكتاب :

إلّا رواكد جمرهنّ هباء ومشجّج ..... «1» ..

أو للعطف على ولدان ، وبالجر : عطفا على جنات النعيم ، كأنه قال : هم في جنات النعيم ، وفاكهة ولحم وحور. أو على أكواب ، لأن معنى يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوابٍ ينعمون بأكواب ، وبالنصب على : ويؤتون حورا جَزاءً مفعول له ، أى : يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم سَلاماً سَلاماً إما بدل من قِيلًا بدليل قوله لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً وإما مفعول به لقيلا ، بمعنى : لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما. والمعنى : أنهم يفشون السلام بينهم ، فيسلمون سلاما بعد سلام. وقرئ سلام سلام ، على الحكاية.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 27 إلى 40]

وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَماءٍ مَسْكُوبٍ (31) وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (35) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (36) عُرُباً أَتْراباً (37) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

(1) بادت وغير آيهن مع البلى إلا رواكد جمرهن هباء
ومشجج إما سواء قذاله فبدا وغير ساره المغراء
الشماخ ، وقيل : لذي الرمة ، وهي من أبيات الكتاب. وباد يبيد : هلك يهلك. والآي : اسم جمع آية وهي علامة والرواكد : الأثافى. وهي الأحجار التي توضع عليها للقدر. والهباء : الرماد المختلط بالتراب. والمشجج : صفة جرت مجرى الاسم لوتد الخباء الذي تشجح رأسه من الدق. فبرز حول رأسه أطراف تشبه القذال ، وهو شعر جوانب الرأس. وسواء الشيء. وسطه. ويروى : غيب ، بدل: غير. والسار بالهمز وتركه : البقية. والمغراء :
أرض يخالط ترابها حجارة وحصى ، يقول هلكت لك الديار وبليت آثارها ، ولم يبق إلا محل النار وبقية وتد الخباء. ويروى : رواكد بالنصب ، فعطف المرفوع على المنصوب اعتمادا على المعنى.

السدر : شجر النبق. والمخضود : الذي لا شوك له ، كأنما خضد شوكه «1». وعن مجاهد : الموقر الذي تثنى أغصانه كثرة حمله ، من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب. والطلح : شجر الموز. وقيل : هو شجر أم غيلان ، وله نوار كثير طيب الرائحة. وعن السدى : شجر يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل. وعن على رضى اللّه عنه أنه قرأ : وطلع ، وما شأن الطلح ، «2» وقرأ «3» قوله لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ فقيل له : أو نحوّلها؟ فقال : آي القرآن لا تهاج اليوم ولا تحوّل. وعن ابن عباس نحوه. والمنضود : الذي نضد «4» بالحمل من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق بارزة وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ممتدّ منبسط لا يتقلص ، كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس مَسْكُوبٍ يسكب لهم أين شاءوا وكيف شاءوا لا يتعنون فيه. وقيل : دائم الجرية لا ينقطع. وقيل : مصبوب يجرى على الأرض في غير أخدود لا مَقْطُوعَةٍ هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه الدنيا وَلا مَمْنُوعَةٍ لا تمنع عن متناولها بوجه ، ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا. وقرئ : وفاكهة كثيرة، بالرفع على : وهناك فاكهة ، كقوله : وحور عين وَفُرُشٍ جمع فراش. وقرئ : وفرش ، بالتخفيف مَرْفُوعَةٍ نضدت حتى ارتفعت. أو مرفوعة على الأسرة. وقيل : هي النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش مرفوعة على الأرائك. قال اللّه تعالى هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ ، ويدل عليه قوله تعالى إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً وعلى التفسير الأول أضمر لهنّ ، لأنّ ذكر الفرش وهي المضاجع دلّ عليهن أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً أى ابتدأنا خلقهن ابتداء جديدا من غير ولادة ، فإما أن يراد. اللاتي ابتدئ إنشاؤهن ، أو اللاتي أعيد إنشاؤهن. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «5». أنّ أمّ سلمة رضى اللّه عنها سألته عن قوله اللّه تعالى.

(1). قوله «كأنما خضد شوكه» في الصحاح «خضدت الشجر» قطعت شوكه ، وخضدت العود ، أى : ثنيته من غير كسر. (ع)
(2). قوله «و ما شأن الطلح» لعله : وقال ما شأن الطلح. (ع)
(3). قوله «و قرأ» أى : استشهادا على قراءته. (ع)
(4). قوله «و المنضود الذي نضد» في الصحاح : أنه المرصوص بعضه فوق بعض. (ع)

(5). أخرجه الثعلبي بتمامه من طريق الحسن بن علوية القطان عن إسماعيل بن عيسى عن المسيب بن شريك فذكره ولم يرفع إلا قصة عائشة. ومن طريق غنجار حدثنا إسماعيل بن أبى الباد عن يونس عن الحسن عن أم سلمة مرفوعا دون قصة عائشة. وروى الطبري والطبراني وابن مردويه من طريق عمر بن هاشم البيروتي عن سليمان بن أبى كريمة عن هشام عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت : قلت يا رسول اللّه ، أخبرنى عن قوله تعالى عُرُباً أَتْراباً فذكره. وفيه «فجعلهن عذارى عربا متعشقات متحببات إلى أزواجهن ، أترابا على ميلاد واحد» وروى الترمذي من طريق موسى بن عبيدة عن يزيد الزقاش طرفا منه واستضعفه.

إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ فقال : يا أم سلمة هنّ اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطاء رمصاء «1» ، جعلهنّ اللّه بعد الكبر» أَتْراباً على ميلاد واحد في الاستواء «2» ، كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا ، فلما سمعت عائشة رضى اللّه عنها ذلك من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قالت : وأوجعاه فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ليس هناك وجع. وقالت عجوز لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ادع اللّه أن يدخلني الجنة ، لقال : إنّ الجنة لا تدخلها العجائز ، فولت وهي تبكى ، فقال عليه الصلاة السلام : «أخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز» «3» وقرأ الآية عُرُباً وقرئ : عربا ، بالتخفيف جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل أَتْراباً مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين ، وأزواجهنّ أيضا كذلك. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا بيضا جعادا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين» «4» واللام في لِأَصْحابِ الْيَمِينِ من صلة أنشأنا وجعلنا.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 41 إلى 56]

وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

(1). قوله «عجائز شمطاء رمصا» في الصحاح «الشمط» : بياض شعر الرأس يخالط سواده ، والرجل أشمط ، والمرأة شمطاء. وفيه : الرمص : وسخ يجتمع في الموق ، وقد رمصت عينه ، والرجل أرمص اه ، أى : والمرأة رمصاء ، والجمع شمط ورمص.(ع)
(2). قوله «ميلاد واحد في الاستواء» لعله متعلق بمعنى التشبيه ، أى : كأنهن على ميلاد واحد في استواء الخلق. (ع)
(3). أخرجه الترمذي في الشمائل من رواية مبارك بن فضالة عن الحسن بهذا مرسلا وسياقه أتم. وله طرق أخرى. منها في البعث البيهقي من رواية ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن عائشة. ومنها في الأوسط من رواية مسعدة ابن اليسع عن سعيد عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة. ورواه خارجة بن مصعب عن سعيد عن قتادة عن أنس. وكلها ضعيفة.
(4). أخرجه أحمد وابن أبى شبية وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة بهذا. وزاد على خلق آدم ستون ذراعا عرض سبعة أذرع. وذكر ابن أبى حاتم في العلل أن أباه قال : رواه أبو سلمة عن حماد مرسلا ولم يذكر فيه أبا هريرة وكذا أخرجه ابن سعد عن يحيى بن السكن عن حماد. وعلى بن زيد ضعيف. وفي الباب عن معاذ بن جبل. أخرجه الترمذي وقال : غريب.
وبعض أصحاب قتادة أرسلوه. وأخرجه البيهقي موصولا ، ثم أخرجه موقوفا على قتادة. [.....]

فِي سَمُومٍ في حر نار ينفذ في المسام وَحَمِيمٍ وماء حار متناه في الحرارة وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ من دخان أسود بهيم لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ نفى لصفتى الظل عنه ، يريد : أنه ظل ، ولكن لا كسائر الظلال : سماءً ظلا ، ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوى إليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحق ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه. والمعنى أنه ظل حارّ ضارّ إلا أنّ للنفي في نحو هذا شأنا ليس للإثبات. وفيه تهكم بأصحاب الشأمة ، وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة. وقرئ : لا بارد ولا كريم بالرفع ، أى : لا هو كذلك وَالْحِنْثِ الذنب العظيم. ومنه قولهم : بلغ الغلام الحنث ، أى : الحلم ووقت المؤاخذة بالمآثم.

ومنه : حنث في يمينه ، خلاف : برّ فيها. ويقال : تحنث إذا تأثم وتحرج أَوَ آباؤُنَا دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف. فإن قلت : كيف حسن العطف على المضمر في لَمَبْعُوثُونَ من غير تأكيد بنحن؟ قلت : حسن للفاصل الذي هو الهمزة ، كما حسن في قوله تعالى ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا لفصل لا المؤكدة النفي. وقرئ : أو آباؤنا. وقرئ : لمجمعون «1» إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم ، والإضافة بمعنى من ، كخاتم فضة. والميقات : ما وقت به الشَّيء ، أى : حدّ. ومنه مواقيت الإحرام : وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرما أَيُّهَا الضَّالُّونَ عن الهدى الْمُكَذِّبُونَ بالبعث ، وهم أهل مكة ومن في مثل حالهم مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ من الأولى لابتداء الغاية ، والثانية لبيان الشجر وتفسيره. وأنث ضمير الشجر على المعنى ، وذكره على اللفظ في قوله مِنْهَا وعَلَيْهِ ومن قرأ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فقد جعل الضميرين للشجرة ، وإنما ذكر الثاني على تأويل الزقوم ، لأنه تفسيرها وهي في معناه شُرْبَ الْهِيمِ قُرئ بالحركات الثلاث ، فالفتح والضم : مصدران.

وعن جعفر الصادق رضى اللّه عنه ، أيام أكل وشرب ، بفتح الشين. وأما المكسور فبمعنى المشروب ، أى : ما يشربه الهيم وهي الإبل التي بها الهيام ، وهو داء تشرب منه فلا تروى : جمع أهيم وهيماء. قال ذو الرمّة :

(1). قوله «و قرئ : لمجمعون إلى ميقات» في الصحاح : أجمعت الشيء : جعلته جميعا. (ع)

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضى عليها هيامها «1» وقيل الهيم : الرمال. ووجهه أن يكون جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذي لا يتماسك ، جمع على فعل كسحاب وسحب ، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض. والمعنى : أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرّهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل ، فإذا ملؤوا منه البطون يسلط عليهم من العطش ما يضطرّهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهيم. فإن قلت : كيف صحّ عطف الشاربين على الشاربين ، وهما لذوات متفقة ، وصفتان متفقتان ، فكان عطفا للشيء على نفسه؟ قلت : ليسنا بمتفقتين ، من حيث إنّ كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه : من تناهى الحرارة وقطع الأمعاء : أمر عجيب ، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم الماء : أمر عجيب أيضا ، فكانتا صفتين مختلفتين. النزل : الرزق الذي يعدّ للنازل تكرما له. وفيه تهكم ، كما في قوله تعالى فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ وكقول أبى الشعر الضبي.

وكنّا إذا الجبّار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والموهفات له نزلا «2»

وقرئ : نزلهم بالتخفيف.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 57 إلى 62]

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (62)

(1) وقد زودت مى على النأى قبلة علاقات حاجات طويل سقامها
فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضى عليها هيامها
لذي الرمة ، يقول : وقد زودتنا ، أى جعلت زادنا مى عند الرحيل قبلة ، فكانت القبلة علاقات الحاجات وأسباب التطلع إلى الوصال ، فعلاقات : خبر مرفوع ، أو بدل منصوب. والسقام ككلام ، وسقم كتعب ، وسقم كبخل :
مصدر سقم كتعب تعبا ، أى : عناؤها طويل المدة لا يبرأ. ويقال للجمل : أهيم. وللناقة هيماء ، إذا أصابهما الهيام بالضم : وهو داء تغلى منه قلوب الإبل كالعطش الشديد ، أى : فأصبحت كالناقة الهيماء. وقوله «لا الماء مبرد» استئناف مبين لوجه الشبه فيها. أو حال منها ، أى : لا يبرد الماء ظمأها ولا يقضى عليها ، أى : لا يمينها هيامها ، فأنا كذلك لا وصال فيشفينى ، ولا التلهف يميتني. ويروى : ولا يقضى على هيامها ، ولعل معناه : لا الماء يبرد الحرقة التي حصلت لي منها ، ولا يميتني الهيام الذي حصل لي منها ، ولكنالأولى أقعد وأجود معنى.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 458 فراجعه إن شئت اه مصححه.

فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ تحضيض على التصديق : إما بالخلق لأنهم وإن كانوا مصدّقين به ، إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق ، فكأنهم مكذبون به. وإما بالبعث ، لأنّ من خلق أولا لم يمتنع عليه أن يخلق ثانيا ما تُمْنُونَ ما تمنونه ، أي : تقذفونه في الأرحام من النطف. وقرأ أبو السمال بفتح التاء ، يقال : أمنى النطفة ومناها. قال اللّه تعالى مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى . تَخْلُقُونَهُ تقدرونه وتصوّرونه قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ تقديرا وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا ، فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط.

وقرئ : قدرنا بالتخفيف. سبقته على الشيء : إذا أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه ، فمعنى قوله وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ أنا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه ، وأمثالكم جمع مثل : أى على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ، وعلى أن نُنْشِئَكُمْ في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها ، يعنى : أنا نقدر على الأمرين جميعا : على خلق ما يماثلكم ، وما لا يماثلكم ، فكيف نعجز عن إعادتكم. ويجوز أن يكون أَمْثالَكُمْ جمع مثل ، أى : على أن نبدل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم ، وننشئكم في صفات لا تعلمونها.

قرئ النشأة والنشاءة. وفي هذا دليل على صحة القياس حيث جهّلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 63 إلى 67]

أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)

أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ من الطعام ، أى : تبذرون حبه وتعملون في أرضه أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ تنبتونه وتردونه نباتا ، يرف وينمى «1» إلى أن يبلغ الغاية. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لا يقولن أحدكم : زرعت ، وليقل: حرثت» «2» قال أبو هريرة : أرأيتم إلى «3» قوله :

(1). قوله «نباتا يرف وينمى» في الصحاح : رف لونه يرف - بالكسر - برق وتلألأ. وشجر رفيف : إذا تندت أوراقه. (ع)
(2). أخرجه ابن حبان والبزار والطبراني من طريق مخلد بن حسين عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة بهذا قال : ثم قرأ أبو هريرة أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ.
(3). قوله «قال أبو هريرة : أرأيتم» أى استشهد على الحديث بالآية ، وهي قوله تعالى أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ وقوله «أ رأيتم» خطاب لمن يسمع منه ، وأراد معنى النظر ، فعداه بإلى كقوله أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ ءٍ. (ع)

أَفَرَأَيْتُمْ ... الآية. والحطام : من حطم ، كالفتات والجذاذ من فت وجذ : وهو ما صار هشيما وتحطم فَظَلْتُمْ وقرئ بالكسر. وفظللتم على الأصل تَفَكَّهُونَ تعجبون. وعن الحسن رضى اللّه عنه : تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه. أو على ما اقترفتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها. وقرئ : تفكنون. ومنه الحديث «مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء «1» ويتركها القرباء فبيناهم إذ غار ماؤها فانتفع بها قوم وبقي قوم يتفكنون» «2» أى : يتندمون إِنَّا لَمُغْرَمُونَ لملزمون غرامة ما أنفقنا. ومهلكون لهلاك رزقنا ، من الغرام : وهو الهلاك بَلْ نَحْنُ قوم مَحْرُومُونَ محارفون محدودون ، لاحظ لنا ولا بخت لنا ، ولو كنا مجدودين ، لما جرى علينا هذا. وقرئ : أئنا.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 68 إلى 70]

أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (70)

الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ يريد : الماء العذب الصالح للشرب. والْمُزْنِ السحاب : الواحدة مزنة. وقيل : هو السحاب الأبيض خاصة ، وهو أعذب ماء أُجاجاً ملحا زعاقا «3» لا يقدر على شربه. فإن قلت : لم أدخلت اللام على جواب لَوْ في قوله لَجَعَلْناهُ حُطاماً ونزعت منه هاهنا؟ قلت : إنّ «لو» لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ، ولم تكن مخلصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها ، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا من حيث إفادتها في مضمونى جملتيها أنّ الثاني امتنع لامتناع الأوّل : افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علما على هذا التعلق ، فزيدت هذه اللام لتكون علما على ذلك ، فإذا حذفت بعد ما صارت علما مشهورا مكانه ، فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفا ومأنوسا به : لم يبال بإسقاطه عن اللفظ ، استغناء بمعرفة السامع. ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤبة أنه كان يقول : خير ، لمن قال له : كيف أصبحت؟ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه. وتساوى حالى حذفه وإثباته لشهرة أمره. وناهيك بقول أوس : حتى إذا الكلّاب قال لها كاليوم مطلوبا ولا طلبا «4»

(1). قوله «كمثل الحمة يأتيها البعداء» في الصحاح «الحمة» : العين الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى. وفي الحديث : «العالم كالحمة» اه. (ع)
(2). لم أجده
(3). قوله «ملحا زعاقا» في الصحاح «الماء الزعاق» : الملح. وطعام مزعوق : إذا كثر ملحه. (ع)
(4). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 288 فراجعه إن شئت اه مصححه.

وحذفه «لم أر» فإذن حذفها اختصار لفظي وهي ثابتة في المعنى ، فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما ، على أن تقدّم ذكرها والمسافة قصيرة مغن عن ذكرها ثانية ونائب عنه. ويجوز أن يقال : إنّ هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة ، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب ، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب ، من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعا للمطعوم. ألا ترى أنك إنما تسقى ضيفك بعد أن تطعمه ، ولو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء : إذا سقيت ضيوف النّاس محضا سقوا أضيافهم شبما زلالا «1»

وسقى بعض العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على ثميلة ، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 71 إلى 74]

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (72) نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

تُورُونَ تقدحونها وتستخرجونها من الزناد والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر ، ويسمون الأعلى : الزند ، والأسفل : الزندة ، شبهوهما بالفحل والطروقة «2» شَجَرَتَها التي منها الزناد تَذْكِرَةً تذكيرا لنار جهنم ، حيث علقنا بها أسباب المعايش كلها ، وعممنا بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أو عدوا به. أو جعلناها تذكرة وأنموذجا من جهنم ، لما روى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزأ من حرّ جهنم» «3» وَمَتاعاً ومنفعة لِلْمُقْوِينَ للذين ينزلون القواء وهي القفر. أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام. يقال : أقويت من أيام ،

(1). لأبى العلاء يمدح سعد الدولة أبا الفضائل ، وعيب عليه حيث مدح بسقى الضيوف الماء قبل ذكر الطعام.
والمخض - بمعجمتين - : اللبن المنزوع زبده ، فهو بمعنى الممخوض. ويروى : محضا ، بالحاء المهملة ، أى : خالصا حلوا أو حامضا. والشبم - كحذر - : البارد. والزلال : العقب. هذا وحيث جعل علماء البلاغة للمقام مدخلا في الدلالة على المراد فنقول : إن معنى البيت : إذا عجلت الناس اللبن لأضيافهم واكتفوا به عن الاسراع بالطعام :
عجلوا هم بالطعام لضيوفهم لاستعدادهم للضيفان ، فيحتاجون لشرب الماء ، فيسقونهم ماء قبل إطعام غيرهم الضيفان ، فسقيهم الماء يفيد تعجيل الطعام قبله بمعونة المقام ، لأنه يلزمه عادة فلا عيب فيه.
(2). قوله «بالفحل والطروقة» أنثى الفحل ، كما في الصحاح. (ع)
(3). متفق عليه من حديث أبى هريرة.

أى لم آكل شيئا فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك ، أو أراد بالاسم : الذكر ، أى : بذكر ربك. والْعَظِيمِ صفة للمضاف أو للمضاف إليه. والمعنى : أنه لما ذكر ما دل على قدرته وإنعامه على عباده قال : فأحدث التسبيح وهو أن يقول : سبحان اللّه ، إمّا تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ويكفرون نعمته ، وإما تعجبا من أمرهم في غمط آلائه «1» وأياديه الظاهرة ، وإما شكرا للّه على النعم التي عدّها ونبه عليها.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 75 إلى 80]

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80)

فَلا أُقْسِمُ معناه فأقسم. ولا مزيدة مؤكدة مثلها في قوله لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ وقرأ الحسن : فلأقسم. ومعناه : فلأنا أقسم : اللام لام الابتداء «2» دخلت على جملة من مبتدإ وخبر ، وهي : أنا أقسم ، كقولك «لزيد منطلق» ثم حذف المبتدأ ، ولا يصح أن نكون اللام لام القسم لأمرين ، أحدهما : أن حقها أن يقرن بها النون المؤكدة ، والإخلال بها ضعيف قبيح. والثاني : أن «لأفعلن» في جواب القسم للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال بِمَواقِعِ النُّجُومِ بمساقطها ومغاربها ، لعل للّه تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالا مخصوصة عظيمة ، أو للملائكة عبادات موصوفة ، أو لأنه وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين ، ونزول الرحمة والرضوان عليهم ، فلذلك أقسم بمواقعها ، واستعظم ذلك بقوله وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ أو أراد بمواقعها : منازلها ومسايرها ، وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف.

وقوله وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ اعتراض في اعتراض ، لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم «3» عليه ، وهو قوله إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ واعترض ب لَوْ تَعْلَمُونَ بين الموصوف وصفته.

(1). قوله «في غمط آلائه» أى تحقير نعمه. أفاده الصحاح. (ع) [.....]
(2). قال محمود : «لا زائدة مؤكدة مثلها في قوله لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ قال : وقرأ الحسن فلأقسم» واللام في هذه للابتداء ... الخ»
قلت : تلخيص الرد بهذا الوجه الثاني : أن سياق الآية يرشد إلى أن القسم بمواقع النجوم واقع ، ويدل عليه القراءة الأخرى على زيادة لا : ومقتضى جعلها جوابا لقسم محذوف أن لا يكون القسم بمواقع النجوم واقعا ، بل مستقبلا ، فتتنافس القراءتان إذا ، واللّه الموفق للصواب.

(3). قال محمود : «قوله وإنه لقسم لو تعلمون عظيم : اعتراض في اعتراض فالجملة الكبرى اعتراض بين القسم والجواب ... الخ» قال أحمد : وعلى هذا التفسير يكون جواب القسم مناسبا للمقسم ، مثل قوله حم وَالْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا ومن واديه : وثناياك إنها إغريض
كما تقدم.

وقيل : مواقع النجوم : أوقات وقوع نجوم القرآن ، أى : أوقات نزولها كريم حسن مرضى في جنسه من الكتب. أو نفاع جم المنافع. أو كريم على اللّه فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ مصون من غير المقربين من الملائكة ، لا يطلع عليه من سواهم ، وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها : إن جعلت الجملة صفه لكتاب مكنون وهو اللوح. وإن جعلتها صفة للقرآن ، فالمعنى لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس ، يعنى مس المكتوب منه. ومن الناس من حمله على القراءة أيضا ، وعن ابن عمر أحب إلىّ أن لا يقرأ إلا وهو طاهر، وعن ابن عباس في رواية أنه كان يبيح القراءة للجنب ، ونحوه قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» «1» أى لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه.

وقرئ : المتطهرون ، والمطهرون بالإدغام. والمطهرون ، من اطهره بمعنى طهره. والمطهرون بمعنى : يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحى الذي ينزلونه تَنْزِيلٌ صفة رابعة للقرآن ، اى : منزل من رب العالمين. أو وصف بالمصدر ، لأنه نزل نجوما من بين سائر كتب اللّه تعالى ، فكأنه في نفسه تنزيل ، ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه ، فقيل : جاء في التنزيل كذا ، ونطق به التنزيل. أو هو تنزيل على حذف المبتدإ. وقرئ : تنزيلا ، على : نزل تنزيلا ،

[سورة الواقعة (56) : الآيات 81 إلى 82]

أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)

أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ يعني القرآن أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ اى : متهاونون به ، كمن يدهن في الأمر ، أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ على حذف المضاف ، يعنى : وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ، أى : وضعتم التكذيب موضع الشكر.

وقرأ على رضى اللّه عنه : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون. وقيل : هي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. والمعنى وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به. وقيل : نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها. والرزق : المطر ، يعنى : وتجعلون شكر ما يرزقكم اللّه من الغيث أنكم تكذبون بكونه من اللّه ، حيث تنسبونه إلى النجوم. وقرئ : تكذبون وهو قولهم في القرآن : شعر وسحر وافتراء. وفي المطر : وهو من الأنواء ، ولأنّ كل مكذب بالحق كاذب.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 83 إلى 96]

فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (87)فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92)فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

(1). متفق عليه من حديث ابن عمر. ولمسلم من طريق أبى هريرة بعضه.

ترتيب الآية : فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين. وفَلَوْلا الثانية مكررة للتوكيد ، والضمير في تَرْجِعُونَها للنفس وهي الروح ، وفي أَقْرَبُ إِلَيْهِ للمحتضر غَيْرَ مَدِينِينَ غير مربوبين ، من دان السلطان الرعية إذا ساسهم. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ «1» يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا ، أو بملائكة الموت. والمعنى : إنكم في جحودكم أفعال اللّه تعالى وآياته في كل شيء إن أنزل عليكم كتابا معجزا قلتم : سحر وافتراء. وإن أرسل إليكم رسولا قلم : ساحر كذاب ، وإن رزقكم مطرا يحييكم به قلتم : صدق نوء كذا ، على مذهب يؤدى إلى الإهمال والتعطيل فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيى المميت المبدئ المعيد فَأَمَّا إِنْ كانَ المتوفى مِنَ الْمُقَرَّبِينَ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أوّل السورة فَرَوْحٌ فله استراحة. وروت عائشة رضى اللّه عنها عن رسول اللّه

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ كقوله تعالى هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ وقرئ بالتخفيف وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ قرئت بالرفع والجر عطفا على نزل وحميم إِنَّ هذا الذي أنزل في هذه السورة لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ أى الحق الثابت من اليقين.

(1). قوله «و نحن أقرب إليه منكم» لم يظهر وجه لتأخير هذا عما قبله إلا بالنظر للترتيب الذي ذكره فليحرر. (ع)
(2). أخرجه الترمذي والنسائي وإسحاق والحاكم من رواية بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن عائشة ، زاد إسحاق «برفع الراء».
(3). قوله «و هو الخلود مع الرزق» لعله : وهما. (ع)

عن رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم : «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم نصبه فاقة أبدا»«1»

سورة الحديد

مدنية ، وهي تسع وعشرون آية [نزلت بعد الزلزلة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحديد (57) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (6)

(1). أخرجه ابن وهب في جامعه حدثني السرى بن يحيى أن شجاعا حدثه عن أبى ظبية عن عبد اللّه بن مسعود تابعه يزيد بن أبى حكيم وعباس بن الفضل البصري كلاهما عن السرى. أخرجه البيهقي في الشعب من طريقهما.
وكذا رواه أبو يعلى من رواية محمد بن حبيب عن السرى. ورواه البيهقي في الشعب من رواية حجاج بن منهال عن السرى فقال : عن شجاع عن ابن فاطمة عن ابن مسعود. وكذا رواه أبو عبيد في فضائل القرآن من رواية السرى فقال : عن أبى ظبية ، فاختلف أصحاب السرى. هل شيخه شجاع أو أبو شجاع. وكذا اختلفوا في شيخ شجاع هل هو أبو فاطمة أو أبو ظبية. ثم اختلفوا في ضبط أبى ظبية فعند الدارقطني بالطاء المهملة بعدها تحتانية ، ثم موحدة وإنه عيسى بن سليمان الجرجاني. وأن روايته عن ابن مسعود منقطعة. ويؤيده أن الثعلبي أخرجه من طريق أبى بكر العطاردي عن السرى عن شجاع عن أبى ظبية الجرجاني. وعند البيهقي أنه بالمعجمة بعدها موحدة ، ثم تحتانية ، وأنه مجهول. وقال أحمد بن حنبل : هذا حديث منكر. وشجاع لا أعرفه.

جاء في بعض الفواتح سَبَّحَ على لفظ الماضي ، وفي بعضها على لفظ المضارع ، وكل واحد منهما معناه : أنّ من شأن من أسند إليه التسبيح أن يسبحه ، وذلك هجيراه وديدنه ، وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله تعالى وَتُسَبِّحُوهُ وأصله : التعدي بنفسه ، لأنّ معنى سبحته : بعدته عن السوء ، منقول من سبح إذا ذهب وبعد ، فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في : نصحته ، ونصحت له. وإما أن يراد بسبح للّه : أحدث التسبيح لأجل اللّه ولوجهه خالصا ، ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ما يتأتى منه التسبيح ويصح. فإن قلت : ما محل يُحْيِي؟

قلت : يجوز أن لا يكون له محل ، ويكون جملة برأسها ، كقوله لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وأن يكون مرفوعا على : هو يحيى ويميت ، ومنصوبا حالا من المجرور في لَهُ والجار عاملا فيها. ومعناه : يحيى النطف والبيض والموتى يوم القيامة ويميت الأحياء هُوَ الْأَوَّلُ هو القديم الذي كان قبل كل شيء وَالْآخِرُ الذي يبقى بعد هلاك كل شيء وَالظَّاهِرُ بالأدلة الدالة عليه وَالْباطِنُ لكونه غير مدرك بالحواس. فإن قلت : فما معنى الواو؟ «1» قلت الواو الأولى معناها الدلالة «2» على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية ، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء. وأما الوسطى ، فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين ، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو في جميعها ظاهر وباطن : جامع للظهور بالأدلة والخفاء ، فلا يدرك بالحواس. وفي هذا حجة على من جوّز إدراكه «3» في الآخرة بالحاسة. وقيل : الظاهر العالي على كل شيء الغالب له ، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه. والباطن الذي بطن كل شيء ، أى علم باطنه ، وليس بذاك مع العدول عن الظاهر المفهوم.

(1). قال محمود : «إن قلت : ما معنى الواو وأجاب بأن المتوسطة بين الأول والآخر للجمع بين معنى الأولية والبقاء الخ. قال : ومعنى الطاهر أى بالأدلة والباطن أى عن الحواس. وقيل : وفيه دليل الرد على من زعم أنه تعالى يرى في الآخرة بالحاسة» قال أحمد : «لا دليل فيه على ذلك ، فان لنا أن نقول : إن المراد عدم الإدراك بالحاسة في الدنيا لا في الآخرة. ونحن نقول به ، أو في الآخرة. والمراد : الكفار والجاحدون للرؤية كالقدرية ألا ترى إلى قوله كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ فانه قيل : تقييد وتخصيص على خلاف الظاهر. قلنا والمسألة قطعية ، فيكفى الاحتمال. وأيضا فقسيمه لا بد فيه من تخصيص ، فانه تعالى لم يظهر جميع خلقه على الأدلة الموصلة إلى معرفته ، بل أخفاها عن كثير منهم وحرمهم الفوز بالايمان به عز وجل ، فالظاهر إذا معناها في التخصيص كالثاني طبقا بينه وبين الأول.
(2). قوله «قلت الواو الأولى معناها الدلالة» الأولى إنما دلت على اجتماع الصفتين الأوليين ، والثالثة على اجتماع الأقربين. والثانية على اجتماع المجموعين. (ع)

(3). قوله «حجة على من جوز إدراكه» يريد أهل السنة ، وهم قد جوزوا رؤيته مطلقا ، وقالوا : لا تدركه الأبصار ، أى لا تحيط به، والمعتزلة أحالوا رؤيته تعالى ، وتفصيله في التوحيد. (ع)

[سورة الحديد (57) : الآيات 7 إلى 8]

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8)

مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ يعنى أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال اللّه بخلقه وإنشائه لها ، وإنما موّلكم إياها ، وخوّلكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها ، فليست هي بأموالكم في الحقيقة. وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنوّاب ، فأنفقوا منها في حقوق اللّه ، وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه. أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم : بتوريثه إياكم ، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم ، وسينقل منكم إلى من بعدكم ، فلا تبخلوا به ، وانفعوا بالإنفاق منها أنفسكم لا تُؤْمِنُونَ حال من معنى الفعل في مالكم ، كما تقول : مالك قائما ، بمعنى : ما تصنع قائما ، أى : وما لكم كافرين باللّه. والواو في وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ واو الحال ، فهما حالان متداخلتان. وقرئ : وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ والمعنى : وأى عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج ، وقبل ذلك قد أخذ اللّه ميثاقكم بالإيمان : حيث ركب فيكم العقول ، «1» ونصب لكم الأدلة ، ومكنكم من النظر ، وأزاح عللكم ، فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول ، فما لكم لا تؤمنون إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ لموجب ما ، فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. وقرئ : أخذ ميثاقكم ، «2» على البناء للفاعل ، وهو اللّه عز وجل.

[سورة الحديد (57) : آية 9]

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (9)

لِيُخْرِجَكُمْ اللّه بآياته من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. أو ليخرجكم الرسول بدعوته

(1). قال محمود : «أخذ الميثاق عبارة عن تركيب العقول فيهم ... الخ» قال أحمد : وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه اللّه في آية غير هذه ، إذ يقول تعالى وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى ولقد يريبني منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلا ووقوعها بالسمع قطعا إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخييلا ، فالقاعدة التي تعتمد عليها كى لا يضرك ما يومئ إليه أن ما كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع وجب حمله على ظاهره واللّه الموفق.
(2). قوله «و قرئ : أخذ ميثاقكم» يفيد أن القراءة على البناء للمفعول أشهر. (ع)

لَرَؤُفٌ وقرئ لرؤوف «1».

[سورة الحديد (57) : الآيات 10 إلى 11]

وَما لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)

وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا في أن لا تنفقوا وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باق لأحد من مال وغيره ، يعنى : وأى غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل اللّه والجهاد مع رسوله واللّه مهلككم فوارث أموالكم ، وهو من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل اللّه. ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ قبل فتح مكة قبل عز الإسلام وقوّة أهله ودخول الناس في دين اللّه أفواجا وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ، ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوح الدلالة أُولئِكَ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه» «2» أَعْظَمُ دَرَجَةً. وقرئ : قبل الفتح وَكُلًّا وكل واحد من الفريقين وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى أى المثوبة الحسنى وهي الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرئ بالرفع على : وكل وعده اللّه. وقيل : نزلت في أبى بكر رضى اللّه عنه ، لأنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل اللّه. القرض الحسن : الإنفاق في سبيله. شبه ذلك بالقرض

(1). قوله وقرئ «لرؤوف» يفيد أن القراءة بالقصر أشهر ، وفيه نظر فلينظر. وفي الصحاح : رؤف به - بالضم ، ورأف به - بالفتح ، ورئف به - بالكسر ، فهو رؤف على فعول. قال كعب بن مالك الأنصارى :
نطيع نبينا ونطيع ربا هو الرحمن كان بنا رءوفا
ورؤف أيضا على فعل. قال جرير :
يرى للمسلمين عليه حقا كفعل الوالد الرؤوف الرحيم
والظاهر أن رسمه بواو واحدة حال المد والقصر ، فيكون الأشهر قراءة المد ، كما هو الأشهر في الاستعمال اللغوي. (ع)
(2). متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. [.....]
(3). قوله «و قرئا منصوبين على جواب» أى قوله : فيضاعفه ، وقوله فيضعفه. (ع)

[سورة الحديد (57) : آية 12]

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

يَوْمَ تَرَى ظرف لقوله : وله أجر كريم. أو منصوب بإضمار «اذكر» تعظيما لذلك اليوم. وإنما قال بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم ، فجعل النور في الجهتين شعارا لهم وآية ، لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا ، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون : سعى بسعيهم ذلك النور جنيبا لهم ومتقدما. ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة. بُشْراكُمُ الْيَوْمَ. وقرئ : ذلك الفوز.

[سورة الحديد (57) : الآيات 13 إلى 15]

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (13) يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

يَوْمَ يَقُولُ بدل من يوم ترى انْظُرُونا انتظرونا ، لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف «1» بهم. وهؤلاء مشاة. وانظروا إلينا ، لأنهم إذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به. وقرئ : أنظرونا من النظرة وهي الإمهال : جعل انتظادهم في المضي إلى أن يلحقوا بهم إنظارا لهم نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ نصب منه ، وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً طرد لهم وتهكم بهم ، أى : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك ، فمن ثم يقتبس. أو ارجعوا إلى الدنيا ، فالتمسوا نورا بتحصيل سببه وهو الإيمان. أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا ،

(1). قوله «تزف بهم» أى : تسرع. أفاده الصحاح. (ع)

فالتمسوا نورا آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور ، وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو تخييب وإقناط لهم فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ بين المؤمنين والمنافقين بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار. وقيل : هو الأعراف لذلك السور بابٌ لأهل الجنة يدخلون منه باطِنُهُ باطن السور أو الباب ، وهو الشق الذي بلى الجنة وَظاهِرُهُ ما ظهر لأهل النار مِنْ قِبَلِهِ من عنده ومن جهته الْعَذابُ وهو الظلمة والنار. وقرأ زيد بن على رضى الله عنهما : فضرب بينهم على البناء للفاعل أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ يريدون موافقتهم في الظاهر فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها وَتَرَبَّصْتُمْ بالمؤمنين الدوائر وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وهو الموت وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ وغرّكم الشيطان بأنّ الله عفوّ كريم لا يعذبكم. وقرئ : الغرور ، بالضم فِدْيَةٌ ما يفتدى به هِيَ مَوْلاكُمْ قيل : هي أولى بكم ، وأنشد قول لبيد :

فندت كلا الفرجين تحسب أنّه مولى المخافة خلفها وأمامها «1»

وحقيقة مولاكم : محراكم ومقمنكم «2». أى : مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم ، كما قيل : هو مئنة للكرم ، أى مكان ، لقول القائل : إنه لكريم. ويجوز أن يراد : هي ناصركم ، أى لا ناصر لكم غيرها. والمراد : نفى الناصر على البتات. ونحوه قولهم : أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع «3». ومنه قوله تعالى يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ وقيل : تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار.

[سورة الحديد (57) : آية 16]

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (16)

(1) وتوجست رز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها
البيد من معلقته. يصف بقرة وحشية ، توجست : أى تسمعت البقرة. والتوجس : التسمع. ويقال : رزت السماء رزا ، بتقديم الراء إذا صوتت عند المطر فالرز بالفتح : التصويت الخفي ، وبالكسر : اسم للصوت الخفي.
ورز : أى صوت الأنيس ، وهم الصياد ، فأفزعها بظهر الغيب. وإقحام الظهر في مثل هذا التركيب : مبالغة في الخفاء ، لأن ما وراء الظهر لا يعلم ولا يدرى ما هو. وسمى الصياد أنيسا بالنسبة إلينا لا إليها ، لأنه عناؤها وسبب خوفها ، فجعله نفس السقام مبالغة. وكلا الفرجين : مبتدأ. وتحسب أنه مولى المخافة : خبر ، أى أنه الأولى بالخوف من جهته. وخلفها وأمامها : خبر لمبتدإ محذوف ، أو بدل من كلا الفرجين للتوضيح والتبيين ، أى : لهما ما بين رجليها وما بين يديها ، وبعضهم فسرهما بنقرتين في الجبل ، وعليه فلا معنى للام العهد فيهما.
(2). قوله «محراكم ومقمنكم» يقال : هو حرى أن يفعل كذا ، وهو قمن أن يفعله ، أى : جدير بذلك وحقيق به. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «فاستنصر الجزع» لعله : الجزع ، أى : نقيض الصبر. (ع)

أَلَمْ يَأْنِ من أنى الأمر يأنى ، إذا جاء إناه ، أى. وقته. وقرئ : ألم يئن ، من آن يئين بمعنى : أنى يأنى ، وألما يأن ، قيل : كانوا مجدبين بمكة ، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه ، فنزلت. وعن ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين «1». وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: أنّ اللّه استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن. وعن الحسن رضى اللّه عنه : أما واللّه لقد استبطأهم وهم يقرؤن من القرآن أقل مما تقرءون. فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق.

وعن أبى بكر رضى اللّه عنه أنّ هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاء شديدا ، فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب. وقرئ : نزّل ونزل. وأنزل وَلا يَكُونُوا عطف على تخشع ، وقرئ بالتاء على الالتفات. ويجوز أن يكون نهيا لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا ، وذلك أنّ بنى إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا للّه ورقت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره. فإن قلت : ما معنى لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ؟ قلت : يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق : القرآن ، لأنه جامع للأمرين : للذكر والموعظة ، وأنه حق نازل من السماء ، وأن يراد خشوعها إذا ذكر اللّه وإذا تلى القرآن كقوله تعالى إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً أراد بالأمد : الأجل ، كقوله : ..... إذا انتهى أمده«2»

وقرئ : الأمدّ ، أى : الوقت الأطول وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين.

[سورة الحديد (57) : آية 17]

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)

(1). أخرجه مسلم بلفظ «و بين أن عاتبنا اللّه» ووهم الحاكم فاستدركه.
(2). قوله «كقوله إذا انتهي أمده» البيت من أوله :
كل حى مستكمل مدة العمر ومود إذا انتهى أمده .... اه عليان
قلت : قد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 277 فراجعه إن شئت. اه مصححه.

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قيل : هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب ، وأنه يحييها كما يحيى الغيث الأرض.

[سورة الحديد (57) : آية 18]

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

الْمُصَّدِّقِينَ المتصدّقين. وقرئ على الأصل. والمصدّقين من صدق ، وهم الذين صدقوا اللّه ورسوله يعنى المؤمنين. فإن قلت : علام عطف قوله وَأَقْرَضُوا؟ قلت : على معنى الفعل في المصدّقين ، لأنّ اللام بمعنى الذين، واسم الفاعل بمعنى اصدقوا ، كأنه قيل : إنّ الذين اصدقوا وأقرضوا. والقرض الحسن : أنّ يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة. وقرئ : يضعف ، ويضاعف ، بكسر العين ، أى : يضاعف اللّه.

[سورة الحديد (57) : آية 19]

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (19)

يريد أنّ المؤمنين باللّه ورسله هم عند اللّه بمنزلة الصديقين والشهداء : وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل اللّه لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ أى : مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم. فإن قلت : كيف يسوّى بينهم في الأجر ولا بدّ من التفاوت؟ قلت : المعنى أنّ اللّه يعطى المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضله ، حتى يساوى أجرهم مع أضعافه أجر أولئك.

ويجوز أن يكون وَالشُّهَداءُ مبتدأ ، ولَهُمْ أَجْرُهُمْ خيره.

[سورة الحديد (57) : آية 20]

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (20)

أراد أنّ الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر.

وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام ، وهي : العذاب الشديد والمغفرة ورضوان اللّه. وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل «1» وأعجب به

(1). قوله «فاستوى واكتهل» في الصحاح : اكتهل النيات ، أى : تم طوله وظهر نوره. (ع)

الكفار الجاحدون لنعمة اللّه فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليه العاهة فهاج واصفرّ وصار حطاما عقوبة لهم على جحودهم ، كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين. وقيل الْكُفَّارَ : الزراع. وقرئ : مصفارا

[سورة الحديد (57) : آية 21]

سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)

سابِقُوا سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ، إلى جنة عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ قال السدى : كعرض سبع السماوات وسبع الأرضين ، وذكر العرض دون الطول ، لأنّ كل ماله عرض وطول فإنّ عرضه أقل من طوله ، فإذا وصف عرضه بالبسطة : عرف أنّ طوله أبسط وأمدّ. ويجوز أن يراد بالعرض : البسطة ، كقوله تعالى فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ لما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة : بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك : وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة ذلِكَ الموعود من المغفرة والجنة فَضْلُ اللَّهِ عطاؤه يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وهم المؤمنون.

[سورة الحديد (57) : الآيات 22 إلى 24]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

المصيبة في الأرض : نحو الجدب وآفات الزروع والثمار. وفي الأنفس : نحو الأدواء والموت فِي كِتابٍ في اللوح مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها يعنى الأنفس أو المصائب إِنَّ ذلِكَ إنّ تقدير ذلك وإثباته في كتاب عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ وإن كان عسيرا على العباد ، ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه فقال لِكَيْلا تَأْسَوْا ... وَلا تَفْرَحُوا يعنى أنكم إذا علمتم أنّ كل شيء مقدر مكتوب عند اللّه قلّ أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي ، لأنّ من علم أن ما عنده معقود لا محالة : لم يتفاقم جزعه عند فقده ، لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أنّ بعض الخير واصل إليه ، وأن وصوله لا يفوته بحال : لم يعظم فرحه عند نيله وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ لأنّ من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه : اختال وافتخر به وتكبر على الناس.

قرئ : بما آتاكم. وأتاكم ، من الإيتاء والإتيان. وفي قراءة ابن مسعود : بما أوتيتم. فإن قلت : فلا أحد يملك نفسه - عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها - أن لا يحزن ولا يفرح.

قلت : المراد : الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر اللّه ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر ، فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام ، والسرور بنعمة اللّه والاعتداد بها مع الشكر : فلا بأس بهما الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بدل من قوله كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ كأنه قال : لا يحب الذين يبخلون ، يريد : الذين يفرحون الفرح المطغى إذا رزقوا مالا وحظا من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم وعظمه في عيونهم : يزوونه عن حقوق اللّه ويبخلون به ، ولا يكفيهم أنهم بخلوا حتى يحملوا الناس على البخل ويرغبوهم في الإمساك ويزينوه لهم ، وذلك كله نتيجة فرحهم به وبطرهم عند إصابته وَمَنْ يَتَوَلَّ عن أوامر اللّه ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتى : فإنّ اللّه غنى عنه. وقرئ : بالبخل. وقرأ نافع : فإنّ اللّه الغنى ، وهو في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك.

[سورة الحديد (57) : آية 25]

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا يعنى الملائكة إلى الأنبياء بِالْبَيِّناتِ بالحجج والمعجزات وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ أى الوحى وَالْمِيزانَ روى أنّ جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال : مر قومك يزنوا به وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ قيل : نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان ، والكلبتان ، والميقعة ، والمطرقة «1»، والإبرة. وروى : ومعه المر والمسحاة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنّ اللّه تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : أنزل الحديد ، والنار ، والماء ، والملح «2». وعن الحسن وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ : خلقناه ، كقوله تعالى وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ وذلك أن أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وهو القتال به وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم ،

(1). قوله «و الميقعة والمطرقة ... الخ» في الصحاح «الميقعة» : المطرقة. والميقعة - أيضا - : المسن الطويل.
والمر : الحبل ، والمسحاة كالمجرفة ، إلا أنها من حديد. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي من حديث ابن عمر ، وفي إسناده من لا أعرفه.

فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها ، أو ما يعمل بالحديد وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين بِالْغَيْبِ غائبا عنهم ، قال ابن عباس رضى اللّه عنهما : ينصرونه ولا يبصرونه إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ غنى بقدرته وعزته في إهلاك من يريد هلاكه عنهم ، وإنما كلفهم الجهاد لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب.

[سورة الحديد (57) : آية 26]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (26)

وَالْكِتابَ والوحى. وعن ابن عباس : الخط بالقلم ، يقال : كتب كتابا وكتابة مِنْهُمْ فمن الذرية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين. وهذا تفصيل لحالهم ، أى : فمنهم مهتد ومنهم فاسق ، والغلبة للفساق.

[سورة الحديد (57) : آية 27]

ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27)

قرأ الحسن : الإنجيل ، بفتح الهمزة ، وأمره أهون من أمر البرطيل والسكينة فيمن رواهما بفتح الفاء ، لأنّ الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ أبنية العرب. وقرئ : رآفة ، على : فعالة ، أى : وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم. ونحوه في صفة أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رُحَماءُ بَيْنَهُمْ. والرهبانية : ترهبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، وذلك أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى، فقاتلوهم ثلاث مرات ، فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل ، فخافوا أن يفتنوا في دينهم ، فاختاروا الرهبانية : ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، «1»

وهو الخائف : فعلان من رهب ، كخشيان من خشي. وقرئ : ورهبانية بالضم ، كأنها نسبة إلى الرهبان : وهو جمع راهب كراكب وركبان ، وانتصابها بفعل مضمر «2» يفسره الظاهر : تقديره.

(1). قال محمود : «الرهبانية : الفعلة المنسوبة للرهبان ... الخ» قال أحمد : وفيه إشكال ، فان النسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول عندهم حتى يرد إلى مفرده ، إلا أن يقال : إنه لما صار الرهبان طائفة مخصوصة صار هذا الاسم - وإن كان جمعا - كالعلم لهم ، فلحق بأنصارى ومدائنى وأعرابى.

(2). قال محمود : «و هي منصوبة بفعل مضمر ... الخ» قال أحمد : في إعراب هذه الآية تورط أبو على الفارسي وتحيز إلى فئة الفتنة وطائفة البدعة ، فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره الظاهر ، وعلل امتناع العطف فقال : ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على جَعَلْنا مع وصفها بقوله ابْتَدَعُوها لأن ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم ، والزمخشري ورد أيضا مورده الذميم ، وأسلمه شيطانه الرجيم ، فلما أجاز ما منعه أبو على من جعلها معطوفة : أعذر لذلك بتحريف الجعل إلى التوفيق ، فرارا مما فر منه أبو على : من اعتقاد أن ذلك مخلوق للّه تعالى ، وجنوحا إلى الاشراك واعتقاد أن ما يفعلونه هم لا يفعله اللّه تعالى ولا يخلقه ، وكفى بما في هذه الآية دليلا بعد الأدلة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقداه ، فانه ذكر محل الرحمة والرأفة مع العلم بأن محلها القلب ، فجعل قوله فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ تأكيدا لخلقه هذه المعاني وتصويرا لمعنى الخلق بذكر محله ، ولو كان المراد أمرا غير مخلوق في قلوبهم للّه تعالى كما زعما : لم يبق لقوله في قلوب الذين اتبعوه موقع ، ويأبى اللّه أن يشتمل كتابه الكريم على مالا موقع له ، ألهمنا اللّه الحجة وتهج بنا واضح المحجة ، إنه ولى التوفيق وواهب التحقيق.

وابتدعوا رهبانية ابْتَدَعُوها يعنى : وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ لم نفرضها نحن عليهم إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ استثناء منقطع ، أى : ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان اللّه فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها كما يجب على الناذر رعاية نذره ، لأنه عهد مع اللّه لا يحل نكثه فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا يريد : أهل الرحمة والرأفة الذين اتبعوا عيسى وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ الذين لم يحافظوا على نذرهم. ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها ، وابتدعوها : صفة لها في محل النصب ، أى : وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم ، بمعنى : وقفناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها ، ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان اللّه ويستحقوا بها الثواب ، على أنه كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن ويبتغوا بذلك رضا اللّه وثوابه، فما رعوها جميعا حق رعايتها ، ولكن بعضهم ، فآتينا المؤمنين المراعين منهم للرهبانية أجرهم ، وكثير منهم فاسقون. وهم الذين لم يرعوها.

[سورة الحديد (57) : آية 28]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يجوز أن يكون خطابا للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا «1»

من غيرهم ، فإن كان خطابا لمؤمنى أهل الكتاب. فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد يُؤْتِكُمْ اللّه كِفْلَيْنِ أى نصيبين مِنْ رَحْمَتِهِ لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله وَيَجْعَلْ لَكُمْ يوم القيامة نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وهو النور المذكور في قوله يَسْعى نُورُهُمْ. وَيَغْفِرْ لَكُمْ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي.

[سورة الحديد (57) : آية 29]

لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

(1). قوله «و الذين آمنوا» لعله والذين آمنوا. (ع)

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ الذين لم يسلموا ، ولا مزيدة أَلَّا يَقْدِرُونَ أن مخففة من الثقيلة ، أصله : أنه لا يقدرون، يعنى : أنّ الشأن لا يقدرون عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللّه أى : لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله من الكفلين : والنور والمغفرة ، لأنهم لم يؤمنوا برسول اللّه ، فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ، ولم يكسبهم فضلا قط. وإن كان خطابا لغيرهم ، فالمعنى : اتقوا اللّه واثبتوا على إيمانكم برسول اللّه يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ولا ينقصكم من مثل أجرهم ، لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله. روى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعث جعفرا رضى اللّه عنه في سبعين راكبا إلى النجاشي يدعوه ، فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له ، فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلا. ائذن لنا في الوفادة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأذن لهم فقدموا مع جعفر وقد تهيأ لوقعة أحد ، فلما رأوا ما بالمسلمين من خصاصة : استأذنوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فرجعوا وقدموا بأموال لهم فآسوا بها المسلمين «1»، فأنزل اللّه الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ ... إلى قوله ... وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ فخروا على المسلمين وقالوا : أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرّتين، وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجركم ، فما فضلكم علينا؟ فنزلت. وروى أنّ مؤمنى أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرّتين ، وادعوا الفضل عليهم ، فنزلت. وقرئ لكي يعلم. ولكيلا يعلم. وليعلم. ولأن يعلم : بإدغام النون في الياء. ولين يعلم : بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء. وعن الحسن : ليلا يعلم ، بفتح اللام وسكون الياء. ورواه قطرب بكسر اللام. وقيل في وجهها : حذفت همزة أن، وأدغمت نونها في لام لا ، فصار «للا» ثم أبدلت من اللام المدغمة ياء ، كقولهم : ديوان ، وقيراط. ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجرّ الفتح ، كما أنشد : أريد لأنسى ذكرها. «2» ..

(1). المعروف أن جعفر إنما قدم بعد أحد بزمان ، قدم عند فتح خيبر. [.....]

(2) أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

لقيس بن الملوح مجنون ليلى العامرية. وقيل : لكثير صاحب عزة ، وكنى عنها بليلى تسترا. وقيل : سرقه كثير من شعر جميل صاحب بثنية. وقوله : لأنسى بفتح لام الجر على الأصل في الحروف المفردة ، وتلك : لغة عكل ، ويتعين فيها إذا دخلت على فعل منصوب بأن مضمرة كما هنا. وتروى بالكسر على اللغة المشهورة ، أى : أريد لنسيان تذكرها ، واللام زائدة ، لكنها هي التي أشعرت بحذف «إن» ، وتمثل : أصله تتمثل ، أى تتشكل وتتخيل أمامى ليلى بكل طريق ، إما الحسى وإما طريق الذكر ، والأول أوجه ، بدليل قوله «كأنما» وتمثلها له يوجب تذكرها. وما زائدة بعد كان ، كافة لها عن العمل فلذلك دخلت على الفعل.

وقرئ : أن لا يقدروا بِيَدِ اللّه في ملكه وتصرفه. واليد مثل يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه. عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا باللّه ورسله» «1».

سورة المجادلة

مدنية ، وآياتها 22 [نزلت بعد المنافقون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المجادلة (58) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قالت عائشة رضى اللّه عنها : الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات : «2»

لقد كلمت المجادلة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع ، وقد سمع «3»

لها. وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها وقال : قد سمع اللّه لها. وقرئ : تحاورك ، أى : تراجعك الكلام. وتحاولك ، أى : تسائلك ، وهي خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخى عبادة : رآها وهي تصلى وكانت حسنة الجسم ، فلما سلمت راودها فأبت ، فغضب وكان به خفة ولمم «4»، فظاهر منها ، فأتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت : إن أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب فىّ ، فلما خلا سنى ونثرت بطني - أى : كثر ولدى - جعلني عليه «5»

كأمّه. وروى أنها قالت له :

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى كعب.
(2). قال محمود : «قالت عائشة رضى اللّه عنها : الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات ... الخ» قال أحمد : ولقد استدل به بعضهم على عدم لزوم ظهار الذمي ، وليس بقوى ، لأنه غير المقصود.
(3). أخرجه النسائي وابن ماجة والطبري وأحمد وإسحاق والبزار من طريق الأعمش عن تميم بن سلمة عن عروة عن عائشة. وعلقه البخاري ، وأخرجه الحاكم أتم سياقا منه ، وفيه تسميتها وتسمية زوجها.
(4). قوله «و لمم» أى طرف من الجنون ، أو مس من الجن. أفاده الصحاح (ع)
(5). أخرجه الدارقطني والبيهقي.

إنّ لي صبية صغارا ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا. فقال : ما عندي في أمرك شيء. وروى أنه قال لها : حرمت عليه ، فقالت : يا رسول اللّه ، ما ذكر طلاقا وإنما هوأبو ولدى وأحب الناس إلىّ ، فقال : حرمت عليه ، فقالت : أشكو إلى اللّه فاقتي ووجدي ، كلما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : حرمت عليه ، هتفت وشكت إلى اللّه «1»، فنزلت فِي زَوْجِها في شأنه ومعناه إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر. فإن قلت : ما معنى قَدْ في قوله قَدْ سَمِعَ؟ قلت : معناه التوقع ، لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع اللّه مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 2 إلى 4]

الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)

الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ في مِنْكُمْ توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار ، لأنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ وقرئ بالرفع على اللغتين الحجازية والتميمية. وفي قراءة ابن مسعود : بأمّهاتهم ، وزيادة الباء في لغة من ينصب. والمعنى أن من يقول لامرأته أنت علىّ كظهر أمى : ملحق في كلامه هذا للزوج بالأم ، وجاعلها مثلها.

وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هنّ الوالدات وغيرهنّ ملحقات بهنّ لدخولهنّ في حكمهنّ ، فالمرضعات أمّهات لأنّهنّ لما أرضعن دخلن بالرضاع في حكم الأمهات ،

(1). هذه الرواية الثانية أخرجها الطبري من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب القرظي قال : كانت خولة بنت ثعلبة تحت أوس بن الصامت. وكان رجلا به لمم. فقال في بعض هجراته : أنت على كظهر أمى ، قال : ما أظنك إلا قد حرمت على فجاءت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت : يا نبى اللّه ، إن أوس بن الصامت أبو ولدى ، وأحب الناس إلى ، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا قال : ما أراك إلا حرمت عليه ، فقالت : يا رسول اللّه لا تقل كذلك واللّه ما ذكر طلاقا. فراودت النبي صلى اللّه عليه وسلم مرارا ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك فاقتي ووحدتي وما يشق على من فراقه - الحديث» ومن طريق أبى العالية قال : فجعلت كلما قال لها : حرمت عليه ، هتفت وقالت : أشكو إلى اللّه ، فلم ترم مكانها حتى نزلت الآية.

وكذلك أزواج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمهات المؤمنين ، لأن اللّه حرّم نكاحهن على الأمة فدخلن بذلك في حكم الأمهات. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة لأنهنّ لسن بأمّهات على الحقيقة. ولا بداخلات في حكم الأمهات ، فكان قول المظاهر : منكرا من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزورا وكذبا باطلا منحرفا عن الحق وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ لما سلف منه إذا تيب عنه ولم يعد إليه ، ثم قال : وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا يعنى : والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول «1»

المنكر فقطعوه بالإسلام ، ثم يعودون لمثله ، فكفارة من عاد أن يحرّر رقبة ثم يماس المظاهر منها لا تحل له مماستها إلا بعد تقديم الكفارة. ووجه آخر : ثم يعودون لما قالوا : ثم يتداركون ما قالوا «2»، لأنّ المتدارك للأمر عائد إليه. ومنه المثل : عاد غيث على ما أفسد ، أى : تداركه بالإصلاح. والمعنى : أن تدارك هذا القول وتلافيه بأن يكفر حتى ترجع حالهما كما كانت قبل الظهار. ووجه ثالث : وهو أن يراد بما قالوا : ما حرّموه«3»

(1). قال محمود : «يعنى والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول ... الخ» قال أحمد : وهذا الوجه يلزم الكفارة لمجرد قول الظهار في الإسلام لا غير ، والقول بوجوبها بمجرد الظهار : قول مجاهد من التابعين وسفيان من الفقهاء.

(2). قال محمود : «و وجه ثان ثم يعودون لما قالوا ثم يتداركون ما قالوا ... الخ» قال أحمد : وهذا التفسير منزل على أن وجوب الكفارة مشروط بالعود بعد الظهار وهو القول المشهور لفقهاء الأمصار ولا يخص هذا التفسير وجها من وجوه العود التي ذكرها العلماء.

(3). قال محمود : «و وجه ثالث : وهو أن يكون المراد بما قالوه ... الخ» قال أحمد : وهذا التفسير يقوى القول بأن العود الوطء. نفسه ، لأن حاصله : ثم يعودون للوطء ، وظاهر قولك : عاد الوطء. فعله ، وحمل العود على الوطء : من جملة أقوال مالك رحمه اللّه، فقد تلخص أن كلام المختلفين في العود له مآخذ من هذه الآية ، فأما من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلا على مجرد الظهار ، فحمل العود على الظهار ، وتسميته عودا والحالة هذه باعتبار أنه كان في الجاهلية وانقطع في الإسلام ، فايقاعه بعد الإسلام عود إليه. وأما من أوقفها على العود وجعل العود أن يعيد لفظ الظهار وهو قول داود فاعتبر ظاهر اللفظ ، وأما من حمل العود على العزم على الوطء فرأى أن العود إلى القول الأول عود بالتدارك لا بالتكرار ، وتدارك بعضه ببعضه ، وهل نقيضه العزم على الوطء لأن الأول امتناع منه أو العزم على الإمساك ، لأن العصمة تقتضي الحل وعدم الامتناع ، فيكفى محل خلاف. وأما من حمله على الوطء نفسه فرأى أن المراد بالقول المقول فيه ، ويحمل قوله مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا أى مرة ثانية. وقد اختلف العلماء أيضا فيما إذا قدم الوطء على الكفارة ، فالمذهب المشهور للعلماء أن ذلك لا يسقط الكفارة ولا يوجب أخرى.

وذهب مجاهد إلى إيجاب أخرى به ، وذهبت طائفة إلى إسقاط الكفارة به أصلا ورأسا ، وكأن منشأ خلافهم النظر إلى قوله مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فرآه أكثر العلماء منعا من الوطء قبل التكفير ، حتى كأنه قال : لا تماس حتى تكفر ، ورأته الطائفة المسقطة للكفارة بالوطء شرطا في الوجوب ، فلا جرم إذا مسها ، فقد فقد الشرط الذي هو عدم التماس فسقط الوجوب. ورآه مجاهد في إيجاب الكفارة ، فإذا تماسا قبل الكفارة تعددت ، ثم فيه نظر آخر : وهو أنه ذكر عدم التماس في كفارتى العتق والصوم ، وأسقطه في كفارة الإطعام ، فتلقى أبو حنيفة بذلك الفرق بين الإطعام وبين الأخريين ، حتى أنه لو وطئ في حال الإطعام لم يجب عليه استئناف كفارة ، بخلاف الأخريين فان الوطء في خلال كل واحدة منهما يوجب إبطالها واستئناف أخرى ، على أن أبا حنيفة سوى بين الثلاث في تحريم المساس قبل حصولها كاملة ، كذا نقل الزمخشري عنه. ولقائل أن يقول على أبى حنيفة : إذا جعلت الفائدة في ذكر عدم التماس في بعضها وإسقاطه من بعضها الفرق بين أنواعها ، فلم صرفت الفرق إلى أحد الحكمين وهو إيجاب الاستئناف بالوطء في خلال الكفارة في بعضها دون البعض دون الحكم الآخر وهو تحريم التماس قبل الشروع في الكفارة ، فما تخصيص أحد الحكمين دون الآخر إلا نوع من التحكم. وله أن يقول : اتفقنا على التسوية فيه فتعين صرفه إلى الآخر هذا منتهى النظر مع أبى حنيفة ، ورأى القائلون بأن الطعام يبطل بتخلل الوطء في أثنائه كالصيام : أن فائدة ذكره عدم المماسة ، ثم إسقاطه للتنبيه على التسوية بين التكفير قبل وبعد. وتقريره : أن ذكره مع الاثنين كذكره مع الثالث ، وإطلاق الثالث كاطلاق الاثنين ، فكأنه قال في الجميع : من قبل أن يتماسا ومن بعد. وانطوى إيراد الآية على هذا الوجه على إبطال قول من قال : إن الأمر يختلف بين ما قبل التماس وما بعده فيجب قبل ويسقط بعد ، وعلى قول من قال : يجب قبل كفارة وبعد كفارتان ، وهاهنا نظر آخر : في أنه لم ذكر عدم التماس مع نوعين منها ، وقد كان ذكره مع واحد منها مفيدا لهذه الفائدة على التقرير المذكور. والجواب عنه :

أن ذكره مع العتق مقتصر على إفادة تحريم الوطء قبل العتق ، ولا يتصور في العتق الوطء في أثنائه ، إذ لا يتبعض ولا يتفرق ، فاحتيج إلى ذكره مع الصيام الواقع على التوالي ليفيد تحريم الوطء قبل الشروع فيه وبعد الشروع إلى التمام ، إذ لو لم يذكره هنا لتوهم أن الوطء إنما يحرم قبل الشروع خاصة لا بعد ، لأنها هي الحالة التي دل عليها التقييد في العتق ، فلما ذكره مع الصيام الواقع متواليا: استغنى عن ذكره مع الطعام لأنه مثله في التعدد والتوالي وإمكان الوطء في خلاله ، وهذا التقرير منزل على أن العتق لا يتجزأ ولا يتبعض ، وهذا هو المرضى. وقد نقل العيني عن ابن القاسم أن من أعتق شقصا من عبد يملك جميعه ثم أعتق بقيته عن الظهار : أن

على أنفسهم بلفظ الظهار ، تنزيلا للقول منزلة المقول فيه نحو ما ذكرنا في قوله تعالى وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ ويكون المعنى : ثم يريدون العود للتماس. والمماسة : الاستمتاع بها من جماع ، أو لمس بشهوة ، أو نظر إلى فرجها لشهوة «1»

ذلِكُمْ الحكم تُوعَظُونَ بِهِ لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب اللّه عليه. فإن قلت : هل يصح الظهار بغير هذا اللفظ؟ قلت : نعم إذا وضع مكان أنت عضوا منها يعبر به عن الجملة كالرأس والوجه والرقبة والفرج ، أو مكان الظهر عضوا آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ. ومكان الأمّ ذات رحم محرم منه من نسب أو رضاع أو صهر أو جماع ، نحو أن يقول : أنت علىّ كظهر أختى من الرضاع

(1). قوله «أو نظر إلى فرجها لشهوة» عبارة التسفى بشهوة. (ع)

أو عمتي من النسب أو امرأة ابني أو أبى أو أمّ امرأتى أو بنتها ، فهو مظاهر. وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه. وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعى والثوري وغيرهم نحوه. وقال الشافعي : لا يكون الظهار إلا بالأمّ وحدها وهو قول قتادة والشعبي. وعن الشعبي : لم ينس اللّه أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات ، إذ أخبر أن الظهار انما يكون بالأمّهات الوالدات دون المرضعات. وعن بعضهم : لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهارا. فإن قلت : فإذا امتنع المظاهر من الكفارة ، هل للمرأة أن ترافعه؟ قلت : لها ذلك. وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر ، وأن يحبسه ، ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها ، لأنه يضرّبها في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع ، فيلزم إيفاء حقها. فإن قلت : فإن مسّ قبل أن يكفر؟ قلت : عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر ، لما روى أن سلمة بن صخر البياضي قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ظاهرت من امرأتى ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمراء فواقعتها ، فقال عليه الصلاة والسلام : «استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر» «1»

فإن قلت : أى رقبة تجزئ في كفارة الظهار؟ قلت : المسلمة والكافرة جميعا ، لأنها في الآية مطلقة.

وعند الشافعي لا تجزى إلا المؤمنة. لقوله تعالى في كفارة القتل فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ولا تجزى أمّ الولد والمدبر والمكاتب الذي أدّى شيئا ، فإن لم يؤدّ شيئا جاز. وعند الشافعي : لا يجوز : فإن قلت : فإن أعتق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مس؟ قلت : عليه أن يستأنف - نهارا مس - أو ليلا - ناسيا أو عامدا - عند أبى حنيفة ، وعند أبى يوسف ومحمد : عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه ، وإن كان المسّ يفسد الصوم استقبل ، وإلا بنى. فإن قلت : كم يعطى المسكين في الإطعام؟

قلت : نصف صاع من برّ أو صاعا من غيره عند أبى حنيفة ، وعند الشافعي مدّا من طعام بلده الذي يقتات فيه. فإن قلت : ما بال التماس لم يذكر عند الكفارة بالإطعام كما ذكر عند الكفارتين؟ قلت : اختلف في ذلك ، فعند أبى حنيفة : أنه لا فرق بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس ، وإنما ترك ذكره عند الإطعام دلالة على أنه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم إذا وقع في خلاله. وعند غيره : لم يذكر للدلالة على أن التكفير قبله وبعده سواء.

(1). لم أره بهذا اللفظ وهو في السنن الأربعة من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس «أن رجلا ظاهر من امرأته ، ثم واقعها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فأخبره فقال : ما حملك على ما صنعت؟ قال :
رأيت بياض ساقها في القمر. قال : فاعتزلها حتى تكفر عنك» وللترمذي «قال : رأيت خلخالها في القمر. قال :
فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك اللّه» أخرجوه من رواية الفضل بن موسى عن معمر عنه موصولا ، وأبو داود والنسائي من رواية عبد الرزاق عن معمر مرسلا. قال النسائي : هذا أولى بالصواب ولأبى داود والترمذي من حديث سلمة بن صخر بن البياضي قال : كنت امرأ أستكثر من النساء. فذكر القصة مطولة ، وليس فيها «استغفر اللّه» إلى آخره.

فإن قلت : الضمير في أن يتماسا إلام يرجع؟ قلت : إلى ما دلّ عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها ذلِكَ البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ، ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ التي لا يجوز تعدّيها وَلِلْكافِرِينَ الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها عَذابٌ أَلِيمٌ.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 5 إلى 6]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

يُحَادُّونَ يعادون ويشاقون كُبِتُوا أخزوا وأهلكوا كَما كُبِتَ من قبلهم من أعداء الرسل. قيل : أريد كبتهم يوم الخندق وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به وَلِلْكافِرِينَ بهذه الآيات عَذابٌ مُهِينٌ يذهب بعزهم وكبرهم يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ منصوب بلهم. أو بمهين. أو بإضمار اذكر تعظيما لليوم جَمِيعاً كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث. أو مجتمعين في حال واحدة ، كما تقول : حى جميع فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا تخجيلا لهم وتوبيخا وتشهيرا بحالهم ، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار ، لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد أَحْصاهُ اللَّهُ أحاط به عددا لم يفته منه شيء وَنَسُوهُ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه لم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصي ، وإنما تحفظ معظمات الأمور.

[سورة المجادلة (58) : آية 7]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

ما يَكُونُ من كان التامة. وقرئ بالياء والتاء ، والياء على أنّ النجوى تأنيثها غير حقيقى ومن فاصلة. أو على أنّ المعنى ما يكون شيء من النجوى. والنجوى : التناجي ، فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة ، أى : من نجوى ثلاثة نفر. أو موصوفة بها ، أى : من أهل نجوى ثلاثة ، فحذف الأهل. أو جعلوا نجوى في أنفسهم مبالغة ، كقوله تعالى : خلصوا نجيا. وقرأ ابن أبى عيلة : ثلاثة وخمسة ، بالنصب على الحال بإضمار يتناجون، لأن نجوى يدل عليه. أو على تأويل نجوى بمتناجين ، ونصبها من المستكن فيه. فإن قلت : ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن قوما من المنافقين تحلقوا للتناجى مغايظة للمؤمنين على هذين العددين : ثلاثة وخمسة ، فقيل : ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك وَلا أَدْنى مِنْ عدديهم وَلا أَكْثَرَ إِلَّا والله معهم يسمع ما يقولون ، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه : أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية : كانوا يوما يتحدثون ، فقال أحدهم : أترى أن الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر : يعلم بعضا ولا يعلم بعضا.

وقال الثالث : إن كان يعلم بعضا فهو يعلم كله ، وصدق. لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها لأن كونه عالما بغير سبب ثابت له مع كل معلوم ، والثاني : أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمتخالين للشورى والمندبون «1» لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتباة من أولى النهى والأحلام ، ورهط من أهل الرأى والتجارب ، وأول عددهم الاثنان فصاعدا إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب. ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع ، فذكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ فدلّ على الاثنين والأربعة وقال وَلا أَكْثَرَ فدلّ على ما يلي هذا العدد ويقاربه. وفي مصحف عبد الله : إلا الله رابعهم ، ولا أربعة إلا الله خامسهم، ولا خمسة إلا الله سادسهم ، ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا. وقرئ : ولا أدنى من ذلك ولا أكثر ، بالنصب على أن لا لنفى الجنس.

ويجوز أن يكون : ولا أكثر ، بالرفع معطوفا على محل لا مع أدنى ، كقولك : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، بفتح الحول ورفع القوّة. ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء ، كقولك : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، وأن يكون ارتفاعهما عطفا على محل مِنْ نَجْوى كأنه قيل : ما يكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. ويجوز أن يكونا مجرورين «2» عطفا على نجوى ، كأنه قيل : ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. وقرئ : ولا أكبر ،

[سورة المجادلة (58) : آية 8]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)

(1). قوله «و المندبون لذلك» لعل أصله ، المنتدبون ، فأدغم. (ع)
(2). قوله «و يجوز أن يكونا مجرورين» على قراءة أَكْثَرَ بفتح الراء. (ع) [.....]

كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين ، يريدون أن يغيظوهم ، فنهاهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فعادوا لمثل فعلهم ، وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته. وقرئ : ينتجون بالإثم والعدوان ، بكسر العين ، ومعصيات الرسول حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ يعني أنهم يقولون في تحيتك : السام عليك يا محمد والسام : الموت ، واللّه تعالى يقول وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى ويا أَيُّهَا الرَّسُولُ ويا أَيُّهَا النَّبِيُّ : لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ كانوا يقولون : ما له إن كان نبيا لا يدعو علينا حتى يعذبنا اللّه بما نقول ، فقال اللّه تعالى حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ عذابا.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 9 إلى 10]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خطاب للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم. ويجوز أن يكون للمؤمنين ، أى : إذا تناجيتم فلا تتشبهوا بأولئك في تناجيهم بالشر وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه» «1»

وروى «دون الثالث». وقرئ فلا تناجوا. وعن ابن مسعود : إذا انتجيتم فلا تنتجوا إِنَّمَا النَّجْوى اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان ، بدليل قوله تعالى لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا والمعنى : أنّ الشيطان يزينها لهم ، فكأنها منه ليغيظ الذين آمنوا ويحزنهم وَلَيْسَ الشيطان أو الحزن بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. فإن قلت : كيف لا يضرهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن اللّه؟ قلت : كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأنّ أقاربهم قتلوا ، فقال : لا يضرهم الشيطان أو الحزن بذلك الموهم إلا بإذن اللّه ، أى : بمشيئته ، وهو أن يقضى الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة. وقرئ : ليحزن ، وليحزن.

(1). متفق عليه وهذا اللفظ لمسلم من حديث ابن مسعود. وقوله : «و روى دون الثالث» هذا اللفظ البخاري «فائدة» أخرج البزار من حديث ابن عمر نحوه - وزاد «إلا باذنه» قلت : فان كانوا أربعة؟ قال : لا بأس به».

[سورة المجادلة (58) : آية 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)

تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : أفسح عنى ، أى : تنح ، ولا تتضامّوا. وقرئ : تفاسحوا. والمراد : مجلس رسول اللّه ، وكانوا يتضامّون فيه تنافسا على القرب منه ، وحرصا على استماع كلامه. وقيل : هو المجلس من مجالس القتال ، وهي مراكز الغزاة ، كقوله تعالى مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وقرئ : في المجالس. قيل : كان الرجل يأتى الصف فيقول : تفسحوا ، فيأبون لحرصهم على الشهادة. وقرئ : في المجلس - بفتح اللام : وهو الجلوس ، أى : توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ مطلق في كل ما يبتغى الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك انْشُزُوا انهضوا للتوسعة على المقبلين.

أو انهضوا عن مجلس رسول اللّه إذا أمرتم بالنهوض عنه ، ولا تملوا رسول اللّه بالارتكاز فيه : أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ، ولا تثبطوا ولا تفرطوا يَرْفَعِ اللَّهُ المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة «1» دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ قرئ بالتاء والياء. عن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه : أنه كان إذا قرأها قال يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر «2» سبعين سنة «3». وعنه عليه السلام «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» «4»

(1). قال محمود : «فيه تعميم ثم تخصيص للعلماء ... الخ» قال أحمد : في الجزاء برفع الدرجات هاهنا مناسبة العمل لأن المأمور به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان الرفيع حوله عليه الصلاة والسلام فيتضايقوا ، فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالا وتواضعا : جوزي على تواضعه برفع الدرجات كقوله : «من تواضع للّه رفعه اللّه» ، ثم لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعا للّه تعالى.
(2). قوله «حضر الجواد المضمر» الذي في الصحاح : أحضر الفرس إحضارا ، واحتضر : أى عدا ، واستحضرته : أعديته ، وفرس محضير : أى كثير العدو اه (ع)
(3). أخرجه أبو يعلى وابن عدى من رواية عبد اللّه بن محزر عن الزهري عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، وعبد اللّه ابن محرز - بمهملات - : ساقط الحديث ، وذكر ابن عبد البر في العلم أن ابن عون رواه عن ابن سيرين عن أبى هريرة ، فينظر من خرجه. وفي الباب عن ابن عمرو بن العاص في الترغيب للأصبهانى.
(4). أخرجه أصحاب السنن الأربعة من حديث أبى الدرداء رضى اللّه عنه.

وعنه عليه السلام «يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء» «1» فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوّة والشهادة بشهادة رسول اللّه. وعن ابن عباس : خير سليمان بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم فأعطى المال والملك معه «2». وقال عليه السلام «أوحى اللّه إلى إبراهيم.

يا إبراهيم ، إنى عليم أحب كل عليم» «3»

وعن بعض الحكماء : ليت شعري أى شيء أدرك من فاته العلم ، وأى شيء فات من أدرك العلم. وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أربابا ، وكل عز لم يوطد «4» بعلم فإلى ذل مّا يصير. وعن الزبيري «5» العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 12 إلى 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13)

بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ استعارة ممن له يدان. والمعنى : قبل نجواكم كقول عمر : من أفضل ما أوتيت العرب الشعر ، يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به «6» اللئيم ، يريد : قبل حاجته ذلِكَ التقديم خَيْرٌ لَكُمْ في دينكم وَأَطْهَرُ لأنّ الصدقة طهرة.

روى أن الناس أكثروا مناجاة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بما يريدون حتى أملوه وأبرموه «7» ، فأريد أن يكفوا عن ذلك ، فأمروا بأن من أراد أن يناجيه قدّم قبل مناجاته صدقة. قال على رضى اللّه عنه : لما نزلت دعاني رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : ما تقول في دينار؟

(1). أخرجه ابن ماجة وأبو يعلى وابن عدى والعقيل والبيهقي في الشعب من حديث عثمان. وفيه عنبسة بن عبد الرحمن القرشي ، وهو متروك.
(2). ذكره صاحب الفردوس هكذا ، وذكره قبله ابن عبد البر في كتاب العلم بلا إسناد.
(3). أخرجه ابن عبد البر في العلم قال : روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم - فذكره بغير إسناد.
(4). قوله «و كل عز لم يوطد بعلم» في الصحاح : وطدت الشيء ، أى : أثبته وثقلته. (ع)
(5). قوله «و عن الزبيري : العلم ذكر» قوله الزبيري : هو أبو أحمد محمد بن عبد اللّه بن الزبير مولى لبنى أسد ، وليس من ولد الزبير بن العوام ، كذا في الهداية والإرشاد اه من هامش. (ع)
(6). لم أجده.
(7). قوله «حتى أملوه وأبرموه» في الصحاح : أبرمه» أى : أمله وأضجره اه. (ع)

قلت : لا يطيقونه. قال : كم؟ قلت : حبة أو شعيرة ، قال : إنك لزهيد. فلما رأوا ذلك : اشتدّ عليهم فارتدعوا وكفوا. أما الفقير فلعسرته ، وأما الغنىّ فلشحه «1». وقيل : كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقيل : ما كان إلا ساعة من نهار. وعن على رضى اللّه عنه : إن في كتاب اللّه لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي : كان لي دينار فصرفته ، فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم «2». قال الكلبي : تصدق به في عشر كلمات سألهنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «3». وعن ابن عمر : كان لعلىّ ثلاث : لو كانت لي واحدة منهنّ كانت أحب إلىّ من حمر النعم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى. قال ابن عباس : هي منسوخة بالآية التي بعدها ، وقيل : هي منسوخة بالزكاة أَأَشْفَقْتُمْ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه ، وأنّ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ما أمرتم به وشق عليكم ، وتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وعذركم ورخص لكم في أن لا تفعلوه ، فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات بِما تَعْمَلُونَ قرئ بالتاء والياء.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 14 إلى 19]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (19)

(1). قلت : هذا ملفق من حديثين. فمن قوله «قال على إنك لزهيد» أخرجه الترمذي وابن حبان وأبو يعلى والبزار من رواية علقمة الأنماري عن على به وأتم منه. وقال بعد قوله «إنك لزهيد : فنزلت أأشفقتم الآية» قال : فمتى خفف اللّه عن هذه الأمة» قال الترمذي: حسن غريب : إنما نعرفه من هذا الوجه. وقال البزار :
لا يحفظ إلا عن على بهذا الاسناد. وأما أوله وآخره فأخرجه الطبري وابن مردويه من رواية على بن أبى طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال «إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى شقوا عليه.
فأراد اللّه أن يخفف عن نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، فلما قال ذلك ضن كثير من الناس بأموالهم ، فكف كثير من الناس عن المسألة. فأنزل اللّه تعالى بعد هذا فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الآية فوسع اللّه عليهم.
(2). أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن أبى ليلى عن على به وأتم منه. وأخرجه ابن أبى شيبة من رواية ليث بن أبى سليم عن على بلفظ المصنف. [.....]
(3). لم أجده.

كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب اللّه عليهم في قوله تعالى مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ما هُمْ مِنْكُمْ يا مسلمون وَلا مِنْهُمْ ولا من اليهود ، كقوله تعالى مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ. وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ أى يقولون : واللّه إنا لمسلمون ، فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام وَهُمْ يَعْلَمُونَ أن المحلوف عليه كذب بحت. فإن قلت : فما فائدة قوله وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟

قلت : الكذب : أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه ، سواء علم المخبر أو لم يعلم ، فالمعنى : أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه ، وهم عالمون بذلك متعمدون له ، كمن يحلف بالغموس «1». وقيل : كان عبد اللّه بن نبتل المنافق يجالس رسول اللّه «2» صلى اللّه عليه وسلم ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول اللّه في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه : يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان ، فدخل ابن نبتل وكان أزرق ، فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : «علام تشتمني أنت وأصحابك»؟ فحلف باللّه ما فعل ، فقال عليه السلام : «فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه ، فحلفوا باللّه ما سبوه ، فنزلت عَذاباً شَدِيداً نوعا من العذاب متفاقما إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ يعنى أنهم كانوا في الزمان الماضي المتطاول على سوء العمل مصرين عليه. أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة. وقرئ : إيمانهم ، بالكسر ، أى : اتخذوا أيمانهم التي حلفوا بها. أو إيمانهم الذي أظهروه جُنَّةً أى سترة يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم فَصَدُّوا الناس في خلال أمنهم وسلامتهم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وكانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم. وإنما وعدهم اللّه العذاب المهين المخزى لكفرهم وصدهم ، كقوله تعالى الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ. مِنَ اللَّهِ من عذاب اللّه شَيْئاً قليلا من الإغناء. وروى أنّ رجلا منهم قال :

(1). قوله «كمن يحلف بالغموس» في الصحاح : الأمر الغموس : الشديد. واليمين الغموس : التي تغمس صاحبها في الإثم. (ع)
(2). لم أجده هكذا. وروى أحمد والبزار والطبراني والطبري وابن أبى حاتم والحاكم من رواية سماك عن ابن جبير عن ابن عباس قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في ظل حجرة وقد كاد الظل أن يتقاص ، فقال :
إنه سيأتيكم إنسان ، فينظر إليكم بعين شيطان. فإذا جاءكم فلا تكلموه. فلم يلبث أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فقال حين رآه : علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فقال : ذرني آتيك بهم فانطلق فدعاهم فحلفوا ما قالوا وما فعلوا. فأنزل اللّه تعالى الآية» لفظ الحاكم.

لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا فَيَحْلِفُونَ للّه تعالى على أنهم مسلمون في الآخرة كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ في الدنيا على ذلك وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ من النفع ، يعنى : ليس العجب من حلفهم لكم ، فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر ، وأن لهم نفعا في ذلك دفعا عن أرواحهم واستجرار فوائد دنيوية ، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون ، ولكن العجب من حلفهم للّه عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل ، والمراد : وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونهم عليه ، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل ، كما قال وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وقد اختلف العلماء في كذبهم في الآخرة ، والقرآن ناطق بثباته نطقا مكشوفا. كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ ونحو حسبانهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقتبسوا من نورهم ، لحسبان أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم. وقيل عند ذلك : يختم على أفواههم أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ يعنى أنهم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب ، حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ استولى عليهم. من حاذ الحمار العانة «1» إذا جمعها وساقها غالبا لها. ومنه : كان أحوذيا نسيج وحده ، وهو أحد ما جاء على الأصل ، نحو : استصوب واستنوق ، أى : ملكهم الشَّيْطانُ لطاعتهم له في كل ما يريده منهم ، حتى جعلهم رعيته وحزبه فَأَنْساهُمْ أن يذكروا اللّه أصلا لا بقلوبهم ولا بألسنتهم. قال أبو عبيدة : حزب الشيطان جنده.

[سورة المجادلة (58) : آية 20]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20)

فِي الْأَذَلِّينَ في جملة من هو أذل خلق اللّه لا ترى أحدا أذل منهم.

[سورة المجادلة (58) : آية 21]

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

كَتَبَ اللَّهُ في اللوح لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي بالحجة والسيف. أو بأحدهما.

[سورة المجادلة (58) : آية 22]

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

(1). قوله «العانة» هي القطيع من حمر الوحش ، كما في الصحاح. (ع)

لا تَجِدُ قَوْماً من باب التخييل. خيل أن من الممتنع المحال : أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين ، والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة في النهى عنه والزجر عن ملابسته ، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء اللّه ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم ، وزاد ذلك تأكيدا وتشديدا بقوله وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ وبقوله أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وبمقابلة قوله أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ بقوله أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ فلا تجد شيئا أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء اللّه ومعاداة أعدائه ، بل هو الإخلاص بعينه كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ أثبته فيها بما وفقهم فيه وشرح له صدورهم وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ بلطف من عنده حييت به قلوبهم. ويجوز أن يكون الضمير للإيمان ، أى : بروح من الإيمان ، على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به. وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبى رواد : أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه كان يقول : اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة ، «1» فإنى وجدت فيما أوحيت إلىّ : لا تجد قوما. وروى أنها نزلت في أبى بكر رضى اللّه عنه ، وذلك أنّ أبا قحافة سب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فصكه صكة سقط منها ، فقال له رسول اللّه «أو فعلته»؟ قال : نعم ، قال : «لا تعد» قال : واللّه لو كان السيف قريبا منى لقتلته «2». وقيل في أبى عبيدة بن الجراح : قتل أباه عبد اللّه الجراح يوم أحد ، وفي أبى بكر : دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وقال لرسول اللّه : دعني أكرّ في الرعلة»

الأولى ، قال : متعنا بنفسك يا أبا بكر ، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصرى «4».

وفي مصعب بن عمير : قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد. وفي عمر : قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر. وفي على وحمزة وعبيدة بن الحرث : قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب اللّه يوم القيامة» «5»

(1). ذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ. وأورده ابن مردويه من رواية جعفر الأحمر عن كثير بن عطية عن رجل قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولم يذكر ولا لفاسق.
(2). نقله الثعلبي عن ابن جريج قال «حدثت أن أبا قحافة ... فذكره.
(3). قوله «دعني أكر في الرعلة» هي القطعة من الخيل ، كما في الصحاح. (ع)
(4). هو في تفسير مقاتل بن حيان عن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وذكره الثعلبي عن تفسير مقاتل.
(5). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

سورة الحشر

مدنية ، وهي أربع وعشرون آية [نزلت بعد البينة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحشر (59) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (2)

صالح بنو النضير رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاعة ، ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم : اخرجوا من المدينة ، فقالوا : الموت أحب إلينا من ذاك ، فتنادوا بالحرب «1». وقيل : استمهلوا رسول اللّه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدس عبد اللّه بن أبى المنافق وأصحابه إليهم : لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ، ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم ، فدربوا على الأزقة «2» وحصنوها فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فلما قذف اللّه الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين : طلبوا الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء ، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات ، إلا أهل بيتين منهم :

---

(1). لم أجد له إسنادا ، بل ذكره الثعلبي هكذا بغير سند.
(2). قوله «فدربوا على الأزقة «أى ضيقوا أفواهها بالخشب والحجارة كما يؤخذ مما سيأتى في تخريبهم بيوتهم بأيديهم. وفي الصحاح «الدرب» : المضيق في الجبل. (ع)

آل أبى الحقيق وآل حيي بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة. اللام في لِأَوَّلِ الْحَشْرِ تتعلق بأخرج ، وهي اللام في قوله تعالى يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي «1» وقولك : جئته لوقت كذا. والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أوّل الحشر. ومعنى أوّل الحشر : أن هذا أوّل حشرهم إلى الشأم ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط ، وهم أوّل من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام. أو هذا أوّل حشرهم ، وآخر حشرهم : إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام.

وقيل : آخر حشرهم حشر يوم القيامة ، لأنّ المحشر يكون بالشام. وعن عكرمة : من شك أنّ المحشر هاهنا - يعنى الشام - فليقرأ هذه الآية. وقيل : معناه أخرجهم من ديارهم لأوّل ما حشر لقتالهم لأنه أوّل قتال قاتلهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا لشدة بأسهم ومنعتهم ، ووثاقة حصونهم ، وكثرة عددهم وعدتهم ، وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم من بأس اللّه فَأَتاهُمُ أمر اللّه مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم : وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرّة على يد أخيه ، وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم، وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب ، وألهمهم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم ، وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم. وهذا كله لم يكن في حسبانهم. ومنه أتاهم الهلاك. فإن قلت : أى فرق بين قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما نعتهم ، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قلت : في تقديم الخبر على المبتدإ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسما لأن وإسناد الجملة إليه : دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم «2» ، وليس ذلك في قولك : وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم. وقرئ : فمآتاهم اللّه ، أى : فمآتاهم الهلاك. والرعب : الخوف الذي يرعب الصدر ، أى يملؤه ، وقذفه : إثباته وركزه.

ومنه قالوا في صفة الأسد : مقذف ، كأنما قذف باللحم قذفا لا كتنازه وتداخل أجزائه. وقرئ : يخرّبون ويخربون ، مثقلا ومخففا. والتخريب والإخراب : الإفساد بالنقض والهدم. والخربة : الفساد ، كانوا يخربون

(1). قال محمود : «اللام في قوله لِأَوَّلِ الْحَشْرِ كاللام في قوله قَدَّمْتُ لِحَياتِي قال أحمد : كأنه يريد أنها اللام التي تصحب التاريخ ، كقوله : كتبت لعام كذا ولشهر كذا.
(2). قوله «أو يطمع في معازتهم» أى مغالبتهم ، كما في الصحاح. (ع)
(3). قوله «من استئصال شأفتهم» في الصحاح «الشأفة» : قرحة تخرج من أسفل القدم فتكوى فتذهب ، يقال في المثل : استأصل اللّه شأفته ، أى : أذهبه اللّه كما أذهب تلك القرحة بالكي اه. (ع) [.....]

وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين ، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جسد الخشب والساج المليح. وأما المؤمنون فداعيهم إزالة متحصنهم ومتمنعهم ، وأن يتسع لهم مجال الحرب. فإن قلت : ما معنى تخريبهم لها بأيدى المؤمنين؟ قلت : لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه فَاعْتَبِرُوا بما دبر اللّه ويسر من أمر إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال. وقيل : وعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المسلمين أن يورثهم اللّه أرضهم وأموالهم بغير قتال ، فكان كما قال.

[سورة الحشر (59) : الآيات 3 إلى 4]

وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (3) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (4)

يعنى : أنّ اللّه قد عزم على تطهير أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم أموالهم ، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء واقتضته حكمته ودعاه إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا بالقتل كما فعل بإخوانهم بنى قريظة وَلَهُمْ سواء أجلوا أو قتلوا عَذابُ النَّارِ يعنى : إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

[سورة الحشر (59) : آية 5]

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5)

مِنْ لِينَةٍ بيان لما قطعتم. ومحل ما نصب بقطعتم ، كأنه قال : أى شيء قطعتم ، وأنث الضمير الراجع إلى ما في قوله أَوْ تَرَكْتُمُوها لأنه في معنى اللينة. واللينة : النخلة من الألوان ، ضروب النخل ما خلا العجوة «1» والبرنية ، وهما أجود النخيل ، وياؤها عن واو ، قلبت لكسرة ما قبلها ، كالديمة. وقيل : «اللينة» النخلة الكريمة، كأنهم اشتقوها من اللين.

قال ذو الرمّة :

(1). ذكر الزمخشري فيه تفسيرين أحدهما أنه النخل ما عدا العجوة والبرني وهما خير النخل ... الخ. قال أحمد :
والظاهر أن الاذن عام في القطع والترك ، لأنه جواب الشرط المضمر لهما جميعا ويكون التعليل باجزاء الفاسقين لهما جيعا ، وأن القطع يحسرهم على ذهابها والترك يحسرهم على بقائها للمسلمين ينتفعون بها ، فهم في حسرتين من الأمرين جميعا.

كأنّ قتودى فوقها عشّ طائر على لينة سوقاء تهفو جنوبها «1» وجمعها لين. وقرئ : قوّما ، على أصلها. وفيه وجهان : أنه جمع أصل كرهن ورهن. أو اكتفى فيه بالضمة عن الواو. وقرئ : قائما على أصوله ذهابا إلى لفظ ما فَبِإِذْنِ اللَّهِ فقطعها بإذن اللّه وأمره وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ ولبذل اليهود ويغيظهم إذن في قطعها ، وذلك أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين أمر أن تقطع نخلهم وتحرق قالوا : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ فكان في نفس المؤمنين من ذلك شيء «2». فنزلت ، يعنى : أنّ اللّه أذن لهم في قطعها ليزيدكم غيظا ويضاعف لكم حسرة إذا رأيتموهم يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا ويتصرفون فيها ما شاءوا. واتفق العلماء أنّ حصون الكفرة وديارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق ، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة. وعن ابن مسعود : قطعوا منها ما كان موضعا للقتال. فإن قلت : لم خصت اللينة بالقطع؟ قلت : إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد وأشق.

وروى أن رجلين كانا يقطعان : أحدهما العجوة ، والآخر اللون ، فسألهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال هذا : تركتها لرسول اللّه ، وقال هذا : قطعتها غيظا للكفار «3». وقد استدل به على جواز الاجتهاد ، وعلى جوازه بحضرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، لأنهما بالاجتهاد فعلا ذلك ،

(1). لذي الرمة يصف ناقته : والقتود عيدان الرحل بلا أذاته. تتخذ من القتاد وهو شجر صلب ذو شوك.
واللينة : النخلة. والسوقاء : طويلة الساق. وهفا الريح والبصير يهفو : عدا بسرعة والجنوب : نوع من الريح ، والضمير للينة : شبه عيدان الرجل فوق الناقة بعش الطائر فوق النخلة ، ويلزم من ذلك تشبيه الناقة بالنخلة في الطول والنجابة. وهو المقصود ، فلو قيل : إن استعمال التشبيه الأول في الثاني من باب المجاز ، أو إرادة الثاني من الأول من باب الكناية لم يكن بعيدا. وفي ذلك إشارة لتشبيه بالطائر في الحذر والتيقظ. وفي قوله «تهفو جنوبها» دلالة على سرعة سير الناقة ، واختراقها للرياح كسرعة سير الريح على النخلة ، فهي مخترقة له ، كأنها سائرة فيه بسرعة.
(2). أخرجه ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه : حدثنا يزيد بن رومان فذكره. وذكره ابن هشام عن ابن إسحاق من غير ذكر شيخه : ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس.
وذكر الواقدي في المغازي «أن الذي أرسل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم هو حيي بن أخطب» وروى أبو داود في المراسيل من طريق عبد اللّه بن أبى بكر بن عمرو بن حزم نحوه مختصرا.
(3). لم أجده بهذا السياق لكن للبخاري في الواقدي ، واستعمل على قطع النخل وحرقها رجلين من أصحابه :
أبا ليلى المازني وعبد اللّه بن سلام فكان أبو ليلي يقطع العجوة وكان الآخر يقطع اللون. فقيل لهما في ذلك. فقال أبو ليلى : كانت العجوة أحرق لهم وقال ابن سلام : قد عرف أن اللّه سيغنمهم أموالهم ، وكانت العجوة خير أموالهم فأنزل اللّه الآية. وروى البيهقي في الدلائل من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد قال «نهى بعض المهاجرين بعضا عن قطع النخل وقالوا : إنما هو من مغانم المسلمين. وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدو. فنزل القرآن.

واحتج به من يقول : كل مجتهد مصيب.

[سورة الحشر (59) : الآيات 6 إلى 7]

وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (7)

أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ جعله له فيئا خاصة. والإيجاف من الوجيف. وهو السير السريع.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الإفاضة من عرفات «ليس البرّ بإيجاف الخيل ولا إيضاع الإبل «1» على هينتكم» «2» ومعنى فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ فما أو أوجفتم على تحصيله وتغنمه خيلا ولا ركابا ، ولا تعبتم في القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم. والمعنى : أنّ ما خوّل اللّه رسوله من أموال بنى النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه اللّه عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم ، فالأمر فيه مفوّض إليه يضعه حيث يشاء ، يعنى : أنه لا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهرا ، وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت.

لم يدخل العاطف على هذه الجملة : لأنها بيان للأولى ، فهي منها غير أجنبية عنها. بين لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما يصنع بما أفاء اللّه عليه ، وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوما على الأقسام الخمسة. والدولة والدولة - بالفتح والضم - وقد قرئ بهما ما يدول للإنسان ، أى يدور من الجد. يقال : دالت له الدولة. وأديل لفلان. ومعنى قوله تعالى : كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جدا بين الأغنياء يتكاثرون به. أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم. ومعنى الدولة الجاهلية : أن الرؤساء منهم كانوا يستأخرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة ، وكانوا يقولون من عزّ بزّ. والمعنى : كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية. ومنه قول الحس : اتخذوا عباد اللّه

(1). قوله «و لا إيضاع الإبل» في الصحاح : وضع البعير وغيره. أى : أسرع في سيره وأوضعه راكبه اه أى : جعله مسرعا في سيره. (ع)
(2). أخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق والبزار والحاكم من رواية مقسم عن ابن عباس نحوه والبخاري من وجه آخر عن ابن عباس بعضه.

خولا ، ومال اللّه دولا ، يريد : من غلب منهم أخذه واستأثر به. وقيل : «الدولة» ما يتداول ، كالغرفة : اسم ما يغترف ، يعنى : كيلا يكون الفيء شيئا يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه ، فلا يصيب الفقراء. والدولة - بالفتح: بمعنى التداول ، أى : كيلا يكون ذا تداول بينهم.

أو كيلا يكون إمساكه تداولا بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء. وقرئ دولة بالرفع على «كان» التامة كقوله تعالى : وإن كان ذو عسرة ، يعنى كيلا يقع دولة جاهلية ولينقطع أثرها أو كيلا يكون تداول له بينهم. أو كيلا يكون شيء متعاور بينهم غير مخرج إلى الفقراء وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ من قسمة غنيمة أو فيء فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عن أخذه منها فَانْتَهُوا عنه ولا تتبعه أنفسكم وَاتَّقُوا اللَّهَ أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن خالف رسوله ، والأجود أن يكون عاما في كل ما أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ونهى عنه ، وأمر الفيء داخل في عمومه.

وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : أنه لقى رجلا محرما وعليه ثيابه فقال له : انزع عنك هذا «1» فقال الرجل : اقرأ علىّ في هذا آية من كتاب اللّه. قال : نعم ، فقرأها عليه.

[سورة الحشر (59) : آية 8]

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8)

لِلْفُقَراءِ بدل من قوله لِذِي الْقُرْبى والمعطوف عليه «2» والذي منع الإبدال من : للّه وللرسول والمعطوف عليهما ،

(1). أخرجه ابن أبى شيبة حدثنا معاوية بن هشام حدثنا الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن عبد الرحمن ابن يزيد عن ابن مسعود به، وأخرجه ابن عبد البر في العلم من طريق يحيى بن آدم عن عطية وأبى بكر بن عباس عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن زيد قال «لقى عبد اللّه بن مسعود» فذكره.

(2). قال محمود : «هو بدل من قوله لذي القربى وما بعده والذي منع الابدال من للّه وللرسول ... الخ» قال أحمد : مذهب أبى حنيفة أن استحقاق ذوى القربى أسهمهم من الفيء موقوف على الفقراء حتى لا يستحقه أغنياؤهم ، وقد أغلظ الشافعي رضى اللّه عنه فيما نقله عنه إمام الحرمين الرد على هذا المذهب بأن اللّه تعالى علق الاستحقاق بالقرابة ولم يشترط الحاجة ، وعدم اعتبار القرابة مضادة ومحادة ، واعتذر إمام الحرمين لأبى حنيفة بأن الصدقات لما حرمت عليهم كان فائدة ذكرهم في خمس الفيء والغنيمة أنه لا يمنع صرف ذلك إليهم امتناع صرف الصدقات ، ثم أتبع هذا العذر بأن قال : لا ينبغي أن يعبر به ، فان صيغة الآية ناصة على تعين الاستحقاق لهم تشريفا لهم وتنبيها على عظم أقدارهم ، فمن حمل ذلك على جواز الصرف إليهم مع معارضة هذا الجواز بجواز حرمانهم فقد عطل فحوى الآية ، ثم استعظم الامام وقع ذلك عليهم لأنهم يذهبون إلى اشتراط الايمان في رقبة الظهار زيادة على النص ، فيأتون في إثبات ذلك بالقياس لأنه يستنتج ، وليس من شأنه الثبوت بالقياس. قال : فكذلك يلزمهم أن يعتقدوا أن اشتراط الفقر في القرابة واشتراط الحاجة لقرب ما ذكروه بغرض القرب ، فأما وإن أصلهم المخصوصون من نسب الرسول عليه الصلاة والسلام والثابتون من شجرته كالعجمة ، فلا يبقى مع هذا لمذهبهم وجه انتهى كلام الامام وإنما أوردته ليعلم أن معارضته لأبى حنيفة على أن اشتراط الحاجة عند أبى حنيفة مستند إلى قياس أو نحوه من الأسباب الخارجة من الآية. فلذلك ألزمه أن يكون زيادة على النص ، فأما وقد تلقى أبو حنيفة اعتبار الحاجة من تقييد هذا البدل المذكور في الآية ، فإنما يسلك معه في واد غير هذا فيقول هو بدل من المساكين لا غيره.

وتقريره أنه سبحانه أراد أن يصف المساكين بصفات تؤكد استحقاقهم ويحمل الأغنياء على إيثارهم وأن لا يجدوا في صدورهم حاجة مما أوتوا ، فلما قصد ذلك وقد فصل بين ذكرهم وبين ما يقصد من ذكر صفاتهم بقوله كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ إلى قوله شَدِيدُ الْعِقابِ طرى ذكرهم ليكون توطئة للصفات المتتالية بعده ، فذكر بصفة أخرى مناسبة الصفة الأولى مبدلة منها وهي الفقر ، لتشهد التطرية على فائدة الجمع لهم بين صفتي المسكنة والفقر ثم تليت صفاتهم على أثر ذلك وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين ، وابتغاؤهم الفضل والرضوان من اللّه ، ونصرهم للّه ورسوله ، وصدقهم في نياتهم ، إلى آخر ذلك ، فهذا هو الذي يرشد إليه السباق مؤيدا بالأصل فان ذوى القربى ذكروا بصفة الإطلاق : فالأصل بقاؤهم على ذلك حتى يتحقق أنهم مرادون بالتقييد. وما ذكرناه من صرف ذلك إلى المساكين يكفى في إقامة وزن الكلام ، فيبقى ذوو القربى على أصل الإطلاق ، وتلك قاعدة لا يسع الحنفية مدافعتها ، فإنهم يرون الاستثناء المتعقب للجمل يختص بالجملة الأخيرة ، لأن عوده إليها يقيم وزن الكلام وينقى ما تقدمهن على الأصل ، ولا فرق بين التعقيب بالاستثناء والبدل وكل ما سوى هذا ، مع أنه لو جعل بدلا من ذوى القربى مع ما بعده : لم يكن إبداله من ذوى القربى إلا بدل بعض من كل ، فان ذوى القربى منقسمون إلى فقراء وأغنياء ولم يكن إبداله من المساكين إلا بدلا للشيء من الشيء ، وهما لعين واحدة ، فيلزم أن يكون هذا البدل محسوسا بالنوعين المذكورين في حالة واحدة ، وذلك متعذر لما بين النوعين من الاختلاف وللتباين ، وكل منهما يتقاضى ما يأباه الآخر ، فهذا القدر كاف إن شاء اللّه تعالى ، وعليه أعرب الزجاج الآية فجعله بدلا من المساكين خاصة ، واللّه تعالى الموفق للصواب.

وإن كان المعنى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن اللّه عزّ وجل أخرج رسوله من الفقراء في قوله وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وأنه يترفع برسول اللّه عن التسمية بالفقير ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم اللّه عزّ وجل أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ في إيمانهم وجهادهم.

[سورة الحشر (59) : آية 9]

وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا معطوف على المهاجرين ، وهم الأنصار. فإن قلت : ما معنى عطف الإيمان على الدار ، ولا يقال: تبوّؤا الإيمان؟ قلت : معناه تبوّؤا الدار وأخلصوا الإيمان ، كقوله : علفتها تينا وماء باردا

أو : وجعلوا الإيمان مستقرا ومتوطنا لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه ، كما جعلوا المدينة كذلك. أو : أراد دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه. أو سمى المدينة لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان مِنْ قَبْلِهِمْ من قبل المهاجرين ، لأنهم سبقوهم في تبوّئ دار الهجرة والإيمان. وقيل : من قبل هجرتهم وَلا يَجِدُونَ ولا يعلمون في أنفسهم حاجَةً مِمَّا أُوتُوا أى طلب محتاج إليه مما أوتى المهاجرون من الفيء وغيره ، والمحتاج إليه يسمى حاجة، يقال : خذ منه حاجتك ، وأعطاه من ماله حاجته ، يعنى : أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ أى خلة ، وأصلها : خصاص البيت ، وهي فروجه ، والجملة في موضع الحال ، أى : مفروضة خصاصتهم ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قسم أموال بنى النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين : أبا دجانة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف ، والحرث بن الصمة «1». وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، فنزلت. الشح - بالضم والكسر ، وقد قرئ بهما - : اللؤم ، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع ، كما قال : يمارس نفسا بين جنبيه كزّة إذا همّ بالمعروف قالت له مهلا «2» وقد أضيف إلى النفس ، لأنه غريزة فيها. وأما البخل فهو المنع نفسه. ومنه قوله تعالى وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ. وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ومن غلب ما أمرته به منه وخالف هواها بمعونة اللّه وتوفيقه فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الظافرون بما أرادوا. وقرئ : ومن يوقّ

[سورة الحشر (59) : آية 10]

وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (10)

(1). ذكره الثعلبي هكذا بغير سند. وروى الواقدي عن معمر عن الزهري عن خارجة بن زيد عن أم العلاء قالت «لما غنم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بنى النضير قال لثابت بن قيس بن شماس : ادع لي الأنصار كلهم.
فقال : إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين. وإن أحببتم أعطينهم وخرجوا من دوركم ، فقال السعدان : بل نقسمه المهاجرين ويكونون في دورنا. فرضيت الأنصار. فأعطى المهاجرين ولم يعط الأنصار ، إلا رجلين محتاجين سهل ابن حنيف وأبا دجانة ونقل سيف بن أبى الحقيق سعد بن معاذ. وكان له ذكر عندهم. وعند أبى داود من رواية عبد الرزاق عن معمر طرف منه وأبهم اسم الأنصاريين. وعند ابن إسحاق في المغازي : حدثني عبد اللّه بن أبى بكر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قسم أموال بنى النضير على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فقرا فأعطاهما».
(2). يصف رجلا بالبخل ، وأنه يعالج نفسه التي بين جنبيه ، كزة - بالفتح - : شحيحة منقبضة عن فعل الخير إذا غلبها ، وأراد المعروف دعته ثانيا إلى البخل وحجبته عن البذل ، فكأنها قالت له : أمهل فيطاوعها. ومهلا :
مصدر حذف فعله وجوبا. وقولها : ذلك ، استعارة تصريحية لوسوستها بالبخل.

وَالَّذِينَ جاؤُا مِنْ بَعْدِهِمْ عطف أيضا على المهاجرين : وهم الذين هاجروا من بعد.

وقيل : التابعون بإحسان غِلًّا وقرئ : غمرا ، وهما الحقد.

[سورة الحشر (59) : الآيات 11 إلى 12]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (12)

لِإِخْوانِهِمُ الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر ، ولأنهم كانوا يوالونهم ويواخونهم ، وكانوا معهم على المؤمنين في السر وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ في قتالكم أحدا من رسول اللّه والمسلمين إن حملنا عليه. أو في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة لَكاذِبُونَ أى في مواعيدهم لليهود. وفيه دليل على صحة النبوّة : لأنه إخبار بالغيوب. فإن قلت : كيف قيل وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ قلت : معناه : ولئن نصروهم على الفرض والتقدير ، كقوله تعالى لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وكما يعلم ما يكون ، فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى : ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك ، أى : يهلكهم اللّه تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم. أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين.

[سورة الحشر (59) : الآيات 13 إلى 17]

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (13) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (16) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (17)

رَهْبَةً مصدر رهب المبنى للمفعول ، كأنه قيل : أشد مرهوبية. وقوله فِي صُدُورِهِمْ دلالة على نفاقهم ، يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف اللّه وأنتم أهيب في صدورهم من اللّه. فإن قلت : كأنهم كانوا يرهبون من اللّه حتى تكون رهبتهم منهم أشدّ. قلت : معناه أن رهبتهم في السر منكم أشدّ من رهبتهم من اللّه التي يظهرونها لكم - وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من اللّه - ويجوز أن يريد أنّ اليهود يخافونكم في صدورهم أشدّ من خوفهم من اللّه ، لأنهم كانوا قوما أولى بأس ونجدة ، فكانوا يتشجعون لهم مع إضمار الخيفة في صدورهم لا يَفْقَهُونَ لا يعلمون اللّه وعظمته حتي يخشوه حق خشيته لا يُقاتِلُونَكُمْ لا يقدرون على مقاتلتكم جَمِيعاً مجتمعين متساندين ، يعنى اليهود والمنافقين إِلَّا كائنين فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ بالخنادق والدروب أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ دون أن يصحروا لكم «1» ويبارزوكم ، لقذف اللّه الرعب في قلوبهم ، وأن تأييد اللّه تعالى ونصره معكم. وقرئ : جدر ، بالتخفيف. وجدار. وجدر وجدر ، وهما : الجدار بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ يعنى أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدّة ، لأنّ الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة اللّه ورسوله تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً مجتمعين ذوى ألفة واتحاد وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى متفرقة لا ألفة بينها ، يعنى. أنّ بينهم إحنا وعداوات ، فلا يتعاضدون حق التعاضد ، ولا يرمون عن قوس واحدة. وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم «2» كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب. فإن قلت : بم انتصب قَرِيباً؟ قلت : بمثل ، على : كوجود مثل أهل بدر قريبا ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. من قولهم كلأ وبيل : وخيم سيئ العاقبة ، يعنى ذاقوا عذاب القتل في الدنيا وَلَهُمْ في الآخرة عذاب النار. مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إذا استغوى الإنسان «3» بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة ، والمراد استغواؤه قريشا يوم بدر ، وقوله لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، إلى قوله : إنى بريء منكم. وقرأ ابن مسعود : خالدان فيها ، على أنه خبر أنّ ، وفِي النَّارِ لغو ، وعلى القراءة المشهورة : الظرف مستقر ، وخالدين فيها : حال. وقرئ : أنا بريء. وعاقبتهما بالرفع.

(1). قوله «دون أن يصحروا لكم» في الصحاح «أصحر الرجل» : خرج إلى الصحراء اه. (ع)
(2). قوله «و يعين على أرواحهم» كذا عبارة النسفي أيضا. (ع)
(3). قوله «إذا استغوى الإنسان» لعله : إذ ، كعبارة النسفي. (ع)

[سورة الحشر (59) : الآيات 18 إلى 19]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (19)

كرر الأمر بالتقوى تأكيدا : واتقوا اللّه في أداء الواجبات لأنه قرن بما هو عمل ، واتقوا اللّه في ترك المعاصي لأنه قرن بما يجرى مجرى الوعيد. والغد : يوم القيامة ، سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبا له «1» وعن الحسن : لم يزل يقربه حتى جعله كالغد. ونحوه قوله تعالى كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ يريد : تقريب الزمان الماضي. وقيل : عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران : يوم وغد. فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد؟ قلت: أما تنكير النفس فاستقلالا للأنفس النواظر فيما قمن للآخرة ، كأنه قال فلتنظر نفس واحدة في ذلك.

وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار : مكتوب على باب الجنة : وجدنا ما عملنا ، وربحنا ما قدّمنا. خسرنا ما خلفنا نَسُوا اللَّهَ نسوا حقه ، فجعلهم ناسين حق أنفسهم بالخذلان «2» ، حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده. أو فأراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم ، كقوله تعالى لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ.

[سورة الحشر (59) : آية 20]

لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (20)

هذا تنبيه للناس وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات : كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما ، وأن الفوز مع أصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، كما تقول لمن يعق أباه : هو أبوك ، تجعله بمنزلة من لا يعرفه ، فتنبهه بذلك على حق الأبوّة الذي يقتضى البر والتعطف.

(1). قال محمود : «سمى يوم القيامة غدا تقريبا له ... الخ» قال أحمد : وقد قيل في قوله تعالى عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ كقوله يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً حتى قيل : إنه من عكس الكلام الذي يقصد به الافراط فيما يعكس عنه ، كقوله رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فمعنى رب هاهنا هو معنى كم ، وأبلغ منه قول القائل :

قد أترك القرن مصفرا أنامله

إلا أن الزمخشري فر من هذا المعنى ، لأن الواقع قلة النفوس الناظرة في أمر المعاد ، فنزله على معنى يطابق الواقع ، ويمكن أن يلاحظ الأمر فيسوغ حمله على التكثير النفوس المأمورات بالنظر في المعاد ، وأنه ما من نفس إلا ومن حقها أن تمتثل هذا الأمر ، وهو نظر حسن ، فان الفعل المسند إلى النفس هاهنا ليس وقوع النظر حتى يستقل ، وإنما هو طلب النظر وهو عام التعلق بكل نفس. والانصاف : أن ما ذكره الزمخشري أمكن وأحسن ، والله الموفق. [.....]

(2). قال محمود : «جعلهم ناسين بالخذلان» قال أحمد : بل خلق فيهم النسيان.

وقد استدل أصحاب الشافعي رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر.

[سورة الحشر (59) : الآيات 21 إلى 22]

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (22)

هذا تمثيل وتخييل «1» ، كما مرّ في قوله تعالى إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ وقد دل عليه قوله وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره. وقرئ : مصدّعا على الإدغام وَتِلْكَ الْأَمْثالُ إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل.

[سورة الحشر (59) : الآيات 23 إلى 24]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(24)

الْغَيْبِ المعدوم وَالشَّهادَةِ الموجود المدرك كأنه يشاهده. وقيل : ما غاب عن العباد وما شاهدوه. وقيل : السر والعلانية. وقيل : الدنيا والآخرة الْقُدُّوسُ بالضم والفتح - وقد قرئ بهما - البليغ في النزاهة عما يستقبح. ونظيره: السبوح ، وفي تسبيح الملائكة : سبوح قدوس رب الملائكة والروح. والسَّلامُ بمعنى السلامة. ومنه دارُ السَّلامِ وسَلامٌ عَلَيْكُمْ وصف به مبالغة في وصف كونه سليما من النقائص. أو في إعطائه السلامة والمؤمن واهب الأمن. وقرئ بفتح الميم بمعنى المؤمن به على حذف الجار ، كما تقول في قوم موسى من قوله تعالى وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ المختارون بلفظ صفة السبعين. والْمُهَيْمِنُ الرقيب على كل شيء ، الحافظ له ، مفيعل من الأمن ، إلا أن همزته قلبت هاء. والْجَبَّارُ القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد ، أى أجبره ، والْمُتَكَبِّرُ البليغ الكبرياء والعظمة. وقيل : المتكبر عن ظلم عباده. والْخالِقُ المقدر لما يوجده والْبارِئُ المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة.

(1). قال محمود : «هذا تخييل وتمثيل كما تقدم الخ» قال أحمد : وهذا مما تقدم إنكارى عليه فيه ، أفلا كان يتأدب بأدب الآية : حيث سمى الله هذا مثلا ولم يقل : وتلك الخيالات نضربها للناس ، ألهمنا الله حسن الأدب معه والله الموفق.

والْمُصَوِّرُ الممثل. وعن حاطب بن أبى بلتعة أنه قرأ : البارئ المصوّر ، بفتح الواو ونصب الراء ، أى : الذي يبرأ المصوّر أى : يميز ما يصوّره بتفاوت الهيئات. وقرأ ابن مسعود : وما في الأرض.

عن أبى هريرة رضى الله عنه : سألت حبيبي صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال : «عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته» «1» فأعدت عليه فأعاد علىّ ، فأعدت عليه فأعاد علىّ. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» «2»

سورة الممتحنة

مدنية ، وهي ثلاث عشرة آية «3» [نزلت بعد الأحزاب]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)

(1). أخرجه الثعلبي من رواية على بن رزيق عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عنه.
وفي الواحدي من حديث ابن عباس رفعه «اسم اللّه الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر.
(2). أخرجه الثعلبي من رواية يزيد بن أبان عن أنس بهذا.
(3). قوله «مدنية وهي ثلاث عشرة آية» لفظ مكية ومدنية ساقط من النسخة المنقول منها ، ولعله من سهو الناسخ. وفي المصاحف وفي كتب التفسير : أنها مدنية ، ولذا وضعناه في هذه النسخة كما ترى ، ثم رأيت في بعض المصاحف أنها مكية ، لكن آياتها وسبب نزولها يفيدان أنها مدنية ، فليحرر. (ع)

روى أن مولاة لأبى عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة أتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح ، فقال لها : أمسلمة جئت؟ قالت : لا. قال : أفمهاجرة جئت؟ قالت : لا. قال : فما جاء بك؟ قالت : كنتم الأهل والموالي والعشيرة ، وقد ذهبت الموالي ، تعنى : قتلوا يوم بدر ، فاحتجت حاجة شديدة «1» فحث عليها بنى عبد المطلب فكسوها وحملوها وزوّدوها ، فأناها حاطب بن أبى بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردا ، واستحملها كتابا إلى أهل مكة نسخته : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة ، اعلموا أنّ رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد - وكانوا فرسانا - وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها وخلوها ، فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع فقال على رضى اللّه عنه : واللّه ما كذبنا ولا كذب رسول اللّه ، وسل سيفه ، وقال : أخرجى الكتاب أو تضعي رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها. وروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمّن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة : هي أحدهم «2» ، فاستحضر رسول اللّه حاطبا وقال : ما حملك عليه؟

(1). هكذا ذكره الثعلبي والبغوي والواحدي بغير إسناد. وفيه مخالفة شديدة لما في الصحيحين وهو مخرج فيهما من طريق عبد اللّه بن أبى رافع عن على ومن طريق أبى عبد الرحمن السلمي عن على. وفي رواية لابن حبان عن على خرجت أنا والزبير وطلحة والمقداد، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة قال : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا. قال «لما أجمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم السير إلى مكة كتب حاطب ابن أبى بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم فيه بأمره ، ثم أعطاه امرأة زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة. وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا. فجعلته في رأسها. ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به. وأتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الخبر من السماء بما فعل حاطب» فذكر القصة ، وذكر الواقدي من طريق يزيد بن رومان ، وسماها كنود وذكر أن الجعل كان عشرة دنانير. وروى الطبري وابن أبى حاتم وأبو يعلى من طريق أبى البختري عن الحرث عن على قال «لما أراد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأتى مكة أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة ، فيهم حاطب ابن أبى بلتعة : وأفشى في الناس أنه يريد خيبر - فكتب حاطب - فذكره» وفيه فأخرجته من قبلها.
(2). هكذا رواه البيهقي في الدلائل وابن مردويه من طريق الحاكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس. وسماهم :
عبد العزيز بن حنظل ، ومقيس بن صبابة ، وعبد اللّه بن سعد بن أبى سرح ، وأم سارة مولاة لقريش ولفظه قريب من لفظ الكتاب وفي الدارقطني من طريق عمر بن عثمان بن عبد الرحمن بن سعيد المخزومي عن أبيه عن جده قال «أمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الناس إلا أربعة وسماهم ، إلا أنه قال «الحويرث بن نقيذ وسارة» وذكره ابن إسحاق بغير إسناد فذكر الخمسة ، وقال فيه : وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب» ورواه الدارقطني أيضا والحاكم من طريق مصعب بن سعد عن أبيه ، وجعل عوض سارة عكرمة بن أبى جهل. وقال الواقدي في المغازي ، وتبعه ابن سعد «أمر النبي صلى اللّه عليه وسلم يوم الفتح بقتل ستة نفر وأربع نسوة: عكرمة وهبار بن الأسود ، وعبد اللّه بن حنظل وابن أبى سرح ، ومصعب بن صبابة. والحويرث بن نفيل ، وهند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمر بن هاشم ومرينا ومرينة «فقتل منهم ابن حنظل ومقيسا والحويرث».

فقال : يا رسول اللّه ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك. ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقا في قريش. وروى : عزيزا فيهم ، أى : غريبا ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معكم من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيرى ، فخشيت على أهلى ، فأردت أن أتخذ عندهم يدا ، وقد علمت أن اللّه تعالى ينزل عليهم بأسه. وأن كتابي لا يغنى عنهم شيئا ، فصدّقه وقبل عذره ، فقال عمر : دعى يا رسول اللّه أضرب عنق هذا المنافق فقال : «و ما يدريك يا عمر ، لعل اللّه قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ففاضت عينا عمر وقال. اللّه ورسوله أعلم ، فنزلت. عدى «اتخذ» إلى مفعوليه ، وهما عدوى ، أولياء. والعدوّ : فعول ، من عدا ، كعفوّ من عفا ولكونه على زنه المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. فإن قلت : تُلْقُونَ بم يتعلق؟ قلت : يجوز أن يتعلق بلا تتخذوا حالا من ضميره وبأولياء صفة له. ويجوز أن يكون استئنافا. فإن قلت : إذا جعلته صفة لأولياء وقد جرى على غير من هوله ، فأين الضمير البارز وهو قولك : تلقون إليهم أنتم بالمودّة؟ قلت : ذلك إنما اشترطوه في الأسماء دون الأفعال ، لو قيل : أولياء ملقين إليهم بالمودّة على الوصف. لما كان بد من الضمير البارز ، والإلقاء عبارة عن إيصال المودّة والإفضاء بها إليهم : يقال ألقي إليه خراشي صدره «1» ، وأفضى إليه بقشوره. والباء في بِالْمَوَدَّةِ إما زائدة مؤكدة للتعدى مثلها في وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف ، معناه : تلقون إليهم أخبار رسول اللّه بسبب المودّة إلى بينكم وبينهم. وكذلك قوله تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أى : تفضون إليهم بمودتكم سرا. أو تسرون إليهم إسرار رسول اللّه بسبب المودّة.

فإن قلت : وَقَدْ كَفَرُوا حال مماذا؟ قلت : إما من لا تَتَّخِذُوا وإما من تُلْقُونَ أى : لا تتولوهم أو توادّونهم وهذه حالهم. ويُخْرِجُونَ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوّهم.

أو حال من كفروا. وأَنْ تُؤْمِنُوا تعليل ليخرجون ، أى يخرجونكم لإيمانكم. وإِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ متعلق بلا تتخذوا ، يعنى : لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى. وقول النحويين في مثله : هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه. وتُسِرُّونَ استئناف ، ومعناه : أىّ طائل لكم في إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمى لا تفاوت بينهما ، وأنا مطلع رسولي على ما تسرون وَمَنْ يَفْعَلْهُ ومن يفعل هذا الإسرار فقد أخطأ طريق الحق والصواب. وقرأ الجحدري : لما جاءكم ، أى : كفروا لأجل ما جاءكم ، بمعنى : أن ما كان يجب أن يكون سبب إيمانهم جعلوه سببا لكفرهم.

(1). قوله «يقال ألقى اليه خراشي صدره» في الصحاح «الخرشاء» مثل الحرباء : جلد الحية وقشرة البيضة بعد أن يخرج ما قبلها ، ثم يشبه به كل شيء فيه انتفاخ وتعتق كالرغوة ، وقد يسمى البلغم خراشاء. يقال : ألقى خراشي صدره ، اه. (ع)

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً خالصي العداوة ، ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ بالقتال والشتم ، وتمنوا لو ترتدون عن دينكم ، فإذن مودة أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغالطة لأنفسكم ونحوه قوله تعالى لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ثم قال وَوَدُّوا بلفظ الماضي؟ قلت : الماضي وإن كان يجرى في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب ، فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم ، يعنى : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا : من قتل الأنفس ، وتمزيق الأعراض ، وردّكم كفارا ، وردكم كفارا أسبق المضارّ عندهم وأوّلها ، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذّالون لها دونه ، والعدوّ أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه.

[سورة الممتحنة (60) : آية 3]

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ أى قراباتكم وَلا أَوْلادُكُمْ الذي توالون الكفار من أجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم ، ثم قال يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وبين أقاربكم وأولادكم يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ... الآية فما لكم ترفضون حق اللّه مراعاة لحق من يفرّ منكم غدا : خطأ رأيهم في موالاة الكفار بما يرجع إلى حال من والوه أوّلا ، ثم بما يرجع إلى حال من اقتضى تلك الموالاة ثانيا ، ليربهم أن ما أقدموا عليه من أى جهة نظرت فيه وجدته باطلا.

قرئ : يفصل ويفصّل ، على البناء للمفعول. ويفصل ويفصّل ، على البناء للفاعل وهو اللّه عزّ وجل. ونفصل ونفصل ، بالنون.

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 4 إلى 5]

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5)

وقرئ. أسوة وإسوة. وهو اسم المؤتسى به ، أى كان فيهم مذهب حسن مرضى بأن يؤتسى به ويتبع أثره ، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا ، حيث كاشفوهم بالعداوة وقشروا لهم العصا ، وأظهروا البغضاء والمقت ، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم باللّه ، وما دام هذا السبب قائما كانت العداوة قائمة ، حتى إن أزالوه وآمنوا باللّه وحده انقلبت العداوة موالاة ، والبغضاء محبة ، والمقت مقة «1» ، فأفصحوا عن محض الإخلاص. ومعنى كَفَرْنا بِكُمْ وبما تعبدون من دون اللّه : أنا لا نعتدّ بشأنكم ولا بشأن آلهتكم ، وما أنتم عندنا على شيء.

فإن قلت : مم استثنى قوله إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ؟ قلت : من قوله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لأنه أراد بالأسوة الحسنة : قولهم الذي حق عليهم أن يأتسوا به ويتخذونه سنة يستنون بها. فإن قلت : فإن كان قوله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة ، فما بال قوله وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وهو غير حقيق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً؟ قلت : أراد استثناء جملة قوله لأبيه ، والقصد إلى موعد الاستغفار له ، وما بعده مبنيّ عليه وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار. فإن قلت : بم اتصل قوله رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا؟ قلت : بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة. ويجوز أن يكون المعنى : قولوا ربنا ، أمرا من اللّه تعالى للمؤمنين بأن يقولوه ، وتعليما منه لهم تتميما لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار ، والائتساء بإبراهيم وقومه في البراءة منهم ، وتنبيها على الإنابة إلى اللّه والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر ، والاستغفار مما فرط منهم. وقرئ : برآء كشركاء ، وبراء كظراف. وبراء على إبدال الضم من الكسر ، كرخال ورباب. وبراء «2» على الوصف بالمصدر. والبراء والبراءة كالظماء والظماءة.

[سورة الممتحنة (60) : آية 6]

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

ثم كرّر الحث على الائتساء بإبراهيم وقومه تقريرا وتأكيدا عليهم ، ولذلك جاء به مصدرا بالقسم لأنه الغاية في التأكيد ، وأبدل عن قوله لَكُمْ قوله لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وعقبه بقوله وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ فلم يترك نوعا من التأكيد إلا جاء به.

(1). قوله «و المقت مقة» أى : محبة. (ع)
(2). قوله «كرخال ورباب» في الصحاح : الرخل - بكسر الخاء - : الأنثى من أولاد الضأن ، والذكر حمل ، والجمع رخال ورخال أيضا بالضم. وفيه أيضا : «الربى» بالضم على فعلى : الشاة التي وضعت حديثا.
وجمعها رباب بالضم. (ع)

[سورة الممتحنة (60) : آية 7]

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7)

ولما نزلت هذه الآيات : تشدّد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم ، فلما رأى اللّه عز وجل منهم الجدّ والصبر على الوجه الشديد وطول التمني للسبب الذي يبيح لهم الموالاة والمواصلة : رحمهم فوعدهم تيسير ما تمنوه ، فلما يسر فتح مكة أظفرهم اللّه بأمنيتهم ، فأسلم قومهم ، وتمّ بينهم من التحاب والتصافي ما تمّ. وقيل : تزوّج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمّ حبيبة ، فلانت عند ذلك عريكة أبى سفيان واسترخت شكيمته في العداوة ، وكانت أمّ حبيبة قد أسلمت وهاجرت مع زوجها عبد اللّه بن أبى جحش إلى الحبشة ، فتنصر وأرادها على النصرانية ، فأبت وصبرت على دينها ، ومات زوجها ، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى النجاشي فخطبها عليه «1» ، وساق عنه إليها مهرها أربعمائة دينار ، وبلغ ذلك أباها فقال : ذلك الفحل لا يقدع أنفه «2». وعَسَى وعد من اللّه على عادات الملوك حيث يقولون في بعض الحوائج :

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 8 إلى 9]

لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

(1). هكذا ذكره الثعلبي بغير سند. ومجموعه مفرق في أحاديث. وروى أبو داود والحاكم من رواية الزهري عن عروة عن أم حبيبة «أنها كانت تحت عبد اللّه بن جحش فمات بأرض الحبشة. فزوجها النجاشي النبي صلى اللّه عليه وسلم وأمهرها عنه أربعة آلاف. وبعث بها إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع شرحبيل بن حسنة» وروى الحاكم عن الزهري قال «تزوج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أم حبيبة بنت أبى سفيان. وكانت قبله تحت عبد اللّه بن جحش الأسدى. وكان قد هاجر بها من مكة إلى الحبشة ثم افتتن وتنصر ومات نصرانيا وأثبت اللّه الإسلام لأم حبيبة حتى رجعت إلى المدينة فخطبها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فزوجها إياه عثمان بن عفان» قال الزهري وزعموا أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كتب إلى النجاشي فزوجها إياه وساق عنه أربعين أوقية» وروى الواقدي في المغازي ومن طريقه الحاكم من رواية جعفر بن محمد عن أبيه قال «بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عمرو بن أمية إلى النجاشي خطب عليه أم حبيبة ، وأصدقها من عنده أربعمائة دينار» قال الواقدي : حدثني عبد اللّه بن جعفر عن عبد الواحد بن أبى عون قال : لما بلغ أبا سفيان بن حرب نكاح النبي صلى اللّه عليه وسلم ابنته قال : ذاك الفحل لا يقدع أنفه» وقال أبو نعيم في الدلائل «بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي فزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وأصدقها عنه أربعمائة دينار ، وبعث بها إليه ، وقال : وكان ذلك في سنة ست من الهجرة بعد رجوعه من خيبر ولا أعلم في ذلك خلافا».
(2). قوله «ذلك الفحل لا يقدع أنفه» اى لا يضرب أنفه ولا يكف وذلك لكونه كريما. أفاده الصحاح. (ع)

أَنْ تَبَرُّوهُمْ بدل من الذين لم يقاتلوكم. وكذلك أَنْ تَوَلَّوْهُمْ من الذين قاتلوكم : والمعنى : لا ينهاكم عن مبرّه هؤلاء، وإنما ينهاكم عن تولى هؤلاء. وهذا أيضا رحمة لهم لتشدّدهم وجدّهم في العداوة متقدّمة لرحمته بتيسير إسلام قومهم ، حيث رخص لهم في صلة من لم يجاهر منهم بقتال المؤمنين وإخراجهم من ديارهم. وقيل : أراد بهم خزاعة وكانوا صالحوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه. وعن مجاهد : هم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا. وقيل : هم النساء والصبيان. وقيل قدمت على أسماء بنت أبى بكر أمّها قتيلة بنت عبد العزى وهي مشركة بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها في الدخول ، فنزلت ، فأمرها رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها «1». وعن قتادة : نسختها آية القتال وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ وتقضوا إليهم بالقسط ولا تظلموهم.

وناهيك بتوصية اللّه المؤمنين أن يستعملوا القسط مع المشركين به ويتحاموا ظلمهم ، مترجمة عن حال مسلم يجترئ على ظلم أخيه المسلم.

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 10 إلى 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

(1). أخرجه الحاكم من طريق المبارك عن مصعب بن ثابت عن عبد اللّه بن الزبير عن أبيه عن جده قال «قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر رضى اللّه عنهما. وكان أبو بكر طلقها» فذكره وساقه أتم.
ومن هذا الوجه أحمد والبزار وأبو داود وأبو يعلى والطبري والطبراني وابن أبى حاتم وغيرهم. وحديث أسماء في الصحيحين عن عروة عنها بغير هذا السياق.

إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ سماهنّ مؤمنات لتصديقهنّ بألسنتهنّ ونطقهنّ بكلمة الشهادة ولم يظهر منهنّ ما ينافي ذلك. أو لأنهنّ مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان فَامْتَحِنُوهُنَّ فابتلوهن بالحلف والنظر في الأمارات ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول للممتحنة : «باللّه الذي لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج ، باللّه ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، باللّه ما خرجت التماس دنيا ، باللّه ما خرجت إلا حبا للّه ولرسوله» «1» اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ منكم لأنكم لا تكسبون فيه علما تطمئن معه نفوسكم ، وإن استحلفتموهن ورزتم أحوالهن ، وعند اللّه حقيقة العلم به فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ العلم الذي تبلغه طاقتكم وهو

((1). أخرجه الطبراني والطبري من رواية الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين عن أبى بهز الأسدى. قال سئل ابن عباس - فذكره أتم سياقا منه. قال البزار لا نعلمه عن ابن عباس إلا من هذا الوجه. ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مرسلا. [.....]
(2). قال محمود : «معناه لأحل بين المؤمنة والمشرك» قال أحمد : هذه الآية مما استدل بها على خطاب الكفار بالفروع لأنه تعالى قال لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ والضمير الأول للمؤمنات ، والثاني الكفار ، والمراد به يحرمن على الكفار لأن قسيمه متفق على أن المراد به تحريم الكفار على المؤمنات ، فيكون كل من القبيلين المؤمنات والكفار مخاطبا بالحرمة ، ولما كان المذهب المعزى إلى أصحاب أبى حنيفة أن الكفار غير مخاطبين لك الزمخشري يتفسر الآية ما يوافق ذلك ، فحملها على أن المراد نفى الحل بين المؤمنة والكافر على الإجمال ، حتى لا يتمحض نسبة الحرمة إلى الكافر ، وهذا لا متخلص فيه فان الحل المنفي بين المؤمنة والكافر إلى الحرمة ، لا بد وأن يتعلق بفعل أحدهما أو كليهما ، إذ هو حكم فان تعلق بفعل كل واحد منهما أعنى التمكين من المرأة والفعل من الرجل : تحقق خطاب الكافر بالحرمة ، وتعليقه بفعل المرأة دون فعل الرجل : يأباه نظم الآية ، فانه نفى الحل من الجهتين جميعا ولو كان كذلك ، لكفى قوله وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ والتحقيق الممتحن على قواعد الأصول : هو ما نذكره إن شاء اللّه تعالى فنقول : كل من فعلى المؤمنة والكافر ينفى عنه الحل بالتفسير اللائق ، فأما فعل المؤمنة وهو التمكين فلا شك في تعلق الحرمة للشرع. باعتبار أنها مخاطبة بأن لا يحصل في الوجود على وجه لو حصل لكانت متوعدة على حصوله وأما فعل الكافر وهو الوطء مثلا ، فمنفى حله باعتبار أن الشرع قصد إلى أن لا يحصل الوطء ، لما يشتمل عليه من المفسدة ، وللشرع قصد في أن لا تقع المفاسد ، وليس الكافر موردا للخطاب ، ولكن الأئمة مثلا أو من يقوم مقامهم.
مخاطبون بأن يمنعوا الكافر كى لا يقع هذا الفعل المنطوى على المفسدة في نظر الشرع ، فكلا الفعلين إذا من جانب المرأة والرجل غرض في أن لا يقع ، لكن مورد الخطاب المنطوى على السلامة من المفسدة في حق المرأة هي وفي حق الكافر الأئمة مثلا ، ويتفق المختلفون فيه في خطاب الكفار على أن للشرع غرضا في أن لا تحصل المفاسد في الوجود. ألا ترى أن الكافر إذا جهر بالفساد بين المسلمين يتفق على وجوب ردعه عن ذلك ومنعه عنه ، وما ذاك إلا لما فهم عن الشرع من طلب سلامة الوجود عن المفاسد ، ومورد الخطاب يردع الكافر كى لا يجهر بالفساد يعم الأئمة ، واللّه الموفق.

ومن أتي منكم مكة لم يردّ إليكم ، وكتبوا بذلك كتابا وختموه ، فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة والنبي صلى اللّه عليه وسلم بالحديبية ، فأقبل زوجها مسافر المخزومي. وقيل صيفي بن الراهب فقال : يا محمد ، اردد عليّ امرأتى فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف ، فنزلت بيانا لأن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء «1». وعن الضحاك : كان بين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبين المشركين عهد : أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت في دينك ولها زوج أن تردّ على زوجها الذي أنفق عليها ، وللنبي صلى اللّه عليه وسلم من الشرط مثل ذلك. وعن قتادة : ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد براءة ، فاستحلفها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فحلفت ، فأعطى زوجها ما أنفق وتزوّجها عمر.
فإن قلت : كيف سمى الظنّ علما في قوله فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ؟

قلت : إيذانا بأن الظن الغالب وما يفضى إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم ، وأن صاحبه غير داخل في قوله وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فإن قلت : فما فائدة قوله اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ وذلك معلوم لا شبهة فيه؟ قلت : فائدته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، فإنّ ذلك مما استأثر به علام الغيوب ، وأن ما يؤدى إليه الامتحان من العلم كاف في ذلك ، وأن تكليفكم لا يعدوه ، ثم نفى عنهم الجناح في تزوّج هؤلاء المهاجرات إذا آتوهنّ أجورهنّ أى مهورهنّ ، لأن المهر أجر البضع ، ولا يخلو إما أن يراد بها ما كان يدفع إليهنّ ليدفعنه إلى أزواجهنّ فيشترط في إباحة تزوجهنّ تقديم أدائه ، وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهنّ على سبيل القرض ثم تزوجن على ذلك لم يكن به بأس ، وإما أن يبين لهم أن ما أعطى أزواجهنّ لا يقوم مقام المهر وأنه لا بد من إصداق ، وبه احتج أبو حنيفة على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلما أو بذمة وبقي الآخر حربيا : وقعت الفرقة ، ولا يرى العدة على المهاجرة ويبيح نكاحها إلا أن تكون حاملا وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ والعصمة ما يعتصم به من عقد وسبب ، يعنى : إياكم وإياهنّ ، ولا تكن بينكم وبينهنّ عصمة ولا علقة زوجية. قال ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدنّ بها من نسائه ، لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه. وعن النخعي : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر.

وعن مجاهد : أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا من مهور نسائهم المهاجرات. وقرئ : ولا تمسكوا بالتخفيف. ولا تمسكوا بالتثقيل. ولا تمسكوا، أى : ولا تتمسكوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يعنى جميع ما ذكر في هذه الآية يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ كلام مستأنف. أو حال من حكم اللّه على

(1). هكذا ذكره البغوي عن ابن عباس بغير سند.

حذف الضمير ، أى : يحكمه اللّه. أو جعل الحكم حاكما على المبالغة. روى أنها لما نزلت هذه الآية أدى المؤمنون ما أمروا به من أداء مهور المهاجرات إلى أزواجهنّ المشركين ، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله وَإِنْ فاتَكُمْ وإن سبقكم وانفلت منكم شَيْءٌ من أزواجكم : أحد منهن إلى الكفار ، وهو في قراءة ابن مسعود : أحد. فإن قلت : هل لإيقاع شيء في هذا الموقع فائدة؟ قلت : نعم، الفائدة فيه : أن لا يغادر شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر ، غير معوض منه تغليظا في هذا الحكم وتشديدا فيه فَعاقَبْتُمْ من العقبة وهي النوبة : شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره. ومعناه : فجاءت عقبتكم من أداء المهر ، فآتوا من فاتته امرأته إلى الكفار مثل مهرها من مهر المهاجرة ، ولا تؤتوه زوجها الكافر ، وهكذا عن الزهري : يعطى من صداق من لحق بهم. وقرئ : فأعقبتم. فعقبتم بالتشديد. فعقبتم بالتخفيف ، بفتح القاف وكسرها ، فمعنى أعقبتم : دخلتم في العقبة ، وعقبتم : من عقبه إذا قفاه ، لأنّ كل واحد من المتعاقبين يقفى صاحبه ، وكذلك عقبتم بالتخفيف ، يقال : عقبه يعقبه. وعقبتم نحو تبعتم. وقال الزجاج : فعاقبتم فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم ، والذي ذهبت زوجته كان يعطى من الغنيمة المهر ، وفسر غيرها من القرآت فكانت العقبى لكم ، أى : فكانت الغلبة لكم حتى غنمتم.

وقيل : جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعة عن الإسلام ست نسوة : أم الحكم بنت أبى سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري ، وفاطمة بنت أبى أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهي أخت أم سلمة ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدة بنت عبد العزى بن نصلة وزوجها عمرو بن عبدودّ ، وهند بنت أبى جهل كانت تحت هشام بن العاص. وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر ، فأعطاهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة «1».

[سورة الممتحنة (60) : آية 12]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

(1). هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي عن ابن عباس بلا إسناد.

وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وقرئ : يقتلن ، بالتشديد ، يريد : وأد البنات وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هو ولدى منك.

كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبا ، لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فيما تأمرهن به من المحسنات وتنهاهنّ عنه من المقبحات. وقيل : كل ما وافق طاعة اللّه فهو معروف. فإن قلت : لو اقتصر على قوله وَلا يَعْصِينَكَ فقد علم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يأمر إلا بمعروف؟ قلت : نبه بذلك على أنّ طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب. وروى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال : أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا «1» وعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه ، وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متقنعة متنكرة خوفا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يعرفها «2» فقال عليه الصلاة والسلام : «أبايعكن على أن لا تشركن باللّه شيئا فرفعت هند رأسها وقالت : واللّه لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال تبايع الرجال على الإسلام والجهاد ، فقال عليه الصلاة والسلام : و«لا يسرقن» «3» فقالت : إنّ أبا سفيان رجل شحيح ، وإنى أصبت من ماله هنات ، فما أدرى ، أتحل لي أم لا. فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعرفها فقال لها : وإنّك لهند بنت عتبة؟ قالت : نعم فاعف عما سلف يا نبى اللّه عفا اللّه عنك ، فقال : «و لا يزنين» ، فقالت : أو تزنى الحرة؟ وفي رواية : ما زنت منهن امرأة قط ، فقال عليه الصلاة والسلام «و لا يقتلن أولادهن» فقالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «و لا يأتين ببهتان» فقالت : واللّه إنّ البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : «و لا يعصينك في معروف» فقالت : واللّه ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء. وقيل في كيفية المبايعة :

(1). لم أره بسياقه لكن أخرجه الطبري بمعناه وأخص منه من طريق العوفى عن ابن عباس. وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق مقاتل بن حيان. وفيه قول هند : ربيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا ، فضحك عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه حتى استلقى.
(2). قوله «خوفا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يعرفها» لما صنعت بحمزة ، كذا في النسفي ، وذلك في غزوة أحد. (ع)
(3). قوله «فقال عليه السلام ولا يسرقن» في النسفي قبل هذا : فبايع عمر النساء على أن لا يشركن باللّه شيئا. (ع)

دعا بقدح من ماء فغمس فيه يده ، ثم غمسن أيديهن «1». وقيل صافحهن وكان على يده ثوب قطري «2». وقيل كان عمر يصافحهن عنه «3»

[سورة الممتحنة (60) : آية 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ(13)
روى أنّ بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم «4». فقيل لهم لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً مغضوبا عليهم قَدْ يَئِسُوا من أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء. وقيل مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ بيان للكفار ، أى : كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة ، لأنهم تبينوا قبح حالهم وسوء منقلبهم.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة«5» ..

(1). أخرجه ابن سعد عن الواقدي عن أسامة بن زيد عن عمرو بن شعيب نحوه ، وله شاهد في الطبراني عن عروة بن مسعود ، وآخر في تاريخ أصبهان لأبى نعيم في حرف الحاء من حديث أسماء بنت يزيد.
(2). رواه أبو داود في المراسيل عن الشعبي «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين بايع النساء أتى ببرد قطري فوضعه على يده. وقال : لا أصافح النساء» وروى عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن إبراهيم النخعي قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصافح النساء على يده ثوب قطري».
(3). أخرجه ابن حبان والطبراني والبزار وأبو يعلى والطبري وغيرهم من حديث أم عطية قالت «لما قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة أمر نساء الأنصار فجمعهن في بيت ثم أرسل إليهن عمر. فجاء عمر فسلم - فذكر القصة - وفيها : ثم مد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت.
(4). قال محمود «كان طائفة من ضعفاء المسلمين قد والوا اليهود ليصيبوا من أثمارهم ، فنزلت هذه الآية ، والمراد بالكفار المشركون ... الخ» قال أحمد : قد كان الزمخشري ذكر في قوله وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ إلى قوله وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا أن آخر الآية استطراد ، وهو فن من فنون البيان مبوب عليه عند أهله ، وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جدا ، فانه ذم اليهود واستطرد ذمهم بذم المشركين على نوع حسن من النسبة ، وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء في الاستطراد أحسن ولا أمكن منه ، ومما صدروا هذا الفن به قوله :
إذا ما اتقى اللّه الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم
وقوله : إن كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجى الحرث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام
(5). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

سورة الصف

مدنية ، وآياتها 14 [نزلت بعد التغابن]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الصف (61) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ(4)

لِمَ هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك : بم ، وفيم ، ومم ، وعم ، وإلام ، وعلام. وإنما حذفت الألف ، لأنّ ما والحرف كشيء واحد ، ووقع استعمالهما كثيرا في كلام المستفهم ، وقد جاء استعمال الأصل قليلا والوقف على زيادة هاء السكت أو الإسكان ، ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف ، كما سمع : ثلاثة ، أربعة : بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محذوفة ، وهذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الموعد. وروى أنّ المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال : لو نعلم أحب الأعمال إلى اللّه تعالى لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدلهم اللّه تعالى على الجهاد في سبيله ، فولوا يوم أحد فعيرهم. وقيل : لما أخبر اللّه بثواب شهداء بدر قالوا : لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ، ففروا يوم أحد ولم يفوا. وقيل : كان الرجل يقول : قتلت ولم يقتل ، وطعنت ولم يطعن ، وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر. وقيل : كان قد أذى المسلمين رجل ونكى فيهم ، فقتله صهيب وانتحل قتله آخر ، فقال عمر لصهيب : أخبر النبي عليه السلام أنك قتلته ، فقال : إنما قتله للّه ولرسوله ، فقال عمر : يا رسول اللّه قتله صهيب ، قال : كذلك يا أبا يحيى؟ قال : نعم ، فنزلت «1» في المنتحل. وعن الحسن : نزلت في المنافقين. ونداؤهم بالإيمان :

(1). أخرجه الثعلبي من حديث صهيب قال «كان رجل يوم بدر قد آذى المسلمين ونكأ فيهم فقتله صهيب.
فقال رجل : يا رسول اللّه قتلت فلانا. ففرح بذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فقال عمرو بن عبد الرحمن لصهيب أخبر النبي صلى اللّه عليه وسلم بذلك - الحديث»

تهكم بهم وبإيمانهم ، هذا من أفصح كلام وأبلغه «1» في معناه قصد في كَبُرَ التعجب من غير لفظه كقوله : غلت ناب كليب بواؤها «2»

ومعنى التعجب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله ، وأسند إلى أن تقولوا. ونصب مَقْتاً على تفسيره ، دلالة على أنّ قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه ، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه. ومنه قيل : نكاح المقت ، للعقد على الرابة «3» ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرا ، حتى جعل أشده وأفحشه. وعِنْدَ اللَّهِ أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند اللّه فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك. وعن بعض السلف أنه قيل له : حدّثنا، فسكت ثم قيل له حدثنا ، فقال : تأمروننى أن أقول ما لا أفعل فاستعجل مقت اللّه. في قوله إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ عقيب ذكر مقت المخلف : دليل «4» على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا. وقرأ زيد بن على : يقاتلون بفتح التاء. وقرئ : يقتلون صَفًّا صافين أنفسهم أو مصفوفين كَأَنَّهُمْ في تراصهم من غير فرجة ولا خلل بُنْيانٌ رص بعضه إلى بعض ورصف. وقيل : يجوز أن يريد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص. وعن بعضهم : فيه دليل على فضل القتال راجلا ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة. وقوله صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ حالان متداخلتان «5».

(1). قال محمود : «هذا من أفصح الكلام وأبلغه ، في معناه قصد إلى التعجب بغير صيغة التعجب لتعظيم الأمر ... الخ» قال أحمد : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس : وهو تكراره لقوله ما لا تَفْعَلُونَ وهو لفظ واحد في كلام واحد ومن فوائد التكرار : التهويل والإعظام ، وإلا فقد كان الكلام مستقلا لو قيل : كبر مقتا عند اللّه ذلك ، فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة الثانية ، واللّه أعلم.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 273 فراجعه إن شئت اه مصححة. [.....]
(3). قوله «على الرابة» هي بتشديد الباء كالدابة. وفي الصحاح : نكاح المقت كان في الجاهلية : أن يتزوج الرجل امرأة أبيه اه. (ع)
(4). قال محمود : «ذكره لهذا عقيب ذكر مقت المخلف دليل ... الخ» قال أحمد : صدق ، والأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا

النهي عن الشيء الواحد مرتين مندرجا في العموم ومفردا بالخصوص ، وهو أولى من النهى عنه على الخصوص مرتين فان ذلك معدود في حين التكرار ، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل ، والله أعلم.
(5). قال محمود : «قوله صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ : حالان متداخلتان» قال أحمد : يريد أن معنى الأولى مشتمل على معنى الثانية، لأن التراص هيئة للاصطفاف ، والله أعلم.

[سورة الصف (61) : آية 5]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (5)

وَإِذْ منصوب بإضمار اذكر. أو : وحين قال لهم ما قال كان كذا وكذا تُؤْذُونَنِي كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه في نفسه ، وجحود آياته ، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ، والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه وَقَدْ تَعْلَمُونَ في موضع الحال ، أى : تؤذوننى عالمين علما يقينا «1» أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ وقضية علمكم بذلك وموجبه تعظيمي وتوقيري ، لا أن تؤذوني وتستهينوا بى ، لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله ، علما بأن تعظيمه في تعظيم رسوله ، ولأن من آذاه كان وعيد الله لا حقا به فَلَمَّا زاغُوا عن الحق أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بأن منع ألطافه عنهم «2» وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ لا يلطف بهم لأنهم ليسوا من أهل اللطف. فإن قلت : ما معنى قَدْ في قوله قَدْ تَعْلَمُونَ؟ قلت : معناه التوكيد كأنه قال : وتعلمون علما يقينا لا شبهة لكم فيه.

[سورة الصف (61) : آية 6]

وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

(1). قال محمود : «بين أنهم على عكس الصواب حيث قال : تؤذوننى عالمين ... الخ» قال أحمد : أهل العربية تقول : إن «قد» تصحب الماضي لتقريبه من الحال. ومنه قول المؤذن : قد قامت الصلاة ، وتشتمل المصاحبة للماضي أيضا على معنى التوقع ، فلذلك قال سيبويه «قد فعل» جواب لما يفعل ، وقال الخليل : هذا الخبر لقوم ينتظرونه ، وأما مع المضارع فإنها تفيد التقليل مثل : ربما ، كقولهم : إن الكذوب قد يصدق ، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل وقد دخلت في الآية على مضارع ، فالوجه - والله أعلم - أن يكون هذا من الكلام الذي يقصدون به الافراط فيما ينعكس عنه ، وتكون «قد» في هذا المعنى نظيرة «ربما» في قوله رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ فإنها في هذا الموضع أبلغ من كم في التكثير ، فلما أوردت «ربما» في التكثير على عكس معناها الأصلى في التقليل ، فكذلك إيراد «قد» هاهنا لتكثير علمهم ، أى : تحقيق تأكيده على عكس معناها الأصلى في تقليل الأصل ، وعليه :
قد أترك القرن مصفرا أنامله
وإنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس ديدنه الأصلى ، ولا يقال : إن حملها في الآية على التكثير متعذر ، لأن العلم معلوم التعلق لا يتكثر ولا يتقلل ، لأنا نقول : يعبر عن تمكن الفعل وتحققه وتأكده وبلوغه الغاية في نوعه بما يعبر به عن التكثير ، وهو تعبير صحيح.
ألا ترى أن قوله رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا هو من هذا القبيل ، فان المراد شدة ودهم لذلك وبلوغه أقصى منتهاه لا غير ، والله الموفق.
(2). قوله «بأن منع ألطافه عنهم» فسر الازاغة بذلك بناء على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يريد الشر.
ومذهب أهل السنة : أنه تعالى يريد الشر والخير ، كما تقرر في محله. (ع)

قيل : إنما قال : يا بنى إسرائيل ، ولم يقل : يا قوم كما قال موسى ، لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه «1». والمعنى : أرسلت إليكم في حال تصديقى ما تقدمني مِنَ التَّوْراةِ وفي حال تبشيرى بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي يعنى: أن دينى التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر. وقرئ : من بعدي ، بسكون الياء وفتحها ، والخليل وسيبويه يختاران الفتح.

وعن كعب : أن الحواريين قالوا لعيسى : يا روح الله ، هل بعدنا من أمّة؟ قال : نعم أمّة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم باليسير من العمل. فإن قلت : بم انتصب مصدقا ومبشرا؟ أبما في الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم؟ قلت : بل بمعنى الإرسال ، لأن إِلَيْكُمْ صلة للرسول ، فلا يجوز أن تعمل شيئا لأن حروف الجرّ لا تعمل بأنفسها ، ولكن بما فيها من معنى الفعل ، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل ، فمن أين تعمل؟ وقرئ : هذا ساحر مبين.

[سورة الصف (61) : آية 7]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7)

وأى الناس أشد ظلما ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين ، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على اللّه بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق : هذا سحر ، لأنّ السحر كذب وتمويه. وقرأ طلحة بن مصرف : وهو يدعى ، بمعنى يدعى. دعاه وادّعاه ، نحو : لمسه والتمسه. وعنه : يدّعى ، بمعنى يدعو ، وهو اللّه عز وجل.

[سورة الصف (61) : آية 8]

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (8)

أصله : يريدون أن يطفؤا كما جاء في سورة براءة ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدا له ، لما فيها من معنى الإرادة في قولك : جئتك لإكرامك ، كما زيدت اللام في : لا أبا لك ، تأكيدا لمعنى الإضافة في : لا أباك ، وإطفاء نور اللّه بأفواههم : تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن : هذا سحر ، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ أى متمّ الحق ومبلغه غايته. وقرئ بالإضافة.

(1). قال الزمخشري : «و إنما قال يا بَنِي إِسْرائِيلَ ولم يقل : يا قوم ، لأنه لم يكن له - صلوات اللّه على نبينا وعليه - نسب فيهم» قال أحمد : وهذا نظير قوله تعالى إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ لأن شعيبا لم يكن من قوم من أرسل إليهم.

[سورة الصف (61) : آية 9]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)

وَدِينِ الْحَقِّ الملة الحنيفية لِيُظْهِرَهُ ليعليه عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ على جميع الأديان المخالفة له ، ولعمري لقد فعل ، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام.

وعن مجاهد : إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام. وقرئ : أرسل نبيه.

[سورة الصف (61) : الآيات 10 إلى 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)

تُنْجِيكُمْ قرئ مخففا ومثقلا. وتُؤْمِنُونَ استئناف ، كأنهم قالوا : كيف : نعمل؟

فقال : تؤمنون «1» ، وهو خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيب بقوله يَغْفِرْ لَكُمْ وتدل عليه قراءة ابن مسعود : آمنوا باللّه ورسوله وجاهدوا. فإن قلت : لم جيء به على لفظ الخبر؟ قلت : للإيذان بوجوب الامتثال ، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين.

(1). قال محمود : قوله تُؤْمِنُونَ استئناف كلام كأنه لما قال الكلام الأول قيل : كيف نفعل؟ فقيل : تؤمنون ... الخ» قال أحمد : إنما وجه إعراب الفراء بما ذكر ، لأنه لو جعله جوابا لقوله هَلْ أَدُلُّكُمْ فإنكم إن أدلكم على كذا وكذا أغفر لكم ، فتكون المغفرة حينئذ مترتبة على مجرد دلالته إياهم على الخير ، وليس كذلك ، إنما تترتب المغفرة على فعلهم لما دلهم عليه لا على نفس الدلالة ، فلذلك أول هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ بتأويل : هل تتجرون بالايمان والجهاد حتى تكون المغفرة مترتبة على فعل الايمان والجهاد لا على الدلالة ، وهذا التأويل غير محتاج إليه ، فان حاصل الكلام إذا صار إلى : هل أدلكم أغفر لكم ، التحق ذلك بأمثال قوله تعالى قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ فانه رتب فعل الصلاة على الأمر بها ، حتى كأنه قال ، فإنك إن تقل لهم أقيموا يقيموها. وللقائل أن يقول : قد قيل لبعضهم : أقم الصلاة فتركها؟ فالجواب عنه : أن الأمر الموجه على المؤمن الراسخ في الايمان لما كان مظنة لحصول الامتثال ، جعل كالمحقق وقوعه مرتبا عليه ، وكذلك هاهنا لما كانت دلالة الذين آمنوا على فعل الخير مظنة لامتثالهم. وامتثالهم سببا في المغفرة محققا : عومل معاملة تحقق الامتثال والمغفرة مرتبين على الدلالة ، واللّه أعلم.

ونظيره قول الداعي : غفر اللّه لك ، ويغفر اللّه لك : جعلت المغفرة لقوّة الرجاء ، كأنها كانت ووجدت.

فإن قلت : هل لقول الفراء أنه جواب هَلْ أَدُلُّكُمْ وجه؟ قلت : وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة ، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد ، فكأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم؟ فإن قلت : فما وجه قراءة زيد بن على رضى اللّه عنهما تُؤْمِنُونَ ... وَتُجاهِدُونَ؟

قلت : وجهها أن تكون على إضمار لام الأمر ، كقوله :

محمّد تفد نفسك كلّ نفس إذا ما خفت من أمر تبالا«1»

وعن ابن عباس أنهم قالوا : لو نعلم أحب الأعمال إلى اللّه لعملناه ، فنزلت هذه الآية ، فمكثوا ما شاء اللّه يقولون: ليتنا نعلم ما هي ، فدلهم اللّه عليها بقوله تُؤْمِنُونَ وهذا دليل على أن تُؤْمِنُونَ كلام مستأنف ، وعلى أنّ الأمر الوارد على النفوس بعد تشوّف وتطلع منها إليه : أوقع فيها وأقرب من قبولها له مما فوجئت به ذلِكُمْ يعنى ما ذكر من الإيمان والجهاد خَيْرٌ لَكُمْ من أموالكم وأنفسكم. فإن قلت : ما معنى قوله إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟ قلت : معناه إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرا لكم «2» حينئذ ، لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم ، فتخلصون وتفلحون وَأُخْرى تُحِبُّونَها ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ، ثم فسرها بقوله نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ أى عاجل وهو فتح مكة. وقال الحسن : فتح فارس والروم. وفي تُحِبُّونَها شيء من التوبيخ على محبة العاجل. فإن قلت : علام عطف قوله وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ قلت : على تُؤْمِنُونَ لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم اللّه وينصركم ، وبشر يا رسول اللّه المؤمنين بذلك. فإن قلت : لم نصب من قرأ نصرا من اللّه وفتحا قريبا؟

(1). لأبى طالب. وقيل : للأعشى ، يقول : يا رسول اللّه ، تفد ، أى لتفد ، فحذف لام الدعاء الجازمة للفعل لضرورة الشعر ، وسوغ حذفها قرينة مقام الطلب ، وإلا فحروف الجزم كحروف الجر لا تعمل وهي محذوفة إلا شذوذا ، كما صرح به السكاكي. هذا والحذف في نحو قوله تعالى قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ أسهل لأن قرينته لفظية ، وهي لفظ قُلْ الدال على الطلب. وقيل : هو خبر بمعنى الدعاء ، وخفف بحذف الياء ، وقيل : إن ذلك في غير الفواصل والقوا في غير سديد ، أى : فدى اللّه نفسك بكل نفس إذا خفت تبالا من شيء.
والتبال : هو الوبال ، قلبت واوه تاء. ويروى بالجر ، على أنه صفة أمر وليس بجيد.
(2). قال محمود : «معناه : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرا لكم ... الخ» قال أحمد : كأنه يجرى الشرط على حقيقته وليس بالظاهر ، لأن علمهم لذلك محقق. إذ الخطاب مع المؤمنين ، والظاهر أنه من وادى قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ والمقصود بهذا الشرط : التنبيه على المعنى الذي يقتضى الامتثال وإلهاب الحمية للطاعة ، كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عدوه : إن كنت حرا فانتصر ، تريد أن تثير منه حمية الانتصار لا غير ، واللّه أعلم.

قلت : يجوز أن ينصب على الاختصاص. أو على تنصرون نصرا ، ويفتح لكم فتحا. أو على : يغفر لكم ويدخلكم جنات ، ويؤتكم أخرى نصرا من اللّه وفتحا.

[سورة الصف (61) : آية 14]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ(14)

قرئ : كونوا أنصار اللّه وأنصارا للّه. وقرأ ابن مسعود : كونوا أنتم أنصار اللّه. وفيه زيادة حتم للنصرة عليهم. فإن قلت : ما وجه صحة التشبيه - وظاهره تشبيه كونهم أنصارا بقول عيسى صلوات اللّه عليه : مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ «1»؟ قلت : التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح. والمراد : كونوا أنصار اللّه كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ. فإن قلت : ما معنى قوله مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ؟ قلت: يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ والذي يطابقه أن يكون المعنى : من جندي متوجها إلى نصرة اللّه ، وإضافة أَنْصارِي خلاف إضافة أَنْصارَ اللَّهِ فإنّ معنى نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ : نحن الذين ينصرون اللّه. ومعنى مَنْ أَنْصارِي من الأنصار الذين يختصون بى ويكونون معى في نصرة اللّه ، ولا يصح أن يكون معناه : من ينصرني مع اللّه ، لأنه لا يطابق الجواب. والدليل عليه : قراءة من قرأ : من أنصار اللّه. والحواريون أصفياؤه وهم أوّل من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا ، وحوارى الرجل : صفيه وخلصانه «2» من الحور وهو البياض الخالص. والحوّارى : الدرمك. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «الزبير ابن عمّى وحواريي من أمتى» «3» وقيل :

كانوا قصارين يحوّرون الثياب يبيضونها. ونظير الحوارى في زنته : الحوالى : الكثير الحيل فَآمَنَتْ طائِفَةٌ منهم بعيسى وَكَفَرَتْ به طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا مؤمنيهم على كفارهم ، فظهروا عليهم.

(1). قال محمود : «إن قلت ما وجه التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصارا ... الخ» قال أحمد : كلام حسن وتمام على الذي أحسن : أن يميز بين الاضافتين المذكورتين : بأن الأولى محضة والثانية غير محضة ، فتنبه لها ، والله الموفق.
(2). قوله «و خلصانه» أى خالصته ، يستوي فيه الواحد والكثير ، كذا في الصحاح. وفيه : الدرمك : دقيق الحوارى. وفيه أيضا : والحوارى ما حور من الطعام ، أى بيض. وهذا دقيق حوارى ، وكل هذه بالضم كما أفاده الصحاح. (ع)
(3). أخرجه النسائي من حديث جابر. وهو في الصحيحين بلفظ «لكل نبى حوارى وحواريي الزبير».

وعن زيد بن على : كان ظهورهم بالحجة.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الصف كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه» «1».

سورة الجمعة

مدنية ، وآياتها 11 [نزلت بعد الصف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجمعة (62) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)

قرئت صفات اللّه عزّ وعلا بالرفع على المدح ، كأنه قيل : هو الملك القدوس ، ولو قرئت منصوبة لكان وجها ، كقول العرب : الحمد للّه أهل الحمد. الأمى : منسوب إلى أمّة العرب ، لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤن من بين الأمم. وقيل : بدأت الكتابة بالطائف ، أخذوها من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة من أهل الأنبار. ومعنى بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ بعث رجلا أميا في قوم أميين ، كما جاء في حديث شعياء : أنى أبعث أعمى في عميان ، وأمّيا في أميين «2» وقيل منهم ، كقوله تعالى مِنْ أَنْفُسِكُمْ يعلمون نسبه وأحواله. وقرئ : في الأمين ، بحذف ياءى النسب

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه.
(2). أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عبد الصمد بن معقل ، سمعت وهب بن منبه يقول «أوحى اللّه إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له شعياء فذكره مطولا. [.....]

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ يقرؤها عليهم مع كونه أمّيا مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم ، وقراءة أمى بغير تعلم آية بينة وَيُزَكِّيهِمْ ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ القرآن والسنة. وإن في وَإِنْ كانُوا هي المخففة من الثقيلة واللام دليل عليها ، أى : كانوا في ضلال لا ترى ضلالا أعظم منه وَآخَرِينَ مجرور عطف على الأميين ، يعنى : أنه بعثه في الأميين الذين على عهده ، وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضى اللّه عنهم. وقيل : لما نزلت قيل : من هم يا رسول اللّه ، فوضع يده على سلمان ثم قال : «لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء» وقيل : هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة ، ويجوز أن ينتصب عطفا على المنصوب في وَيُعَلِّمُهُمُ أى : يعلمهم ويعلم آخرين لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستندا إلى أوّله ، فكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ في تمكينه رجلا أمّيا من ذلك الأمر العظيم ، وتأييده عليه ، واختياره إياه من بين كافة البشر ذلِكَ الفضل الذي أعطاه محمدا وهو أن يكون نبى أبناء عصره ، ونبى أبناء العصور الغوابر ، هو فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ إعطاءه وتقتضيه حكمته.

[سورة الجمعة (62) : آية 5]

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)

شبه اليهود - في أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها ، وذلك أنّ فيها نعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والبشارة به ولم يؤمنوا به - بالحمار حمل أسفارا ، أى كتبا كبارا من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب. وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ، وبئس المثل بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وهم اليهود الذين كذبوا بآيات اللّه الدالة على صحة نبوّة محمد صلى اللّه عليه وسلم. ومعنى حُمِّلُوا التَّوْراةَ : كلفوا علمها والعمل بها ، ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها. وقرئ : حملوا التوراة ، أى حملوها ثم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل. وقرئ : يحمل الأسفار. فإن قلت : يَحْمِلُ ما محله؟ قلت : النصب على الحال «1» ، أو الجر على الوصف ، لأنّ الحمار كاللئيم في قوله : ولقد أمرّ على اللّئيم يسبّنى «2»

(1). قال محمود : «إما أن يكون قوله يَحْمِلُ حالا ، كقوله :
ولقد أمر على اللئيم يسبني
قال أحمد : يريد أن المراد فيها الجنس ، فتعريفه وتنكيره سواء.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 16 فراجعه إن شئت اه مصححه.

[سورة الجمعة (62) : الآيات 6 إلى 8]

قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (6) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

هاد يهود : إذا تهود «1» أَوْلِياءُ لِلَّهِ كانوا يقولون : نحن أبناء اللّه وأحباؤه ، أى : إن كان قولكم حقا وكنتم على ثقة فَتَمَنَّوُا على اللّه أن يميتكم وينقلكم سريعا إلى دار كرامته التي أعدّها لأوليائه ، ثم قال وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بسبب ما قدّموا من الكفر ، وقد قال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «و الذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه» فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لتمنوا ، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد ، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى ، وهي إحدى المعجزات. وقرئ : فتمنوا الموت ، بكسر الواو ، تشبيها بلو استطعنا. ولا فرق بين «لا» و«لن» في أن كل واحدة منهما نفى للمستقبل ، إلا أن في «لن» تأكيدا وتشديدا ليس في «لا» فأتى مرّة بلفظ التأكيد وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ ومرّة بغير لفظه وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ ثم قيل لهم : إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم لا تفوتونه وهو ملاقيكم لا محالة ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى اللّه فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب. وقرأ زيد بن على رضى اللّه عنه : إنه ملاقيكم. وفي قراءة ابن مسعود : تفرون منه ملاقيكم ، وهي ظاهرة. وأما التي بالفاء ، فلتضمن الذي معنى الشرط ، وقد جعل إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ كلاما برأسه في قراءة زيد ، أى : إنّ الموت هو الشيء الذي تفرّون منه ، ثم استؤنف : إنه ملاقيكم.

[سورة الجمعة (62) : الآيات 9 إلى 10]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(10)

(1). قوله «هاد يهود إذا تهود» في الصحاح : هاد يهود : تاب ورجع إلى الحق ، وهاد وتهود : إذا صار يهوديا. (ع)

يوم الجمعة : يوم الفوج المجموع ، كقولهم : ضحكة ، للمضحوك منه. ويوم الجمعة ، بفتح الميم : يوم الوقت الجامع ، كقولهم : ضحكة ، ولعنة ، ولعبة ويوم الجمعة تثقيل للجمعة ، كما قيل : عسرة في عسر. وقرئ بهنّ جميعا. فإن قلت : من في قوله مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ما هي؟ قلت : هي بيان لإذا وتفسير له. والنداء : الأذان. وقالوا : المراد به الأذان عند قعود الإمام على المنبر ، وقد كان لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مؤذن واحد ، فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد ، فإذا نزل أقام للصلاة «1» ، ثم كان أبو بكر وعمر رضى اللّه عنهما على ذلك ، حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذنا آخر ، فأمر بالتأذين الأوّل على داره التي تسمى زوراء ، فإذا جلس على المنبر : أذن المؤذن الثاني ، فإذا نزل أقام للصلاة ، فلم يعب ذلك عليه. وقيل : أول من سماها «جمعة» كعب بن لؤي ، وكان يقال لها : العروبة. وقيل : إنّ الأنصار قالوا : لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهلموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر اللّه فيه ونصلى. فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم ، فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، فأنزل اللّه آية الجمعة ، فهي أوّل جمعة ، كانت في الإسلام «2» وأما أوّل جمعة جمعها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فهي : أنه لما قدم المدينة مهاجرا نزل قباء على بنى عمرو بن عوف ، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامدا المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بنى سالم بن عوف في بطن واد لهم ، فخطب وصلى الجمعة «3». وعن بعضهم : قد أبطل اللّه قول اليهود في ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء اللّه وأحباؤه ، فكذبهم في قوله فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفارا ، وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع اللّه لهم الجمعة.

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه تقوم الساعة ، وهو عند اللّه يوم المزيد. وعنه عليه السلام : «أتانى جبريل وفي كفه مرآة بيضاء وقال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولأمّتك من بعدك ، وهو سيد الأيام عندنا ،

(1). متفق عليه من حديث السائب بن يزيد بغير هذا السياق ، وليس فيه على باب المسجد.
(2). أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين بهذا مطولا. وأخرجه الثعلبي من طريقه. وروى الطبراني من حديث كعب بن مالك نحوه باختصار.
(3). أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن محمد بن جعفر عن عروة بن عبد الرحمن بن عويم أخبرنى بعض قومي قال قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة يوم الاثنين. ذكر ذلك مطولا. ومن طريقه البيهقي في الدلائل.

وذكره ابن هشام في مختصره عن ابن إسحاق بغير إسناد

ونحن ندعوه إلى الآخرة يوم المزيد» «1». وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ للّه تعالى في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار «2». وعن كعب : إنّ اللّه فضل من البلدان : مكة ، ومن الشهور : رمضان ، ومن الأيام : الجمعة. وقال عليه الصلاة والسلام «من مات يوم الجمعة كتب اللّه له أجر شهيد ، ووقى فتنة القبر» «3» وفي الحديث : «إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد «4» بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب ، يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم» «5» وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج.

(1). متفق عليه دون قوله «و هو عند اللّه يوم المزيد» البزار والطبري من طريق جهضم بن عبد اللّه بن الطفيل عن أبى طيبة عن عثمان بن عمير عن أنس بهذا مطولا. ولفظه «و نحن ندعوه في الآخرة» وهو الصواب وفي رواية الطبري في تفسير في حدثنا جهضم بن عبد اللّه بن الطفيل عن أبى طيبة عن عثمان بن عمير عن أنس بهذا مطولا ولفظه «و نحن ندعوه في الآخرة» وهو الصواب. وفي رواية الطبري في تفسير ق حدثني أبو طيبة عن معاوية العبسي عن عثمان. ورواه ابن مردويه من رواية على بن الحكم البناني وعنبسة بن سعيد ، كلاهما عن عثمان بن عمير عن أنس به. وطريق على بن الحكم عن أبى يعلى وأخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق من رواية ليث بن أبى سليم عن عثمان ابن عمير به. ورواه الشافعي بإسناد واه قال : أخبرنى إبراهيم بن أبى يحيى حدثني موسى بن عبيدة حدثني أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عبد اللّه بن عمير أنه سمع أنس بن مالك نحوه. وله طريق أخرى عن أنس أخرجه الطبراني في الأوسط. من رواية ثابت بن ثوبان عن سالم بن عبد اللّه عن أنس. وقال إسحاق بن راهويه. أخبرنا محمد بن شعيب حدثني عمر مولى عمرة عن أنس. وله شاهد من حديث حذيفة أخرجه البزار من رواية القاسم بن مطيب عن الأعمش عن أبى وائل عنه.
(2). أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب وابن عدى وابن حبان من رواية أزور بن غالب عن سليمان التيمي عن ثابت عن أنس والأزور. قال الدارقطني : متروك. رواه أبو يعلى من رواية المعتمر بن نافع عن عبد اللّه العمرى عن ثابت حدثني أنس ، وأخرجه البخاري وفي التاريخ في ترجمة المعتمر. وأخرجه الدارقطني في الأفراد من رواية عبد الواحد بن زيد بن ثابت.
(3). قال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن رجل عن ابن شهاب أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى فتنة القبر وكتب له أجر شهيد» وقال أبو مرة في السنن : ذكر ابن جريج أخبرنى سفيان عن ربيعة بن سيف عن عبد اللّه بن عمرو مرفوعا مثله. ومن طريق ربيعة أخرجه الترمذي ولم يذكر الشهادة وقال : غريب وليس لربيعة سماع من عبد اللّه بن عمرو انتهى. وقد وصله الطبراني وأبو يعلى من حديث ربيعة عن عياض عن قبة العزى عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما. وله طريق أخرى أخرجها أحمد وإسحاق والطبراني من رواية بقية : حدثني معاوية عن سعيد سمعت أبا قبيل سمعت عبد اللّه بن عمرو نحوه. ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة ابن المنكدر من طريق عمر بن موسى بن الوجيه عن جابر ، بلفظ «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة أجير من عذاب القبر ، وجاء يوم القيامة عليه طابع الشهداء».
(4). قوله «على أبواب المسجد» لعله «المساجد». وفي الخازن : إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المساجد ملائكة يكتبون ... الخ». (ع)
(5). أخرجه ابن مردويه من طريق عمرو بن سمرة عن سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة عن على وإسناده ضعيف جدا. وهو في الصحيح من حديث أبى هريرة دون قوله بأيديهم صحاف من فضة وأقلام من ذهب».

وقيل : أوّل بدعة أحدثت في الإسلام : ترك البكور إلى الجمعة. وعن ابن مسعود : أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه ، فاغتم وأخذ يعاتب نفسه يقول : أراك رابع أربعة وما رابع أربعة بسعيد «1». ولا تقام الجمعة عند أبى حنيفة رضى اللّه عنه إلا في مصر جامع ، لقوله عليه السلام : «لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع» «2» والمصر الجامع : ما أقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام ، ومن شروطها الإمام أو من يقوم مقامه ، لقوله عليه السلام «فمن تركها وله إمام عادل أو جائر ... الحديث» «3» وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «أربع إلى الولاة : الفيء ، والصدقات «و الحدود ، والجمعات» «4». فإن أمّ رجل بغير إذن الإمام أو من ولاه من قاض أو صاحب شرطة : لم يجز ، فإن لم يكن الاستئذان فاجتمعوا على واحد فصلى بهم: جاز ، وهي تنعقد بثلاثة سوى الإمام. وعند الشافعي بأربعين. ولا جمعة على المسافرين والعبيد والنساء والمرضى والزمنى ، ولا على الأعمى عند أبى حنيفة ، ولا على الشيخ الذي لا يمشى إلا بقائد. وقرأ عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم : فامضوا. وعن عمر رضى اللّه عنه أنه سمع رجلا يقرأ : فاسعوا ، فقال : من

(1). أخرجه ابن ماجة والبزار من رواية الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال «خرجت مع عبد اللّه بن مسعود إلى الجمعة ، فوجد ثلاثة قد سبقوه - فذكره. وليس فيه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه ، وزاد «إنى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : إن الناس يجلسون من اللّه يوم القيامة على قدر رواحهم إلى الجمعات» واختلفا في الراوي عن الأعمش مع اتفاقهما على أنه من رواية عبد المجيد بن أبى رواد. ففي ابن ماجة بينهما معمر وفي البزار بينهما مروان بن سالم. وذكره ابن أبى حاتم في العلل روى عن عبد المجيد عن الثوري عن الأعمش. وهذا لا يصح عن الثوري.
(2). لم أره مرفوعا ورواه ابن أبى شيبة عن على. وإسناده ضعيف.
(3). أخرجه ابن ماجة من رواية عبد اللّه بن محمد العدوى عن على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن جابر قال «خطبنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : أيها الناس توبوا إلى اللّه قبل أن تموتوا - الحديث بطوله» وفيه هذا وغيره أخرجه ابن عدى. وروى عن وكيع أن العدوى كان يضع الحديث. وله طريق أخرى عند أبى يعلى من رواية فضيل بن مرزوق : أخبرنى الوليد بن بكير عن نمر بن على عن سعيد بن المسيب. وفي إسناده نظر.
فقال : رواه الطبراني في الأوسط من رواية موسى بن عطية الباهلي عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد.
وقال : تفرد به يحيى بن حبيب عن موسى بن عطية. وقال : رواه أسد بن موسى وعبد اللّه بن صالح العجلى عن فضيل بن مرزوق عن الوليد بن بكير عن عبد اللّه بن محمد العدوى عن على بن زيد عن سعيد عن جابر. قلت :
فرجعت الرواية الأخرى إلى العدوى وقال ابن حبان في الضعفاء : أخبرنا ابن خزيمة حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد ، وقال محمد بن عبد الرحمن يروى العجائب. ورواه في الضعفاء أيضا من طريق خالد بن عبد الدائم حدثنا نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة وأهله بخالد بن عبد الدايم. وقال الدارقطني في العلل : اختلف زهرة وعلى في صحته. وكلاهما غير ثابت. [.....]
(4). لم أره مرفوعا.

والسعى : التصرف في كل عمل. ومنه قوله تعالى فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى وعن الحسن : ليس السعى على الأقدام ، ولكنه على النيات والقلوب.

وذكر محمد بن الحسن رحمه اللّه في موطنه : أن عمر سمع الإقامة وهو بالبقيع فأسرع المشي. قال محمد : وهذا لا بأس به ما لم يجهد نفسه إِلى ذِكْرِ اللَّهِ إلى الخطبة والصلاة ، ولتسمية اللّه الخطبة ذكرا له قال أبو حنيفة رحمه اللّه : إن اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكرا للّه كقوله : الحمد للّه ، سبحان اللّه : جاز «1». وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال : الحمد للّه وأرتج عليه ، فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالا ، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوّال ، وستأتيكم «2» الخطب ، ثم نزل ، وكان ذلك بحضرة الصحابة ولم ينكر عليه أحد. وعند صاحبيه والشافعي : لا بد من كلام يسمى خطبة. فإن قلت : كيف يفسر ذكر اللّه بالخطبة وفيها ذكر غير اللّه؟ «3» قلت : ما كان من ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر اللّه ، فأمّا ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقاء بعكس ذلك ، فمن ذكر الشيطان وهو من ذكر اللّه على مراحل ، وإذا قال المنصت للخطبة لصاحبه «صه» فقد لغا ، أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لا غيا ، نعوذ باللّه من غربة الإسلام ونكد الأيام.

أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر اللّه من شواغل الدنيا ، وإنما خص البيع من بينها لأن يوم الجمعة يوم يهبط الناس فيه من قراهم وبواديهم ،

(1). قال : محمود «استدل بذلك على مذهب أبى حنيفة رحمه اللّه ... الخ» قال أحمد : ولا دليل فيه ، فان العرب تسمى الشيء باسم بعض ما يشتمل عليه ، كما سميت الصلاة مرة قرآنا ومرة سجودا ومرة ركوعا ، لأنها مشتملة على ذلك ، فكذلك الخطبة لما كانت مشتملة على ذكر اللّه سميت به ، ولا يلزم أن يكون كذلك كل ما اشتملت عليه. لا سيما والمسمى خطبة عند العرب لا بد وأن يزيد على القدر الذي اكتفى به أبو حنيفة. قال بعض أصحاب مالك رحمه اللّه : أقلها حمد اللّه والصلاة على نبيه وتحذير وتبشير وقرآن.
(2). أتبع الزمخشري الاستدلال على مذهب أبى حنيفة بالآية ، بأثر عن عثمان : وهو أنه صعد المنبر فقال إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيكم الخطب ثم نزل وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد» قال أحمد : سلمه بلا اشتباه ، فإن عثمان لم يصدر ذلك منه في خطبة الجمعة ، وإنما كان ذلك في ابتداء خلافته وصعوده المنبر للبيعة ، وكانت عادة العرب الخطب في المهمات.
ألا ترى إلى قوله : وستأتيكم بعد ذلك الخطب ، فان ذلك يحقق أن مقالته هذه ليست بخطبة ، ولو كان في الجمعة لكان تاركا للخطبة بالكلية ، وهي منقولة في التاريخ أنه أرتج عليه فقال : سيجعل اللّه بعد عسر يسرا وبعد عي بيانا ، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيكم الخطب.
(3). قال محمود : «إن قلت : كيف فسر ذكر اللّه بالخطبة وفيه ذكر غير اللّه ، وأجاب بأن ذكر رسول اللّه والصحابة والخلفاء الراشدين ... الخ» قال أحمد : الدعاء السلطان الواجب الطاعة مشروع بكل حال. وقد نقل عن بعض السلف أنه دعا لسلطان ظالم فقيل له : أتدعو له وهو ظالم؟ فقال : إي واللّه أدعو ، له إن ما يدفع اللّه ببقائه أعظم مما يندفع بزواله ، لا سيما إذا ضمن ذلك الدعاء بصلاحه وسداده وتوفيقه ، واللّه الموفق.

وينصبون إلى المصر من كل أوب ووقت هبوطهم واجتماعهم واغتصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار «1» وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة ، وحينئذ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء ، فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن ذكر اللّه والمضي إلى المسجد ، قيل لهم : بادروا تجارة الآخرة ، واتركوا تجارة الدنيا ، واسعوا إلى ذكر اللّه الذي لا شيء أنفع منه وأربح وَذَرُوا الْبَيْعَ الذي نفعه يسير وريحه مقارب. فإن قلت : فإذا كان البيع في هذا الوقت مأمورا بتركه محرما ، فهل هو فاسد؟ قلت : عامّة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع. قالوا : لأنّ البيع لم يحرم لعينه ، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب ، والوضوء بماء مغصوب ، وعن بعض الناس : أنه فاسد. ثم أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح ، مع التوصية بإكثار الذكر ، وأن لا يلهيهم شيء من تجارة ولا غيرها عنه ، وأن تكون هممهم في جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا يتفصون عنه ، لأنّ فلاحهم فيه وفوزهم منوط به : وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ، إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ في اللّه : وعن الحسن وسعيد بن المسيب : طلب العلم ، وقيل : صلاة التطوّع : وعن بعض السلف أنه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا نظرا في هذه الآية.

[سورة الجمعة (62) : آية 11]

وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

روى أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد ، فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبي صلى اللّه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فقاموا إليه ، خشوا أن يسبقوا إليه ، فما بقي معه إلا يسير. قيل : ثمانية ، وأحد عشر ، واثنا عشر ، وأربعون ، فقال عليه السلام : «و الذي نفس محمد بيده ، لو خرجوا جميعا لأضرم اللّه عليهم الوادي «2» نارا» وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق ،

(1). قوله «إذا انتفخ النهار» أى علا. وقوله «تحر» أى تعطش أو يشتد حرها. أفاده الصحاح. (ع)
(2). هكذا ذكره الواحدي عن المفسرين. وذكره الثعلبي ثم البغوي عن الحسن بغير إسناد. ولفظ الحسن أخرجه عبد الرزاق عن معمر عنه قال «أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر. فقدمت عير والنبي صلى اللّه عليه وسلم قائم يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها وخرجوا إليها والنبي صلى اللّه عليه وسلم قائم يخطب كما هو ، فأنزل اللّه تعالى وَتَرَكُوكَ قائِماً فقال : لو اتبع آخرهم أولهم لا لتهب الوادي عليهم نارا» وفي رواية أبي سفيان الآتية عند ابن حبان نحوه قال «و الذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال الوادي عليكم نارا : «نزلت هذه الآية» وتعيين دحية في قوله «خشوا أن يسبقوا إليه» رواه الطبري مختصرا من رواية السدى عن ابن مالك قال : قدم دحية بن خليفة بتجارة زبيب من الشام والنبي صلى اللّه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة. فلما رأوه قاموا خشية أن يسبقوا إليه فنزلت وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً - الآية وروى البزار من طريق عكرمة عن ابن عباس قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فجاء دحية يبيع سلعة فما بقي في المسجد أحد إلا خرج - إلا نفر - والنبي صلى اللّه عليه وسلم قائم فنزلت. وأصل هذه القصة في الصحيحين من رواية حصين عن سالم بن أبى الجعد عن جابر قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانفتل الناس حتى لم يبق إلا اثنى عشر رجلا فأنزلت» وفي لفظ مسلم «منهم أبو بكر وعمر» وفي رواية له «أنا فيهم» وفي رواية البخاري «بينما نحن نصلى مع النبي صلى اللّه عليه وسلم إذ أقبلت عير» قال البيهقي : المراد بقوله نصلى أى نسمع الخطبة ، جمعا بين الروايتين انتهى. وقد أخرجه ابن حبان من رواية أبى سفيان عن جابر كذلك. ولفظه «بينما النبي صلى اللّه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة.
فقدمت عير من الشام إلى المدينة فابتدرها أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى لم يبق معه إلا اثنى عشر رجلا - الحديث» ويؤيده حديث كعب بن عجرة عند مسلم «أنه أنكر على عبد الرحمن بن أم الحكم أن يخطب قاعدا.
فقال : انظروا إلى هذا يخطب قاعدا. واللّه يقول : وتركوك قائما» ويدل أيضا على أنه كان في الخطبة ما رواه أبو داود في المراسيل من رواية بكر بن معروف عن مقاتل بن حيان قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلى يوم الجمعة قبل الخطبة حتى إذا كان ذات يوم وهو يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية قد قدم.
وكان إذا قدم تلقوه بالدفاف فخرج الناس ، لم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء فأنزل اللّه الآية. فقدم النبي صلى اللّه عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة «و أخر الصلاة» «تنبيه» لم أقف على رواية أنهم كانوا ثمانية ولا أحد عشر ، وأما رواية اثنى عشر فهي المشهورة الصحيحة. ورواية الأربعين أخرجها الدارقطني من طريق على بن عاصم عن حصين : وقال : لم يقل أحد من أصحاب حصين أربعون إلا على بن عاصم. والكل قالوا : اثنى عشر رجلا.
وكذلك قال أبو سفيان عن جابر كما تقدم عند ابن حبان.

فهو المراد باللهو : وعن قتادة : فعلوا ذلك ثلاث مرات في كل مقدم عير. فإن قلت : فإن اتفق تفرق الناس عن الإمام في صلاة الجمعة كيف يصنع؟ قلت : إن بقي وحده أو مع أقل من ثلاثة ، فعند أبى حنيفة : يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع. وعند صاحبيه : إذا كبر وهم معه مضى فيها. وعند زفر : إذا نفروا قبل التشهد بطلت. فإن قلت : كيف قال إِلَيْها وقد ذكر شيئين؟ قلت : تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهوا انفضوا إليه : فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وكذلك قراءة من قرأ : انفضوا إليه. وقراءة من قرأ : لهوا أو تجارة انفضوا إليها. وقرئ : إليهما.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الجمعة أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة وبعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين» «1».

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

سورة المنافقون

مدنية ، وهي إحدى عشرة آية [نزلت بعد الحج]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المنافقون (63) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (3)

أرادوا بقولهم نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم «1». فقال اللّه عزّ وجلّ : قالوا ذلك وَاللَّهُ يَعْلَمُ أن الأمر كما يدل عليه قولهم : إنك لرسول اللّه ، واللّه يشهد إنهم لكاذبون في قولهم : نشهد ، وادعائهم فيه المواطأة. أو إنهم لكاذبون فيه ، لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة ، فهم كاذبون في تسميته شهادة. أو أراد : واللّه يشهد إنهم لكاذبون عند أنفسهم : لأنهم كانوا يعتقدون أنّ قولهم إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه. فإن قلت : أى فائدة في قوله تعالى وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ؟

قلت : لو قال : قالوا نشهد إنك لرسول اللّه واللّه يشهد إنهم الكاذبون ، لكان يوهم أنّ قولهم هذا كذب ، فوسط بينهما قوله وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ليميط هذا الإيهام اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً يجوز أن يراد أنّ قولهم نشهد إنك لرسول اللّه يمين من أيمانهم الكاذبة ، لأنّ الشهادة تجرى مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد ، يقول الرجل : أشهد وأشهد باللّه ، وأعزم وأعزم باللّه في موضع أقسم وأولى.

(1). قال محمود : «إنما كذبهم لأنهم ادعوا أن شهادتهم بألسنتهم تواطئ لقلوبهم ... الخ» قال أحمد : ومثل هذا من نمطه المليح قوله قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وقد كان المطابق لقوله وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا أن يقال لهم : لا تقولوا آمنا ، ولكنه لما كان موهما للنهى عن قول الايمان عدل عنه على ما فيه من الطباق إلى ما سلم الكلام فيه من الوهم ، وذلك أجل وأعظم من فائدة المطابقة ، لا سيما في مخاطبة هؤلاء الذين كانوا يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة. ألا تراهم كيف غالطوا أنفسهم متغابين ، ولبسوا على ضعفهم متجاهلين عند ما أنزل قوله إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ.

وبه استشهد أبو حنيفة رحمه اللّه على أن «أشهد» يمين «1». ويجوز أن يكون وصفا للمنافقين في استجنانهم بالأيمان. وقرأ الحسن البصري : إيمانهم ، أى : ما أظهروه من الإيمان بألسنتهم. ويعضده قوله تعالى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا. ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من نفاقهم وصدهم الناس عن سبيل اللّه. وفي ساءَ معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين ذلِكَ إشارة إلى قوله ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالا بسبب بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان ، أى : ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فجسروا على كل عظيمة. فإن قلت : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، «2» فما معنى قوله آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا؟ قلت : فيه ثلاثة أوجه ، أحدها : آمنوا، أى : نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ، ثم كفروا : ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع عليه من قولهم : إن كان ما يقوله محمد حقا فنحن حمير ، وقولهم في غزوة تبوك : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات. ونحوه قوله تعالى يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ أى : وظهر كفرهم بعد أن أسلموا. ونحوه قوله تعالى لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ والثاني آمنوا : أى نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام ، كقوله تعالى وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا إلى قوله تعالى إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ والثالث : أن يراد أهل الردة منهم.

وقرئ : فطبع على قلوبهم. وقرأ زيد بن على : فطبع اللّه.

(1). قال محمود : «استدل لأبى حنيفة على أن قول القائل «أشهد» يمين بقوله اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً ولم يصدر منهم إلا قولهم نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ فجعله يمينا» قال أحمد : أحد القولين عند مالك رحمه اللّه إذا قال أشهد وأحلف وأقسم ولم ينو باللّه ولا بغيره ، كما نقل عن أبي حنيفة أنه يمين وليس بالمشهور. أما لو نوى باللّه وإن لم يتلفظ فيمين بلا إشكال ، وليس فيما ذكره دليل على ما ذكره ، فان قوله اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً غايته أن ما ذكروه يسمى يمينا ، وليس الخلاف في تسميته يمينا ، وإنما الخلاف هل يكون يمينا منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا؟

وليس كل ما يسمى حلفا أو قسما يوجب حكما ، ألا ترى أنه لو قال : «أحلف» ولم يقل «بالله» ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف في وجوب الكفارة به ، وإن كان حلفا لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه.
(2). قال محمود : «المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ... الخ. قال أحمد : ويحتمل وجها رابعا وهو أنهم آمنوا به قبل مبعثه على الصفة المذكورة في التوراة ، لأنهم كانوا يسمعونها من جيرانهم اليهود ، ثم كفروا به بعد مبعثه وموافقة الصفة ، ولعل في المنافقين يهودا ، وإن لم يكن فقد كان الايمان قبل مبعثه من الفريقين :
اليهود وعبدة الأوثان من العرب ، إلى نزول قوله لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ كيف حكى الله تعالى عن الفريقين ما كانوا يقولونه. والبينة : النبي صلى الله عليه وسلم.

[سورة المنافقون (63) : آية 4]

وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)

كان عبد الله بن أبىّ رجلا جسيما صبيحا ، فصيحا ، ذلق اللسان «1» وقوم من المنافقين في مثل صفته ، وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن «2» فكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم. فإن قلت : ما معنى قوله كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ؟ قلت : شبهوا في استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بالخشب المسندة إلى الحائط ولأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به في عدم الانتفاع. ويجوز أن يراد بالخشب المسندة : الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان ، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم ، والخطاب في رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ لرسول الله ، أو لكل من يخاطب. وقرئ : يسمع ، على البناء للمفعول ، وموضع كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ رفع على : هم كأنهم خشب. أو هو كلام مستأنف لا محل له. وقرئ : خشب جمع خشبة ، كبدنة وبدن. وخشب ، كثمرة وثمر. وخشب ، كمدرة ومدر ، وهي في قراءة ابن عباس. وعن اليزيدي أنه قال في خُشُبٌ : جمع خشباء ، والخشباء : الخشبة التي دعر جوفها «3» : شبهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم عَلَيْهِمْ ثانى مفعولي يحسبون «4» ، أى : يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم ، لجبنهم وهلعهم وما في قلوبهم من الرعب :
إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة : ظنوه إيقاعا بهم. وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم. ومنه أخذ الأخطل :

(1). قوله «فصيحا ذلق اللسان» أى طلق اللسان ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «كانوا يجالسون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستندون في المجلس ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن ... الخ» : قال أحمد : وفيما قال اليزيدي نظر من حيث مقتضى العربية ، وإلا فهو متمكن المعنى ، وذلك أنها قرئت بضم الشين وسكونها قراءتين مستفيضتين ، ففيه دليل أن أصلها الضم ، والسكون إنما هو طارئ عليه تخفيفا ، وهذا يبعد كونها جمع خشباء على وزن فعلاء ، لأن قياس جمعه فعل بسكون العين كحمراء وحمر ، ولا يطرأ الضم ، فلو كان كما قال لم تضم شينها ، والله تعالى أعلم.
(3). قوله «التي دعر جوفها» أى فسد. أفاده الصحاح. (ع)
(4). قال محمود : «المفعول الثاني عَلَيْهِمْ تقديره : واقعة عليهم ... الخ» قال أحمد : وغلا المتنبي في المعنى فقال :
وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا
[.....]

ما زلت تحسب كلّ شيء بعدهم خيلا تكرّ عليهم ورجالا «1»

يوقب على عَلَيْهِمْ ويبتدأ هُمُ الْعَدُوُّ أى الكاملون في العداوة : لأنّ أعدى الأعداء العدوّ المداجى «2» ، الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوىّ فَاحْذَرْهُمْ ولا تغترر بظاهرهم.

ويجوز أن يكون هُمُ الْعَدُوُّ المفعول الثاني ، كما لو طرحت الضمير. فإن قلت : فحقه أن يقال : هي العدوّ. قلت : منظور فيه إلى الخبر ، كما ذكر في هذا رَبِّي وأن يقدر مضاف محذوف على : يحسبون كل أهل صيحة قاتَلَهُمُ اللَّهُ دعاء عليهم ، وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم. أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك أَنَّى يُؤْفَكُونَ كيف يعدلون عن الحق تعجبا من جهلهم «3» وضلالتهم.

[سورة المنافقون (63) : الآيات 5 إلى 6]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (6)

لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ عطفوها وأمالوها إعراضا عن ذلك واستكبارا. وقرئ بالتخفيف والتشديد للتكثير.

[سورة المنافقون (63) : الآيات 7 إلى 8]

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8)

روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حين لقى بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم : ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه ،

(1). للأخطل ، يقول : لا زلت يا جرير تظن كل شيء بعدهم ، أى : بعد خذلان قومك. ويجوز أن بعدهم بمعنى غيرهم ، خيلا تكر : أى ترجع بسرعة عليهم ورجالا لكثرة ما قام بقلبك من الخوف.
(2). قوله «العدو المداجى الذي يكاشرك» أى المدارى. والكثر : التهسم تبدو منه الأسنان. والدوى - مقصور - المرض ، تقول : دوى الرجل - بالكسر : مرض ودوى صدره أيضا : ضغن. ودويّ الريح : حفيفها ، كذا في الصحاح. (ع)
(3). قوله «تعجبا من جهلهم» لعله تعجب ، بل لعله : تعجيب. (ع)

وسنان الجهني حليف لعبد اللّه بن أبىّ ، واقتتلا ، فصرخ جهجاه : يا للمهاجرين : وسنان : يا للأنصار ، فأعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا ، فقال عبد اللّه لجعال. وأنت هناك ، وقال : ما صحبنا محمدا إلا لنلطم ، واللّه ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال : سمن كلبك يأكلك ، أما واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل ، عنى بالأعز : نفسه ، وبالأذل : رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم قال لقومه : ما ذا فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما واللّه لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحوّلوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد ، فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث ، فقال : أنت واللّه الذليل القليل المبغض في قومك ، ومحمد في عزّ من الرحمن وقوّة من المسلمين ، فقال عبد اللّه : اسكت فإنما كنت ألعب ، فأخبر زيد رسول اللّه فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول اللّه ، فقال : إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب. قال : فإن كرهت أن يقتله مهاجرى ، فأمر به أنصاريا فقال : فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمدا يقتل أصحابه ، وقال عليه الصلاة والسلام لعبد اللّه : أنت صاحب الكلام الذي بلغني؟ قال : واللّه الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك ، وإن زيدا لكاذب ، وهو قوله تعالى اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فقال الحاضرون : يا رسول اللّه : شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام ، عسى أن يكون قد وهم. وروى أن رسول اللّه قال له : لعلك غضبت عليه ، قال : لا ، قال : فلعله أخطأ سمعك ، قال : لا ، قال : فلعله شبه عليك ، قال : لا. فلما نزلت : لحق رسول اللّه زيدا من خلفه فعرك أذنه وقال : وفت أذنك يا غلام ، إنّ اللّه قد صدقك وكذب المنافقين «1». ولما أراد عبد اللّه أن يدخل المدينة : اعترضه ابنه حباب ، وهو عبد اللّه بن عبد اللّه غير رسول اللّه اسمه ، وقال : إنّ حبابا اسم شيطان. وكان مخلصا وقال : وراءك ، واللّه ، لا تدخلها حتى تقول رسول اللّه الأعز وأنا الأذل ، فلم يزل حبيسا في يده حتى أمره رسول اللّه بتخليته «2». وروى أنه قال له :

(1). هكذا ذكره الواقدي في المغازي بغير إسناد وعزاه إلى الثعلبي والواحدي ولأصحاب السير ، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد اللّه بن أبى بكر ومحمد بن يحيى بن حبان كل قد حدثني بعض حديث بنى المصطلق - فذكر للغزوة بطولها والقصة المذكورة باختلاف يسير. وكذا أخرجه الطبري من طريقه وأصل القصة في الصحيحين من طريق أبى إسحاق عن زيد بن أرقم قال «كنت مع عمى فسمعت عبد اللّه بن أبى يقول - الحديث - وأوله عندهما أيضا من طريق عمرو بن دينار عن جابر قال «كنا في غزوة بنى المصطلق فتبع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار» ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق أبى سعد الأودى حدثنا زيد بن أرقم قال «غزونا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقوننا فسبق أعرابى. فملأ الحوض» فذكر القصة بطولها. وفي سياقها اختلاف.
(2). هكذا ذكره الثعلبي موصولا بالذي قبله ، وروى الزبيدي من طريق عمرو بن دينار عن جابر أصل القصة وقال بعد عمر : دعني أضرب عنقه. فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» قال وقال غير عمر وقال له ابنه عبد اللّه بن عبد اللّه «و اللّه لا تنفلت حتى تقول إنك الذليل ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم العزيز ففعل» قلت : وأصل حديث جابر في الصحيح.

لئن لم تقرّ للّه ورسوله بالعز لأضر بن عنقك ، فقال : ويحك ، أفاعل أنت؟ قال : نعم. فلما رأى منه الجدّ قال : أشهد أنّ العزة للّه ولرسوله وللمؤمنين ، فقال رسول اللّه لابنه : جزاك اللّه عن رسوله وعن المؤمنين خيرا «1»، فلما بان كذب عبد اللّه قيل له : قد نزلت فيك آي شداد ، فاذهب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أو من فآمنت ، وأمرتموني أن أزكى مالى فزكيت ، فما بقي إلا

وقرئ : استغفرت ، على حذف حرف الاستفهام لأنّ «أم» المعادلة تدل عليه. وقرأ أبو جعفر : آستغفرت ، إشباعا لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان ، لا قلبا لهمزة الوصل ألفا ، كما في : آلسحر ، وآللّه يَنْفَضُّوا يتفرقوا. وقرئ : ينفضوا ، من انفض القوم إذا فنيت أزوادهم. وحقيقته : حان لهم أن ينفضوا مزاودهم وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وبيده الأرزاق والقسم ، وفهو رازقهم منها ، وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ، ولكن عبد اللّه وأضرابه جاهلون لا يَفْقَهُونَ ذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان. وقرئ : ليخرجنّ الأعز منها الأذل بفتح الياء. وليخرجنّ ، على البناء للمفعول. قرأ الحسن وابن أبي عبلة : لنخرجنّ ، بالنون ونصب الأعز والأذل. ومعناه : خروج الأذل. أو إخراج الأذل. أو مثل الأذل وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ الغلبة والقوّة ، ولمن أعزه اللّه وأيده من رسوله ومن المؤمنين ، وهم الأخصاء بذلك ، كما أنّ المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين. وعن بعض الصالحات - وكانت في هيئة رثة - ألست على الإسلام؟ وهو العز الذي لا ذل معه ، والغنى الذي لا فقر معه. وعن الحسن بن على رضى اللّه عنهما : أنّ رجلا قال له. إنّ الناس يزعمون أنّ فيك تيها ، قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة ، وتلا هذه الآية.

[سورة المنافقون (63) : آية 9]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (9)

(1). هكذا أورده الثعلبي موصولا بالحديث الذي قبله.
(2). ذكره الثعلبي موصولا بالذي قبله. وأخرجه الطبري من رواية إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن بشر بن مسلم «أنه قيل لعبد اللّه بن أبى : يا أبا الحباب : إنه أنزل آي شداد ، فاذهب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - فذكره أخصر منه.

لا تُلْهِكُمْ لا تشغلكم أَمْوالُكُمْ والتصرف فيها : والسعى في تدبير أمرها : والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاغتلال ، وابتغاء النتاج والتلذذ بها ، والاستمتاع بمنافعها وَلا أَوْلادُكُمْ وسروركم بهم ، وشفقتكم عليهم ، والقيام بمؤنهم ، وتسوية ما يصلحهم من معايشهم في حياتكم وبعد مماتكم ، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد ، وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند اللّه عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وإيثاره عليها وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يريد الشغل بالدنيا عن الدين فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني. وقيل : ذكر اللّه الصلوات الخمس. وعن الحسن : جميع الفرائض ، كأنه قال : عن طاعة اللّه. وقيل : القرآن. وعن الكلبي : الجهاد مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

[سورة المنافقون (63) : الآيات 10 إلى 11]

وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (11)

من في مِمَّا رَزَقْناكُمْ للتبعيض ، والمراد : الإنفاق الواجب مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ من قبل أن يرى دلائل الموت ، ويعاين ما بيأس معه من الإمهال ، ويضيق به الخناق ، ويتعذر عليه الإنفاق ويفوت وقت القبول ، فيتحسر على المنع ، ويعضّ أنا مله على فقد ما كان متمكنا منه. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : تصدّقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت ، فلا تقبل توبة ، ولا ينفع عمل. وعنه : ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكى ، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت ، فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها. وعنه : أنها نزلت في ما نعى الزكاة ، وو اللّه لو رأى خيرا لما سأل الرجعة ، فقيل له : أما تتقى اللّه ، يسأل المؤمنون الكرة؟ قال : نعم ، أنا أقرأ عليكم به قرآنا ، يعنى : أنها نزلت في المؤمنين وهم المخاطبون بها ، وكذا عن الحسن : ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج إلا سأل الرجعة. وعن عكرمة أنها نزلت في أهل القبلة لَوْلا أَخَّرْتَنِي. وقرئ : أخرتن ، يريد: هلا أخرت موتى إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ إلى زمان قليل فَأَصَّدَّقَ وقرأ أبىّ : فأتصدق على الأصل. وقرئ : وأكن ، عطفا على محل فَأَصَّدَّقَ كأنه قيل. إن أخرتنى أصدّق وأكن ومن قرأ : وأكون على النصب ، فعلى اللفظ. وقرأ عبيد بن عمير : وأكون ، على : وأنا أكون عدة منه بالصلاح وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نفى للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه منافاة المنفي الحكمة. والمعنى : إنكم إذا علمتم أنّ تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه. وأنه هاجم لا محالة ، وأنّ اللّه عليم بأعمالكم فجاز عليها ، من منع واجب وغيره : لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات والاستعداد للقاء اللّه. وقرئ : تعملون ، بالتاء والياء. عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المنافقين بريء من النفاق» «1».

سورة التغابن

مختلف فيها ، وهي ثمان عشرة آية [نزلت بعد التحريم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التغابن (64) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (4)

قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد باللّه عز وجل ، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له، لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه ، والقائم به ، والمهيمن عليه ، وكذلك الحمد ، لأنّ أصول النعم وفروعها منه. وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء ، وحمده اعتداد بأن نعمة اللّه جرت على يده هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ يعنى : فمنكم آت بالكفر وفاعل له «2»

(1). أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب.
(2). قوله «فمنكم آت بالكفر وفاعل له» قد أول الآية بمذهب المعتزلة : من أن العبد هو الخالق لفعله الاختياري ، ومذهب أهل السنة : أن العبد ليس له في فعله إلا الكسب ، وخالقه في الحقيقة هو اللّه عز وجل ، بدليل قوله تعالى وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ خيرا كان أو شرا ، وكما أن خلق الكافر لا يستوجب الذم كما سيقول فخلق كفره لا يستوجب الذم لأنه لحكمة وإن خفيت علينا. (ع)

ومنكم آت بالإيمان «1» وفاعل له ، كقوله تعالى وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ والدليل عليه قوله تعالى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أى عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم ، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح ، وتكونوا بأجمعكم عبادا شاكرين ، فما فعلتم مع تمكنكم ، بل تشعبتم شعبا ، وتفرقتم أمما ، فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم. وقيل : هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ، ومنكم مؤمن به.

فإن قلت : نعم ، إن العباد هم الفاعلون للكفر ، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره ، فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم؟ وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيفا باترا لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرّمة فقتل به مؤمنا؟ أما يطبق العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدق في فروته «2» كما يذمون القاتل؟ بل إنحاؤهم باللوائم على الواهب أشد؟ قلت : قد علمنا أنّ اللّه حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه ، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة ، وخلق فاعل القبيح فعله ، فوجب أن يكون حسنا ، وأن يكون له وجه حسن ، وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه ، كما لا يقدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها بِالْحَقِّ بالغرض الصحيح والحكمة البالغة ، وهو أن جعلها مقارّ المكلفين ليعملوا فيجازيهم وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وقرئ : صوركم بالكسر ، لتشكروا. وإليه مصيركم فجزاؤكم على الشكر والتفريط فيه. فإن قلت. كيف أحسن صورهم؟ قلت : جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور.

(1). قال محمود : «معناه : فمنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكم آت بالايمان ... الخ» قال أحمد : لقه ركب عمياء وخبط خبط عشواء ، واقتحم وعرا : السالك فيه هالك ، والغابر فيه عاثر ، وإنما ينصب إلى مهاوي الأراك ، ويحوم حول مراتع الاشراك ، ويبحث ولكن على حتفه بظلفه ، ويتحذق وما هو إلا يتشدق ، ويتحقق وما هو إلا يتفسق ، وهب أنه أعرض عن الأدلة العقلية والنصوص النقلية المتظافرة على أن اللّه تعالى خالق كل شيء ، واطرد له في الشاهد ما ادعاه. ومن مذهبه قياس الغائب على الشاهد ، قد التجأ إلى الاعتراف بأن اللّه خالق العبد الفاعل للقبيح ، وأن خلق العبد الفاعل للقبيح بمثابة إعطاء السيف الباتر للرجل الفاجر ، وأن هذا قبيح شاهدا ، ولا يلزم أن يكون مثله قبيحا في خلق اللّه تعالى ، أفلا يجوز أن يكون منطويا على حكمة استأثر اللّه تعالى بعلمها ، فما يؤمنه من دعوى أن أفعال العبد وإن استقبحها العقلاء مخلوقة للّه تعالى ، وفي خلقها حكمة استأثر اللّه بعلمها ، وهل الفرق إذا إلا عين التحكم، ونفس اتباع الهوى. هذا ودون تمكنه من اتباع هذه القواعد : أن يمكن من القتاد اختراط ، ومن الجمل أن يلج في سم الخياط.
(2). قوله «و الدق في فروته» في الصحاح «الفروة» : جلدة الرأس. والفروة : قطعة نبات مجتمعة يابسة اه. (ع)

ومن حسن صورته أنه خلق منتصبا غير منكب ، كما قال عز وجل فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. فإن قلت : فكم من دميم مشوّه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون؟ قلت : لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب ، فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطا بينا وإضافتها إلى الموفى «1» عليها لا تستملح ، وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه. ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك ، وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها. وقالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما : الجمال ، والبيان. نبه بعلمه ما في السماوات والأرض ، ثم بعلمه ما يسره العباد ويعلنونه ، ثم بعلمه ذوات الصدور : أنّ شيئا من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ولا عازب عنه ، فحقه أن يتقى ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه. وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد ، وكل ما ذكره بعد قوله تعالى فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ كما ترى في معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق «2» ويجعله من جملته ، والخلق : أعظم نعمة من اللّه على عباده ، والكفر : أعظم كفران من العباد لربهم.

[سورة التغابن (64) : الآيات 5 إلى 6]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (5) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ الخطاب لكفار مكة. وذلِكَ إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعدّلهم من العذاب في الآخرة بِأَنَّهُ بأنّ الشأن والحديث كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ ..... أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا أنكروا أن تكون الرسل بشرا ، ولم ينكروا أن يكون اللّه حجرا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ أطلق ليتناول كل شيء ، ومن جملته إيمانهم وطاعتهم. فإن قلت : قوله وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ يوهم وجود التولي والاستغناء معا «3» ، واللّه تعالى لم يزل غنيا. قلت : معناه : وظهر استغناء اللّه حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك.

(1). قوله «و إضافتها إلى الموفى عليها» يعنى إلى المتفوق عليها من الصور. (ع)
(2). قوله «فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق» يريد أهل السنة ، حيث يقولون أنه تعالى هو الخالق لأعمال العباد حتى الكفر وغيره من المعاصي ، ولا وجه لتجهيلهم مع استنادهم إلى قوله تعالى «و اللّه خلقكم وما تعملون. (ع)
(3). قال محمود : «أطلقه ليتناول كل شيء ثم قال فان قلت كان التولي فيهم ... الخ» قال أحمد : إنما الحق أنه لم يخلق لهم إيمانا ولا قدرة عليه ، فكان قادرا أن يخلق لهم الايمان والقدرة عليه ، وإنما حرفها الزمخشري إلى قاعدته. [.....]

[سورة التغابن (64) : الآيات 7 إلى 8]

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

الزعم : ادعاء العلم : ومنه قوله عليه السلام «زعموا مطية الكذب» «1» وعن شريح : الكل شيء كنية وكنية الكذب «زعموا» ويتعدّى إلى المفعولين تعدّى العلم. قال : ... ولم أزعمك عن ذاك معزلا «2»

وإن مع ما في حيزه قائم مقامهما. والذين كفروا. أهل مكة. وبَلى إثبات لما بعد لن ، وهو البعث وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أى لا يصرفه عنه صارف. وعنى برسوله والنور : محمدا صلى اللّه عليه وسلم والقرآن.

[سورة التغابن (64) : الآيات 9 إلى 10]

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10)

وقرئ : نجمعكم. ونكفر. وندخله ، بالياء والنون. فإن قلت : بم انتصب الظرف؟ قلت بقوله : لتنبؤن ، أو بخبير، لما فيه من معنى الوعيد ، كأنه قيل : واللّه معاقبكم يوم يجمعكم. أو بإضمار «اذكر» لِيَوْمِ الْجَمْعِ ليوم يجمع فيه الأوّلون والآخرون. التغابن : مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضا ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها

(1). لم أجده مرفوعا بهذا اللفظ وقد تقدم في أوائل البقرة بلفظ «بئس مطية الرجل إلى الكذب زعموا» وقد تقدم عن شريح «زعموا كنية الكذب».
(2) وإن الذي قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلا
يقول : وإن كل حي وإن طال عمره يموت ، ولم أظنك يا أم مالك معزالا عن ذلك الحكم أو الموت. والمعزل : مكان العزلة والانفراد ، أى : لم أظنك في معزل عنه أو ذات معزل أو معتزلة. أو نفس المقول مبالغة.

وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ، ليزداد حسرة» «1» ومعنى ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ - وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم - : استعظام له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة ، لا التغابن في أمور الدنيا وإن جلت وعظمت صالِحاً صفة للمصدر ، أى : عملا صالحا.

[سورة التغابن (64) : آية 11]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ إلا بتقديره ومشيئته ، كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه يَهْدِ قَلْبَهُ يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. وقيل : هو الاسترجاع عند المصيبة. وعن الضحاك : يهد قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن مجاهد : إن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر ، وإن ظلم غفر. وقرئ. يهد قلبه ، على البناء للمفعول ، والقلب : مرفوع أو منصوب. ووجه النصب : أن يكون مثل سفه نفسه ، أى : يهد في قلبه. ويجوز أن يكون المعنى : أنّ الكافر ضال عن قلبه بعيد منه ، والمؤمن واجد له مهتد إليه ، كقوله تعالى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ وقرئ : نهد قلبه ، بالنون. ويهد قلبه ، بمعنى : يهتد. ويهدأ قلبه : يطمئن.

ويهد. ويهدا على التخفيف وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم ما يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه ويمنعه.

[سورة التغابن (64) : الآيات 12 إلى 13]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13)

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فلا عليه إذا توليتم ، لأنه لم يكتب عليه طاعتكم ، إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين فحسب وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ بعث لرسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم على التوكل عليه والتقوّى به في أمره ، حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه.

[سورة التغابن (64) : الآيات 14 إلى 15]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)

(1). رواه البخاري من رواية الأعرج عن أبى هريرة : وفي المتفق عليه من حديث أنس في قصة المؤمن ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك اللّه به مقعدا من الجنة. قال نبى اللّه : فيراهما جميعا ، ولها عن ابن عمر «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى - الحديث».

إنّ من الأزواج أزواجا يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم ويجلبن عليهم ، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى فَاحْذَرُوهُمْ الضمير للعدوّ أو للأزواج والأولاد جميعا. أى : لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدوّ ، فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم وَإِنْ تَعْفُوا عنهم إذا اطلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ، فإن اللّه يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم. وقيل : إنّ ناسا أرادوا الهجرة عن مكة ، فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا : تنطلقون وتضيعوننا فرقوا لهم ووقفوا ، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين : أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم ، فزين لهم العفو. وقيل : قالوا لهم : أين تذهبون وتدعون

وفي الحديث «يؤتى برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته» «1» وعن بعض السلف : العيال سوس الطاعات. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يخطب ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فنزل إليهما فأخذهما «2» ووضعهما في حجره على المنبر فقال : «صدق اللّه نَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما» ثم أخذ في خطبته. وقيل : إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتننكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما.

[سورة التغابن (64) : آية 16]

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)
مَا اسْتَطَعْتُمْ جهدكم ووسعكم ، أى : ابذلوا فيها استطاعتكم وَاسْمَعُوا ما توعظون به وَأَطِيعُوا فيما تأمرون به وتنهون عنه وَأَنْفِقُوا في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها

(1). لم أره مرفوعا : وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري من قوله. وروى على بن معبد في الطاعة والمعصية عن إسحاق بن أبى يحيى عن عبد الملك عن بكير قال «ينادى مناد يوم القيامة : أين الذين أكلت عيالهم حسناتهم قوموا فان قبلكم الانبعاث».
(2). أخرجه أصحاب السنن وابن جبان والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار من روايه حسين بن واقد عن ابن بريدة عن أبيه. قال البزار لا نعلم له طريقا إلا هذا.

خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ نصب بمحذوف ، تقديره : ائتوا خيرا لأنفسكم ، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع ، وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر ، وبيان لأنّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

[سورة التغابن (64) : الآيات 17 إلى 18]

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(18)

وذكر القرض : تلطف في الاستدعاء يُضاعِفْهُ لَكُمْ يكتب لكم بالواحدة عشرا وأو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة. وقرئ : يضعفه شَكُورٌ مجاز ، أى : يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب ، وكذلك حَلِيمٌ يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء ، فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة» «1».

سورة الطلاق

مدنية ، وهي إحدى عشرة ، أو اثنتا عشرة ، أو ثلاث عشرة آية [نزلت بعد الإنسان] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
[سورة الطلاق (65) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1) فَإِذا بَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (3)

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى الله عنه.

خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب «1» ، لأنّ النبي إمام أمّته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، إظهارا لتقدّمه واعتبارا لترؤسه ، وأنه مدرة قومه «2» ولسانهم ، والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدّون بأمر دونه ، فكان هو وحده في حكم كلهم ، وسادّا مسدّ جميعهم. ومعنى إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ إذا أردتم تطليقهنّ وهممتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه : كقوله عليه السلام «من قتل قتيلا فله سلبه» «3» ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها في حكم المصلى فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ فطلقوهن مستقبلات لعدتهن «4» ، كقولك : أتيته لليلة بقيت من المحرم ، أى : مستقبلا لها. وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : في قبل عدّتهنّ ، وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأوّل من أقرائها ، فقد طلقت مستقبلة لعدتها. والمراد : أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه «5» ، ثم يخلين حتى تنقضي عدّتهنّ ، وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده من الندم ،

(1). قال محمود : «خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب ... الخ» قال أحمد : وعلى هذا الفرق جرى قوله تعالى حكاية عن فرعون : قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى فأفرد موسى عليه السلام بالنداء ، لأنه كان أجل الاثنين عليهما السلام وعمهما بالخطاب. وقد تقدم فيه وجه آخر.
(2). قوله «و أنه مدرة قومه» في الصحاح العرب تسمى القرية مدرة اه ، فالمعنى أنه بمنزلة القرية لقومه. (ع)
(3). متفق عليه. وقد تقدم في أوائل البقرة.
(4). قال محمود : «و معنى فطلقوهن مستقبلات لعدتهن ... الخ» قال أحمد : حمل القراءتين المستفيضة والشاذة على أن وقت الطلاق هو الوقت الذي تكون العدة مستقبلة بالنسبة إليه ، وادعى أن ذلك معنى المستقبل فيها ، ونظر اللام فيها باللام في قولك مؤرخا الليلة. الليلة بقيت من المحرم ، وإنما يعنى أن العدة بالحيض : كل ذلك تحامل لمذهب أبى حنيفة في أن الأقراء الحيض ، ولا يتم له ذلك ، فقد استدل أصحابنا بالقراءة المستفيضة ، وأكدوا الدلالة بالشاذة على أن الأقراء الأطهار. ووجه الاستدلال لها على ذلك : أن الله تعالى جعلى العدة - وإن كانت في الأصل مصدرا - ظرفا الطلاق المأمور به. وكثيرا ما تستعمل العرب المصادر ظرفا ، مثل خفوق النجم ومقدم الحاج. وإذا كانت العدة ظرفا للطلاق المأمور به ، وزمانه هو الطهر وفاقا ، فالطهر عدة إذا. ونظير اللام هنا على التحقيق : اللام في قوله يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي وإنما تمنى أن لو عمل عملا في حياته ، وقراءته عليه السلام : في قبل عدتهن ، تحقق ذلك. فان قيل. الشيء جزء منه وداخل فيه وفي صفة مسح الرأس فأقبل بهما وأدبر ، أى مسح قبل الرأس وهو مقدمها ، فحينئذ قبل العدة جزء منها وهو الطهر.
(5). قال محمود : «و المراد أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ... الخ» قال أحمد : الأمر كما نقله ، وضابط السنة عند مالك : أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه واحدة وهي غير معتدة. والآية تدل لمذهبه على تأويل المتقدمين جميعا ، أما على تأويل الزمخشري وتفسيره المقيد بالاستقبال ، فلأن الطلاق المأمور به أى المأذون فيه في الآية :
مقيد بوقت تكون العدة مستقبلة بالنسبة إليه ، وهذا يأبى وقوع الطلاق في أثناء العدة الماضي بعضها. وأما على تأويلنا فلأنه مقيد بزمان يكون أولا للعدة وقبلا لها ، وهذا يأبى من وقوعه مرادفا في الطهر الثاني والثالث ، غير أن البدعة عند مالك تتفاوت ، فلا جرم قال إن طلقها في الحيض أجبر على الرجعة ، فإن أبى ارتجع عليه الحاكم ، وإن طلقها في طهر مسها فيه أو أردف الطلاق لم يجبره،

ويدل عليه ما روى عن إبراهيم النخعي أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدّة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثا في ثلاثة أطهار. وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة.

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفرقا في الأطهار فلا ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : ما هكذا أمرك الله ، إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا ، وتطلقها لكل قرء تطليقة «1» وروى أنه قال لعمر : مر ابنك فليراجعها،

فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة؟ قلت : نعم ، وهو آثم ، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّ رجلا طلق امرأته ثلاثا بين يديه ، فقال ، أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم».

وفي حديث ابن عمر أنه قال : يا رسول الله ، أرأيت لو طلقتها ثلاثا ، فقال له : إذن عصيت وبانت منك امرأتك «4».

(1). أخرجه الدارقطني من رواية عطاء الخراساني عن الحسن عن ابن عمر به ، وأتم منه.
(2). متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.
(3). لم أره هكذا. وإنما رواه النسائي من رواية مخرمة بن بكير عن أبيه عن محمود بن لبيد «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا. فقام غضبان ثم قال : أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ، ألا نقتله؟». [.....]
(4). هو في آخر الحديث الثاني عند الدارقطني ولفظه «فقلت : يا رسول الله ، أفرأيت لو طلقتها أثلاثا أكان يحل لي أن أراجعها؟ قال: لا. كانت تبين منك ، وكانت معصية» واللفظ الذي في الكتاب موقوف. في الصحيح على ابن عمر رضى الله عنهما.

وعن عمر رضى الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثا إلا أوجعه ضربا. وأجاز ذلك عليه «1». وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين : أنّ من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلث لم يقع ، وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف. فإن قلت : كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها؟ قلت : الصغيرة والآيسة والحامل كلهن عند أبى حنيفة وأبى يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر ، وخالفهما محمد وزفر في الحامل فقالا : لا تطلق للسنة إلا واحدة. وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ، ولا يراعى الوقت. فإن قلت : هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة؟ قلت : اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا. والظاهر الكراهة. فإن قلت : قوله إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الأقراء والآيسات والصغائر والحوامل ، فكيف صحّ تخصيصه بذوات الأقراء المدخول بهن؟ قلت : لا عموم ثم ولا خصوص ، ولكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس ، وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن وفي بعضهن ، فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك ، فلما قيل فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ علم أنه أطلق على بعضهنّ وهنّ المدخول بهن من المعتدات بالحيض وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ واضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن «2» لا تُخْرِجُوهُنَّ حتى تنقضي عدتهنّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ من مساكنهنّ التي يسكنها قبل العدة، وهي بيوت الأزواج ، وأضيفت إليهنّ لاختصاصها بهنّ من حيث السكنى. فإن قلت : ما معنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن «3»؟ قلت : معنى الإخراج «4» : أن لا يخرجهن البعولة غضبا عليهن وكراهة لمساكنتهن ، أو لحاجة لهم إلى المساكن ، وأن لا يأذنوا لهنّ في الخروج إذا طلبن ذلك ، إيذانا بأنّ إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ قرئ بفتح الياء وكسرها.

قيل : هي الزنا ، يعنى إلا أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهن وقيل : إلا أن يطلقن على النشوز ، والنشوز يسقط حقهنّ في السكنى. وقيل : إلا أن يبذون «5»

(1). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من رواية شقيق بن عبد الله عن أنس قال : كان عمر رضى الله عنه إذا أتى برجل طلق امرأته ثلاثا في مجلس أوجعه ضربا. وفرق بينهما».
(2). قال محمود : «معناه أكملوا العدة أقراء ثلاثة مستوفاة» قال أحمد : وقوله وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ توطئة لقوله لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ حتى كأنه نهى عن الإخراج مرتين : مندرجا في العموم ، ومفرد بالخصوص. وقد تقدمت أمثاله.
(3). قوله «بين إخراجهم أو خروجهن» لعله : وخروجهن. (ع)
(4). قوله «قلت : معنى الإخراج» الأولى : معنى الجمع بينهما ، وإلا فالأولى فيما يأتى ، ومعنى الخروج : أن لا يخرجن بأنفسهن. (ع)
(5). قوله «و قيل إلا أن يبذون» في الصحاح : البذاءة - بالمد : الفحش ، تقول : بذوت على القوم وأبذيت ، وقد بذو الرجل. (ع)

فيحل إخراجهنّ لبذائهنّ ، وتؤكده قراءة أبىّ : إلا أن يفحشن عليكم. وقيل : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه. الأمر الذي يحدثه الله : أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها. ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها. والمعنى : فطلقوهنّ لعدتهن وأحصوا العدة ، لعلكم ترغبون وتندمون فتراجعون فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ وهو آخر العدة وشارفنه ، فأنتم بالخيار : إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار وهو أن يراجعها في آخر عدتها ثم يطلقها تطويلا

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، وطريقه الأحسن والأبعد من الندم ، ويكون المعنى : ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجاً مما في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ، ويفرج عنه وينفس ويعطه الخلاص وَيَرْزُقْهُ من وجه لا يخطره بباله ولا يحتسبه إن أو في المهر وأدى الحقوق والنفقات وقل ماله. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عمن طلق ثلاثا أو ألفا ، هل له من مخرج؟

فتلاها «1». وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال : لم تتق الله فلم يجعل لك مخرجا ، بانت منك بثلاث والزيادة إثم في عنقك. ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ يعنى : ومن يتق الله يجعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال :

(1). أخرجه الدارقطني والطبراني وابن مردويه من طريق عبيد الله بن الوليد وغيره عن إبراهيم بن عبد الله ابن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده. قال «طلق بعض آبائي امرأته ألفا فانطلق بنوه ، فقالوا : يا رسول الله إن أبانا طلق أمنا ألفا. فهل له مخرج. فقال : إن أباكم لم يتق الله فيجعل له مخرجا - الحديث» وفي إسناده جماعة من الضعفاء. رواه إسحاق في مسنده عن ابن إدريس عن عبيد الله بن الوليد عن داود بن إبراهيم عن عبادة بن الصامت كذا قال.

مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة «1». وقال عليه السلام : إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ...

فما زال يقرؤها ويعيدها «2». وروى أنّ عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنا له يسمى سالما. فأتى رسول الله فقال : أسر ابني وشكا إليه الفاقة ، فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا مدّ فاتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوّة إلا بالله ، ففعل فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها ، فنزلت هذه الآية «3» بالِغُ أَمْرِهِ أى يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب. وقرئ : بالغ أمره بالإضافة ، وبالغ أمره : بالرفع ، أى : نافذ أمره وقرأ المفضل : بالغا أمره ، على أنّ قوله قَدْ جَعَلَ اللَّهُ خبر إن ، وبالغا حال قَدْراً تقديرا وتوقيتا. وهذا بيان لوجوب التوكل على الله «4» ، وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أنّ كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته : لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل.

(1). أخرجه الثعلبي والواحدي من رواية سعيد بن راشد عن عبد الله بن سعيد بن أبى هند عن زيد بن أسلم عن عطاء عن ابن عباس به مرفوعا. ورواه أبو نعيم موقوفا على قتادة في ترجمته في الحلية.
(2). أخرجه أحمد في الزهد وابن ماجة وابن حبان والحاكم من طريق ابن السلبل حزيب بن مغير عن أبى ذر مرفوعا
(3). أخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال «جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكره نحوه. ولم يسم الابن ، لكن قال : أنه أحضر أربعة آلاف شاة ورواه البيهقي في الدلائل من طريق أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه نحوه. وفيه فلم يلبث الرجل أن رد الله عليه ابنه وإبله أو فر ما كانت. فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأمرهم بمسألة الله والرغبة إليه. وقرأ عليهم وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ - الآية وروى الحاكم من طريق سالم بن الجعد عن جابر قال «نزلت هذه الآية في رجل من أشجع كان فقيرا خفيف ذات اليد كثير العيال ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله. فقال : اتق الله واصبر ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له بغنم كان العدو أصابها. فذكره مختصرا. وفيه عبيد بن كثير تركه الأزدى وعباد عن يعقوب. وهو رافضي.
(4). قال محمود : «قوله بالِغُ أَمْرِهِ بيان لوجوب التوكل على الله ، وتفويض الأمر إليه ... الخ» قال أحمد :
ليس بعشك فادرجى أيراه القدري ، وأين التسليم للقدر وليس هذا دينه ولا معتقده من تقسيم الحوادث ثلاثة أقسام :
فمنها ما يريد الله تعالى وجوده وهو المأمورات ولا يقع أكثر مراده منها ، ومنها ما يريد عدمه وهو المنهيات فيوجد أكثرها على خلاف مراده ، ومنها ما لا يريد عدمه ولا وجوده فان وجد فبغير إرادته عز وجل وإن عدم فكذلك فيتحصل من هذا الهذيان الذي لا يتصور أن الكائنات إنما تتبع إرادة الخلق لأنها لا تقع إلا بها ، فان واقت إرادة الله تعالى فليس وقوعها تابعا لها لأنها وقعت بدونها ، وإن خالفت إرادة الله تعالى لم يكن لمخالفتها للارادة الربانية تأثير في منع وقوعها ، فمن يتوغل في أدغال هذا الضلال كيف له بالتوكل الذي يتوقف على اعتقاد أن الكائنات جميعها إنما تتوقف على إرادة الله عز وجل ، فمهما أراده وقع ، ومهما لم يرده لم يقع ، شاء العبد أو أبى ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والعبد مجرى لحدوث الكائنات الواقعة بقدرة الله تعالى وإرادته لا غير ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، فما القدري من هذا المقام الشريف إلا على مراحل لا يقربه إليها إلا راحلة الانصاف وزاد التقوى ودليل التوفيق ، والله حسبنا ونعم الوكيل.

[سورة الطلاق (65) : الآيات 4 إلى 5]

وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4) ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (5)

روى أنّ ناسا قالوا : قد عرفنا عدة ذوات الأقراء ، فما عدة اللائي لا يحضن ، فنزلت : فمعنى إِنِ ارْتَبْتُمْ : إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن فهذا حكمهنّ ، وقيل : إن ارتبتم في ذم البالغات مبلغ اليأس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين ، أهو دم حيض أو استحاضة؟

فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها ، فغير المرتاب بها أولى بذلك وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ هن الصغائر. والمعنى : فعدتهن ثلاثة أشهر ، فحذف لدلالة المذكور عليه. اللفظ مطلق في أولات الأحمال ، فاشتمل على المطلقات والمتوفى عنهن. وكان ابن مسعود وأبىّ وأبو هريرة وغيرهم لا يفرقون. وعن على وابن عباس: عدة الحامل المتوفى عنها أبعد الأجلين «1». وعن عبد اللّه : من شاء لا عنته أنّ سورة النساء القصرى نزلت بعد التي في البقرة «2» ، يعنى : أنّ هذا اللفظ مطلق في الحوامل. وروت أم سلمة أنّ سبيعة الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال ، فذكرت ذلك لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال لها : قد حللت فانكحي «3» يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ييسر له من أمره ويحلل له من عقده بسبب التقوى ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ يريد ما علم من حكم هؤلاء المعتدات. والمعنى : ومن يتق اللّه في العمل بما أنزل اللّه من هذه الأحكام وحافظ على الحقوق الواجبة عليه مما ذكر من الإسكان وترك الضرار والنفقة على الحوامل وإيتاء أجر المرضعات وغير ذلك : استوجب تكفير السيئات والأجر العظيم.

[سورة الطلاق (65) : الآيات 6 إلى 7]

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (7)

(1). رواه البخاري في صحيحه قال : «جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة عنده. فقال : أفتنى في امرأة ولدت بعد وفاة زوجها بأربعين ليلة. فقال ابن عباس آخر الأجلين وفيه قصة سبيعة. وفيه مخالفة أبى هريرة له في ذلك رواه ابن أبى شيبة عن وكيع عن إسماعيل عن الشعبي قال قال عبد اللّه «أجل كل حامل حتى تضع» وكان على يقول «آخر الأجلين» وله طريق أخرى عنده موصولة من طريق عبيد بن الحسن عن عبد الرحمن بن معقل قال «شهدت عليا رضى اللّه عنه ... فذكره نحوه.
(2). أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة من طريق مسروق لم يذكر البخاري أوله. وزاد عبد الرزاق أنه قال ذلك لما بلغه أن عليا قال «هي في آخر الأجلين».
(3). متفق عليه وله طرق وألفاظ. وفي رواية البخاري «فوضعت بعد موته بأربعين ليلة». [.....]

أَسْكِنُوهُنَّ وما بعده : بيان لما شرط من التقوى في قوله وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات؟ فقيل : أسكنوهن. فإن قلت : من في مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ما هي؟ قلت : هي من التبعيضية مبعضها محذوف «1» معناه : أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم ، أى بعض مكان سكناكم ، كقوله تعالى يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ أى بعض أبصارهم. قال قتادة : إن لم يكن إلا بيت واحد ، فأسكنها في بعض جوانبه. فإن قلت : فقوله مِنْ وُجْدِكُمْ؟ «2» قلت : هو عطف بيان لقوله مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ وتفسير له ، كأنه قيل : أسكنوهن مكانا من مسكنكم مما تطيقونه. والوجد : الوسع والطاقة. وقرئ بالحركات الثلاث. والكنى والنفقة : واجبتان لكل مطلقة. وعند مالك والشافعي : ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها. وعن الحسن وحماد : لا نفقة لها ولا سكنى ، لحديث فاطمة بنت قيس : أن زوجها أبت طلاقها «3» ، فقال لها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا سكنى لك ولا نفقه «4». وعن عمر رضى اللّه عنه : لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها : سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «لها السكنى والنفقة» «5» وَلا تُضآرُّوهُنَّ ولا تستعملوا معهن الضرار لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ في المسكن ببعض الأسباب : من إنزال من لا يوافقهن ، أو يشغل مكانهن ، أو غير ، ذلك ، حتى تضطروهن إلى الخروج. وقيل : هو أن يراجعها إذا بقي من عدتها يومان ليضيق عليها أمرها.

(1). قوله «مبعضها محذوف معناه» قد يقال : مبعضها هو مدخولها ، وهو حَيْثُ سَكَنْتُمْ بمعنى مكان سكناهم فلا حذف ، إلا أن يراد بمبعضها البعض المدلول عليه بها. (ع)
(2). قوله «فان قلت فقوله من وجدكم» لعل عقبه سقطا تقديره. ما موقعه؟ (ع)

(3). قوله «أن زوجها أبت طلاقها» لعله «بت» كما في النسفي. (ع)
(4). أخرجه مسلم من طرق عنها. وفي رواية «فلم يجعل لها سكنى ولا نفقة» وفي رواية «لا نفقة لك ولا سكنى» وفي رواية «طلقني زوجي ثلاثا».
(5). أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من طريق أبى إسحاق قال «كنت مع الأسود ومعنا الشعبي في المسجد إذ حدث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس. فأخذ الأسود كفا من حصا فحصبه به وقال : يا ويلك تحدث بمثل هذا؟
قال عمر : لا نترك كتاب ربنا وسغة نبينا لقول امرأة لعلها حفظت أو نسيت.

وقيل : هو أن يلجئها إلى أن تفتدى منه. فإن قلت : فإذا كانت كل مطلقة عندكم تجب لها النفقة ، فما فائدة الشرط في قوله وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ «1» قلت : فائدته أن مدة الحمل ربما طالت فظن ظانّ أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحائل ، فنفى ذلك الوهم. فإن قلت : فما تقول في الحامل المتوفى عنها؟ قلت : مختلف فيها ، فأكثرهم على أنه لا نفقة لها ، لوقوع الإجماع على أنّ من أجبر الرجل على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن ينفق عليه من ماله بعد موته ، فكذلك الحامل. وعن على وعبد الله وجماعة : أنهم أوجبوا نفقتها فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ يعنى هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولدا من غيرهنّ أو منهنّ بعد انقطاع عصمة الزوجية فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ حكمهنّ في ذلك حكم الأظآر «2» ، ولا يجوز عند أبى حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبنّ. ويجوز عند الشافعي. الائتمار بمعنى التآمر ، كالاشتوار بمعنى التشاور. يقال : ائتمر القوم وتآمروا ، إذا أمر بعضهم بعضا. والمعنى : وليأمر بعضكم بعضا، والخطاب للآباء والأمهات بِمَعْرُوفٍ بجميل وهو المسامحة ، وأن لا يماكس الأب ولا تعاسر الأم ، لأنه ولدهما معا ، وهما شريكان فيه وفي وجوب الإشفاق «3» عليه وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى: سيقضيها غيرك «4» ، تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم ، وقوله لَهُ أى للأب ، أى : سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه لِيُنْفِقْ كل واحد من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه يريد :

(1). قوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ إلى قوله : وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ ... الآية.
قال أحمد : لا يخفى على المتأمل لهذه الأى أن المبتوتة غير الحامل لا نفقة لها ، لأن الآي سيقت لبيان الواجب ، فأوجب السكنى لكل معتدة تقدم ذكرها ولم يوجب سواها ، ثم استثنى الحوامل فخصهن بإيجاب النفقة لهن حتى يضعن حملهن ، وليس بعد هذا البيان بيان ، والقول بعد ذلك بوجوب النفقة لكل معتدة مبتوتة حاملا أو غير حامل لا يخفى منافرته لنظم الآية ، والزمخشري نصر مذهب أبى حنيفة فقال : فائدة تخصيص الحوامل بالذكر : أن الحمل ربما طال أمده فيتوهم متوهم أن النفقة لا تجب بطوله ، فخصت بالذكر تنبيها على قطع هذا الوهم ، وغرض الزمخشري بذلك أن يحمل التخصيص على هذه الفائدة ، كيلا يكون له مفهوم في إسقاط النفقة لغير الحوامل ، لأن أبا حنيفة يسوى بين الجميع في وجوب النفقة.
(2). قوله «في ذلك حكم الأظآر» الظئر : المرضع لولد غيرها ، والجمع : ظؤار ، بالضم. وظئور وأظآر ، كما في الصحاح. (ع)
(3). قوله «و في وجوب الإشفاق» كذا عبارة النسفي. (ع)
(4). قال محمود : «و في قوله وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى معاتبة للأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة ... الخ»
قال أحمد : وخص الأم بالمعاتبة لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو غير متمول ولا مضنون به في العرف ، وخصوصا في الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فانه المال المضنون به عادة ، فالأم إذا أجدى باللوم وأحق بالعتب ، والله أعلم.

ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات ، كما قال وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ وقرئ لينفق بالنصب ، أى شرعنا ذلك لينفق.

وقرأ ابن أبى عبلة : قدر سَيَجْعَلُ اللَّهُ موعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم ، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا.

[سورة الطلاق (65) : الآيات 8 إلى 11]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (8) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (10) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (11)
عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد حِساباً شَدِيداً بالاستقصاء والمناقشة عَذاباً نُكْراً وقرئ : نكرا منكرا عظيما ، والمراد : حساب الآخرة وعذابها ما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر ، وجيء به على لفظ الماضي ، كقوله تعالى وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ ، وَنادى أَصْحابُ النَّارِ ونحو ذلك ، لأنّ المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة ، وما هو كائن فكان قد. وقوله أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقبا» كأنه قال : أعد الله لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك يا أُولِي الْأَلْبابِ من المؤمنين لطفا في تقوى الله وحذر عقابه. ويجوز أن يراد إحصاء السيئات ، واستقصاؤها عليهم في الدنيا ، وإثباتها في صحائف الحفظة ،

(1). قوله تعالى رَسُولًا ذكر الزمخشري فيه ستة أوجه : إبدال الرسول عن الذكر لأن إنزاله في معنى إنزال الذكر ... الخ قال أحمد : وعلى هذين الوجهين الأخيرين يكون مفعولا ، إما بالفعل المحذوف أو بالمصدر. وعلى الأربعة المتقدمة بدلا. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

كأنه في نفسه شرف : إما لأنه شرف للمنزل عليه ، وإما لأنه ذو مجد وشرف عند اللّه ، كقوله تعالى عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ أو جعل لكثرة ذكره للّه وعبادته كأنه ذكر. أو أريد : ذا ذكر ، أى ملكا مذكورا في السماوات وفي الأمم كلها. أو دل قوله أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً على : أرسل فكأنه قيل : أرسل رسولا ، أو أعمل ذكرا في رسولا إعمال المصدر في المفاعيل ، أى : أنزل اللّه أن ذكر رسولا أو ذكره رسولا. وقرئ : رسول ، على : هو رسول. أنزله لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا بعد إنزاله ، أى : ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح : لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين ، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ. أو ليخرج الذين عرف منهم أنهم يؤمنون. قرئ : يدخله ، بالياء والنون قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً فيه معنى التعجب والتعظيم ، لما رزق المؤمن من الثواب.

[سورة الطلاق (65) : آية 12]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ مبتدأ وخبر. وقرئ : مثلهنّ بالنصب ، عطفا على سبع سماوات ، وبالرفع على الابتداء ، وخبره : من الأرض. قيل : ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه. وقيل : بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء كذلك ، والأرضون مثل السماوات يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ أى يجرى أمر اللّه وحكمه بينهن ، وملكه ينفذ فيهن. وعن قتادة : في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه. وقيل : هو ما يدبر فيهنّ من عجائب تدبيره. وقرئ : ينزل الأمر. وعن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق؟ قال : نعم. قال : فما الخلق؟ قال : إما ملائكة أو جنّ لِتَعْلَمُوا قرئ بالتاء والياء.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم : «من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» «1»

(1). أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب.

سورة التحريم

مدنية ، وتسمى سورة النبي صلى اللّه عليه وسلم وهي ثنتا عشرة آية [نزلت بعد الحجرات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التحريم (66) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : اكتمي عليّ ، وقد حرمت مارية على نفسي «1» ،

(1). «نقل الزمخشري في سبب نزولها أنه عليه السلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : اكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي ... الخ» قال أحمد : ما أطلقه الزمخشري في حق النبي صلى اللّه عليه وسلم تقول وافتراء ، والنبي صلى اللّه عليه وسلم منه براء ، وذلك أن تحريم ما أحله اللّه على وجهين : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه اللّه عز وجل ، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمة الايمان ، وإن صدر سلب المؤمن حكم الايمان واسمه. الثاني : الامتناع مما أحله عز وجل ، وحمل التحريم بمجرده صحيح ، لقوله وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ أى منعنا لا غير ، وقد يكون مؤكدا باليمين مع اعتقاد حله ، وهذا مباح صرف وحلال محض ، ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال ، فإذا علمت بون ما بين القسمين ، فعلى القسم الثاني تحمل الآية ، والتفسير الصحيح يعضده ، فان النبي صلى اللّه عليه وسلم حلف باللّه لا أقرب مارية ، ولما نزلت الآية كفر عن يمينه ، ويدل عليه : قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وقال مالك في المدونة : عن زيد بن أسلم إنما كفر النبي صلى اللّه عليه وسلم في تحريمه أم ولده ، لأنه حلف أن لا يقربها.
ومثله عن الشعبي ، وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح ، وإنما قيل له : لم تحرم ما أحل اللّه لك ، رفقا به وشفقة عليه ، وتنويها لقدره ولمنصبه صلى اللّه عليه وسلم : أن يراعى مرضات أزواجه بما يشق عليه ، جريا على ما ألف من لطف اللّه تعالى بنبيه ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ومن أجله خلقوا ، ليظهر اللّه كمال نبوته بظهور نقصانهم عنه ، والزمخشري قطعا لم يحمل التحريم على هذا الوجه ، لأنه جعله زلة ، فيلزمه أن يحمله على المحمل الأول ، ومعاذ اللّه وحاش للّه وإن آحاد المؤمنين يحاشى عن أن يعتقد تحريم ما أحل اللّه له ، فكيف لا يربأ بمنصب النبي عليه السلام عما يرتفع عنه منصب عامة الأمة ، وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على اللّه ورسوله ، وإطلاق القول من غير تحرير ، وإبراز الرأى الفاسد بلا تخمير ، نعوذ باللّه من ذلك ، وهو المسئول أن يجعل وسيلتنا إليه تعظيما لنبينا صلوات اللّه عليه ، وأن يجنبنا خطوات للشيطان ، ويقبلنا من عثرات اللسان ، آمين.

وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتى ، فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين «1». وقيل : خلا بها في يوم حفصة ، فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم «2» ، فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعا وعشرين ليلة في بيت مارية. وروى أن عمر قال لها : لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : راجعها فإنها صوّامة قوّامة ، وإنها لمن نسائك في الجنة «3». وروى أنه شرب عسلا في بيت زينب بنت جحش ، فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له : إنا نشم منك ريح المغافير ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يكره التفل ، فحرّم العسل «4» ، فمعناه لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ من ملك اليمين أو العسل. وتَبْتَغِي إما تفسير لتحرم. أو حال :

(1). لم أقف في شيء من الطرق على أن ذلك كان في بيت عائشة رضى اللّه عنها ، إلا فيما رواه ابن سعد عن الواقدي عن عمر بن عقبة عن شعبة هو مولى ابن عباس سمعت ابن عباس يقول «خرجت حفصة من بيتها. وكان يوم عائشة فدخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمارية القبطية بيت حفصة ، فجاءت حفصة والباب بحاف فدفعته حتى خرجت الجارية. فقالت حفصة : أما إني قد رأيت ما صنعت. فقال لها : اكتمي على وهي على حرام ، فانطلقت حفصة إلى عائشة فأخبرتها فأنزل اللّه تعالى يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ فأمر فكفر عن يمينه وحبس نساءه» وروى الطبراني في عشرة النساء وابن مردويه في التفسير عنه من طريق موسى بن جعفر بن أبى كثير بن عبد الرحمن عن عمر عن أبى بكر بن عبد الرحمن عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمارية القبطية بيت حفصة بنت عمر فوجدتها معه. فقالت : يا رسول اللّه في بيتي وتفعل هذا بى من دون نسائك قال : فإنها على حرام أن أمسها يا حفصة ، ألا أبشرك؟ فقالت : بلى. قال : يلي هذا الأمر من بعدي أبو بكر ويليه من بعده أبوك واكتمي هذا علي ، فخرجت حتى أتت عائشة فذكرت ذلك كله. وفيه قوله : وكان أدى السرور أن حرمها على نفسه ، فأنزل اللّه تعالى يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ وروى الطبراني من طريق الضحاك عن ابن عباس قال «دخلت حفصة على النبي صلى اللّه عليه وسلم في بيتها وهو يطأ مارية ، فقال لها لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة ، فان أباك يلي من بعد أبى بكر إذا أنا مت ، فذهبت حفصة فأخبرت عائشة. فقالت عائشة رضى اللّه عنها : لا أنظر إليك حتى تحرم مارية فحرمها. فأنزل اللّه الآية».
(2). أخرجه ابن إسحاق ومن طريقه ابن أبى خيثمة قال : أخبرنى بعض آل عمر قال «أصاب النبي صلى اللّه عليه وسلم جاريته القبطية أم ابراهيم في بيت حفصة وفي يومها. فعثرت حفصة على ذلك. فقالت : يا رسول اللّه ، لقد جئت أمرا ما جئته إلى أحد من

(3). لم أره هكذا ، وهو عند الحاكم وغيره بغير ذكر سببه ، وقال ابن سعد : أخبرنا زيد» وقال الحرث أخبرنا عفان قال : عن حماد عن أبى عمران الجونى عن قيس بن زيد أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم طلق حفصة ، فقال :
إن جبريل أتانى فقال لي : راجع حفصة فإنها صوامة قوامة ، وهي زوجتك في الجنة» وروى الحاكم من طريق الحسن بن أبى جعفر عن ثابت عن أنس نحوه وزاد تطليقة ، والحسن ضعيف. واختلف عليه فيه ، ورواه الطبراني والبزار من رواية الحسن المذكور عن عاصم عن عمار رضى اللّه عنه.
(4). متفق عليه من حديث عمر بدون قوله «يكره التفل» فعندهما «و كان يشتد عليه أن يوجد منه الريح».

أو استئناف ، وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ اللّه لأن اللّه عزّ وجل إنما أحلّ ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله ، فإذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة وَاللَّهُ غَفُورٌ قد غفر لك ما زللت فيه رَحِيمٌ قد رحمك فلم يؤاخذك به قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ فيه معنيان ، أحدهما : قد شرع اللّه لكم الاستثناء في أيمانكم ، من قولك : حلل فلان في يمينه ، إذا استثنى فيها. ومنه : حلا أبيت اللعن «1» ، بمعنى : استثن في يمينك إذا أطلقها ، وذلك أن يقول «إن شاء اللّه» عقيبها ، حتى لا يحنث. والثاني : قد شرع اللّه لكم تحلتها بالكفارة. ومنه قوله عليه السلام : «لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم» «2» وقول ذى الرمّة : قليلا كتحليل الألىّ «3»

فإن قلت : ما حكم تحريم الحلال؟ قلت : قد اختلف فيه ، فأبو حنيفة براه يمينا في كل شيء ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرّمه ، فإذا حرّم طعاما فقد حلف على أكله ، أو أمة فعلى وطئها ، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية ، وإن نوى الظهار فظهار ، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن «و كذلك إن نوى ثنتين وإن نوى ثلاثا فكما نوى ، وإن قال : نويت الكذب ديّن فيما بينه وبين اللّه تعالى ، ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء. وإن قال : كل حلال علىّ حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو ، وإلا فعلى ما نوى ، ولا يراه الشافعي يمينا. ولكن سببا في الكفارة في النساء وحدهنّ ، وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده. وعن أبى بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد رضى اللّه عنهم : أنّ الحرام يمين «4» وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعى. وعن على رضى اللّه عنه : ثلاث «5». وعن زيد : واحدة بائنة. وعن عثمان : ظهار.

(1). قوله «و منه : حلا أبيت اللعن» في الصحاح : يقال حلا ، أى استثنى. ويا حالف اذكر حلا ، وهو بالكسر أفاده الصحاح أيضا. (ع)
(2). أخرجه مسلم من حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.
(3). قوله «كتحليل الألى» في الصحاح «الالية» : اليمين على فعلية ، وكذلك الألوة والألوة ، فأما الألوة بالتشديد : فهو العود الذي يتبخر به اه ، فالألى في كلام ذى الرمة جمع الألوة بالتخفيف «كالمدية والمدى ، والخطوة والخطى. (ع)
(4). حديث أبى بكر رضى اللّه عنه أخرجه ابن أبى شيبة من رواية جويبر عن الضحاك : أن أبا بكر وعمر وابن مسعود قالوا : من قال لامرأته : هي على حرام ، فليست بحرام وعليه كفارة يمين. وإسناده ضعيف ومنقطع. وحديث عمر رضى اللّه عنه مثله ، وله طريق أخرى أخرجها ابن أبى شيبة أيضا من رواية خالد الحذاء عن عكرمة عنه قال «الحرام يمين» وهذا منقطع وحديث ابن عباس رضى اللّه عنهما مثله متفق عليه من رواية ابن جبير عنه قال : الحرام يمين يكفرها.
وفي رواية لمسلم «إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها». وحديث ابن مسعود مثله ، وله طريق أخرى أخرجها عبد الرزاق من طريق الطبراني عن ابن عقبة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عنه ، قال : في الحرام يمين يكفرها. ورجاله ثقات مع انقطاعه. وحديث زيد بن ثابت رضى اللّه عنه مثله.
(5). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن على في قول الرجل لامرأته :
أنت على حرام ، هي ثلاث. وهذا منقطع أيضا.

وكان مسروق لا يراه شيئا ويقول : ما أبالى أحرمتها أم قصعة من ثريد ، وكذلك عن الشعبي قال : ليس بشيء، محتجا بقوله تعالى وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ وقوله تعالى لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وما لم يحرّمه اللّه تعالى فليس لأحد أن يحرّمه ولا أن يصير بتحريمه حراما ، ولم يثبت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لما أحله اللّه : هو حرام علىّ ، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدّمت منه ، وهو قوله عليه السلام : واللّه لا أقربها بعد اليوم ، فقيل له : لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ أى لم تمتنع منه بسبب اليمين ، يعنى : أقدم على ما حلفت عليه ، وكفر عن يمينك. ونحوه قوله تعالى وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ أى ، منعناه منها. وظاهر قوله تعالى قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ أنه كانت منه يمين.

فإن قلت : هل كفر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لذلك؟ قلت : عن الحسن : أنه لم يكفر ، لأنه كان مغفورا له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر «1» ، وإنما هو تعليم للمؤمنين. وعن مقاتل : أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعتق رقبة في تحريم مارية وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ سيدكم ومتولى أموركم وَهُوَ الْعَلِيمُ بما يصلحكم فيشرعه لكم الْحَكِيمُ فلا

[سورة التحريم (66) : آية 3]

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3)

بَعْضِ أَزْواجِهِ حفصة. والحديث الذي أسر إليها : حديث مارية وإمامة الشيخين نبأت به أفشته إلى عائشة. وقرئ: أنبأت به وَأَظْهَرَهُ وأطلع النبي عليه السلام عَلَيْهِ على الحديث ، أى : على إفشائه على لسان جبريل. وقيل : أظهر اللّه الحديث على النبي صلى اللّه عليه وسلم من الظهور عَرَّفَ بَعْضَهُ أعلم ببعض الحديث تكرما. قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام. وقرئ : عرف بعضه ، أى : جاز عليه ، من قولك للمسيء : لأعرفن لك ذلك ، وقد عرفت ما صنعت. ومنه : أولئك الذين يعلم اللّه ما في قلوبهم ، وهو كثير في القرآن ، وكان جزاؤه تطليقه إياها. وقيل : المعرف : حديث الإمامة ، والمعرض عنه : حديث مارية : وروى

(1). لم أجده. وفي المراسيل لأبى داود عنه خلاف ذلك ، أخرجه من طريق قتادة عنه في تحريم أم إبراهيم.
قال : فأمر أن يكفر عن يمينه ، وكذا ذكره ابن اسحق كما تقدم أنه كفر عن يمينه.

أنه صلى اللّه عليه وسلم قال لها : ألم أقل لك اكتمي عليّ ، قالت : والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحا بالكرامة التي خص اللّه بها أباها. فإن قلت : هلا قيل : فلما نبأت به بعضهن وعرفها بعضه؟ قلت : ليس الغرض بيان من المذاع إليه ومن المعرف ، وإنما هو ذكر جناية حفصة في وجود الإنباء به وإفشائه من قبلها ، وأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بكرمه وحلمه ، لم يوجد منه إلا الإعلام ببعضه ، وهو حديث الإمامة. ألا ترى أنه لما كان المقصود في قوله فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا ذكر المنبأ ، كيف أتى بضميره.

[سورة التحريم (66) : آية 4]

إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (4)

إِنْ تَتُوبا خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ، ليكون أبلغ في معاتبتهما.

وعن ابن عباس : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عنهما حتى حج وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة ، فسكبت الماء على يده فتوضأ ، فقلت : من هما؟ فقال : عجبا يا ابن عباس - كأنه كره ما سألته عنه - ثم قال : هما حفصة وعائشة «1» فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من حب ما يحبه وكراهة ما يكرهه. وقرأ ابن مسعود : فقد زاغت وَإِنْ تَظاهَرا وإن تعاونا عَلَيْهِ بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره ، فلن يعدم هو من يظاهره ، وكيف يعلم المظاهر من اللّه مولاه أى وليه وناصره ، وزيادة هُوَ إيذان بأن نصرته عزيمة من عزائمه ، وأنه يتولى ذلك بذاته وَجِبْرِيلُ رأس الكروبيين ، وقرن ذكره بذكره مفردا له من بين الملائكة تعظيما له وإظهارا لمكانته عنده وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ومن صلح من المؤمنين ، يعنى : كل من آمن وعمل صالحا. وعن سعيد بن جبير : من بريء منهم من النفاق. وقيل : الأنبياء وقيل : الصحابة. وقيل : الخلفاء منهم. فإن قلت : صالح المؤمنين واحد أم جمع؟ قلت : هو واحد أريد به الجمع ، كقولك : لا يفعل هذا الصالح من الناس ، تريد الجنس ، كقولك : لا يفعله من صلح منهم. ومثله قولك : كنت في السامر والحاضر. ويجوز أن يكون أصله : صالحوا المؤمنين بالواو ، فكتب بغير واو على اللفظ ، لأنّ لفظ الواحد والجمع واحد فيه ، كما جاءت أشياء في المصحف متبوع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط وَالْمَلائِكَةُ على تكاثر عددهم ، وامتلاء السماوات من جموعهم بَعْدَ ذلِكَ بعد نصرة اللّه وناموسه وصالحي المؤمنين ظَهِيرٌ فوج مظاهر له ، كأنهم يد واحدة على من يعاديه ، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه؟

(1). متفق عليه.

فإن قلت : قوله بَعْدَ ذلِكَ تعظيم للملائكة ومظاهرتهم. وقد تقدّمت نصرة اللّه وجبريل وصالح المؤمنين ، ونصرة اللّه تعالى أعظم وأعظم. قلت : مظاهرة الملائكة من جملة نصرة اللّه ، فكأنه فضل نصرته تعالى بهم

[سورة التحريم (66) : آية 5]

عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً(5)

قرئ : يبدله ، بالتخفيف والتشديد للكثرة مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ مقرّات مخلصات سائِحاتٍ صائمات. وقرئ : سيحات، وهي أبلغ. وقيل للصائم : سائح ، لأنّ السائح لا زاد معه ، فلا يزال ممسكا إلى أن يجد ما يطعمه ، فشبه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره. وقيل : سائحات مهاجرات ، وعن زيد بن أسلم : لم تكن في هذه الأمّة سياحة إلا الهجرة. فإن قلت : كيف تكون المبدلات خيرا منهن ، ولم تكن على وجه الأرض نساء خير من أمّهات المؤمنين؟ «2» قلت : إذا طلقهن رسول اللّه لعصيانهن له وإيذائهن إياه ، لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والنزول على هواه ورضاه خيرا منهن ، وقد عرض بذلك في قوله قانِتاتٍ لأنّ القنوت هو القيام بطاعة اللّه ، وطاعة اللّه في طاعة رسوله. فإن قلت : لم أخليت الصفات كلها عن العاطف «3» ووسط بين الثيبات والأبكار؟ قلت : لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن «4» في سائر الصفات ، فلم يكن بد من الواو.

(1). قوله «لفضلهم على جميع خلقه» مذهب المعتزلة تفضيل الملك على البشر ، وأهل السنة على تفضيل بعض البشر على الملائكة. (ع)
(2). قوله «نساء خير من أمهات المؤمنين» لعله خيرا. (ع)
(3). قال محمود : «إن قلت لم أخليت هذه الصفات من العاطف ... الخ» قال أحمد : وقد ذكر لي الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه اللّه : أن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب رحمه اللّه كان يعتقد أن الواو في الآية هي الواو التي سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية ، لأنها ذكرت مع الصفة الثامنة ، فكان الفاضل يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة صلة ، أحدها التي في الصفة الثامنة من قوله التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ عند قوله وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ والثانية في قوله وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ والثالثة في قوله وَفُتِحَتْ أَبْوابُها قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب : ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه إلى أن ذكره يوما بحضرة أبى الجود النحوي المقري فبين له أنه واهم في عدها من ذلك القبيل ، وأحال البيان على المعنى الذي ذكره الزمخشري من دعاء الضرورة إلى الإتيان بها هاهنا ، لامتناع اجتماع الصفتين في موصوف واحد ، وواو الثمانية إن ثبتت فإنما ترد بحيث لا حاجة إليها إلا للاشعار بتمام نهاية العدد الذي هو السبعة ، فأنصفه الفاضل رحمه اللّه ، واستحسن ذلك منه وقال : أرشدنا يا أبا الجود.
(4). قوله «لا يجتمعن فيهما اجتماعهن» لعل فيه قلبا ، والأصل : لا يجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات فيهن. (ع)

[سورة التحريم (66) : الآيات 6 إلى 7]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (6) يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7)

قُوا أَنْفُسَكُمْ بترك المعاصي وفعل الطاعات وَأَهْلِيكُمْ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم. وفي الحديث «رحم اللّه رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعلّ اللّه يجمعهم معه في الجنة» «1» وقيل : إنّ أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهله. وقرئ : وأهلوكم «2» ، عطفا على واو قُوا وحسن العطف للفاصل. فإن قلت : أليس التقدير : قوا أنفسكم ، وليق أهلوكم أنفسهم؟ قلت : لا ، ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو ، وأنفسكم واقع بعده ، فكأنه قيل : قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه ، فجعلت ضميرهما معا على لفظ المخاطب ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ نوعا من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة ، كما يتقد غيرها من النيران بالحطب. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هي حجارة الكبريت ، وهي أشدّ الأشياء حرا إذا أو قد عليها. وقرئ : وقودها بالضم ، أى ذو وقودها عَلَيْها يلي أمرها وتعذيب أهلها مَلائِكَةٌ يعنى الزبانية التسعة عشر وأعوانهم غِلاظٌ شِدادٌ في أجرامهم غلظة وشدّة ، أى : جفاء وقوّة. أو في أفعالهم جفاء وخشونة ، لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر اللّه والغضب له والانتقام من أعدائه ما أَمَرَهُمْ في محل النصب على البدل ، أى : لا يعصون ما أمر اللّه. أى : أمره ، كقوله تعالى أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي أو لا يعصونه فيما أمرهم. فإن قلت : أليست الجملتان في معنى واحد؟ قلت : لا ، فإنّ معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها. ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه.

(1). لم أجده. [.....]
(2). قال محمود في قوله تعالى قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً : قرئ وأهلوكم. قال أحمد : ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو ، وأنفسكم واقع بعده ، كأنه قال : قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم ، ولكن لما اجتمع ضمير المخاطب والغائبين : غلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة. ثم قال : فان قلت قوله لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ أليس الجملتان في معنى واحد؟ وأجاب بأن معنى الأولى أنهم يلتزمون الأوامر ولا يأتونها ... الخ» قال أحمد :
جوابه الأول مفرع على قاعدته الفاسدة في اعتقاد خلود الفساق في جهنم ، ولعله إنما أورد السؤال ليتكلف عنه بجواب ينفس عما في نفسه مما لا يطيق كتمانه من هذا الباطل نعوذ باللّه منه ، وإلا فالسؤال غير وارد ، فانه لا يمتنع أن المؤمن يحذر من عذاب الكافر أن يناله على الإيمان ، كقوله في آل عمران خطابا للمؤمنين وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

فإن قلت : قد خاطب اللّه المشركين المكذبين بالوحي بهذا بعينه في قوله تعالى فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ وقال أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ فجعلها معدّة للكافرين ، فما معنى مخاطبته به المؤمنين؟ قلت : الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار ، فإنهم مساكنون الكفار في دار واحدة فقيل للذين آمنوا : قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الكفار الذين أعدت لهم هذه النار الموصوفة. ويجوز أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد ، والندم على الدخول في الإسلام ، وأن يكون خطابا للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ، ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى : يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لا تعتذروا ، لأنه لا عذر لكم. أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.

[سورة التحريم (66) : آية 8]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)

تَوْبَةً نَصُوحاً وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازى ، والنصح : صفة التائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم ، فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيئات ، وذلك : أن يتوبوا عن القبائح لقبحها ، نادمين عليها ، مغتمين أشدّ الاغتمام لارتكابها ، عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح إلى أن يعود اللبن في الضرع ، موطنين أنفسهم على ذلك.

وعن على رضى اللّه تعالى عنه : أنه سمع أعرابيا يقول : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : يا هذا ، إنّ سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين. قال : وما التوبة؟ قال : يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب : الندامة ، وللفرائض : الإعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تذيب نفسك في طاعة اللّه ، كما ربيتها في المعصية ، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي. وعن حذيفة : بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه. وعن شهر بن حوشب : أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار. وعن ابن السماك : أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من اللّه أمام عينك وتستعد لمنتظرك. وقيل : توبة لا يتاب منها. وعن السدى : لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين ، لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله. وقيل : نصوحا من نصاحة الثوب ، أى : توبة ترفو خروقك في دينك ، وترم خلك «1». وقيل : خالصة ، من قولهم : عسل ناصح إذا خلص من الشمع. ويجوز أن يراد : توبة تنصح الناس ، أى : تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها ، واستعماله الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها. وقرأ زيد بن على : توبا نصوحا. وقرئ : نصوحا بالضم ، وهو مصدر نصح. والنصح والنصوح ، كالشكر والشكور ، والكفر والكفور أى : ذات نصوح. أو تنصح نصوحا. أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له عَسى رَبُّكُمْ إطماع من اللّه لعباده ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل. ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت. والثاني : أن يجيء به تعليما العباد وجوب الترجح بين الخوف والرجاء ، والذي يدل على المعنى الأول وأنه في معنى البت : قراءة ابن أبى عبلة : ويدخلكم بالجزم ، عطفا على محل عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ كأنه قيل : توبوا يوجب لكم تكفير سيئاتكم ويدخلكم يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ نصب بيدخلكم ، ولا يخزى : تعريض بمن أخزاهم اللّه من أهل الكفر والفسوق ، واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم يَسْعى نُورُهُمْ على الصراط أَتْمِمْ لَنا نُورَنا قال ابن عباس : يقولون ذلك إذا طفئ نور المنافقين إشفاقا. وعن الحسن : اللّه متممه لهم ولكنهم يدعون تقربا إلى اللّه ، كقوله تعالى وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وهو مغفور له. وقيل : يقوله أدناهم منزلة ، لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون به مواطئ أقدامهم ، لأنّ النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلا.

وقيل : السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم حبوا وزحفا ، فأولئك الذين يقولون رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا فإن قلت : كيف يشفقون والمؤمنون آمنون ، أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ. فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ أو كيف «2» يتقربون وليست الدار دار تقرّب؟ قلت : أما الإشفاق فيجوز أن يكون على عادة البشرية وإن كانوا معتقدين الأمن. وأما التقرّب فلما كانت حالهم كحال المتقربين حيث يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة : سماه تقرّبا.

[سورة التحريم (66) : آية 9]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

جاهِدِ الْكُفَّارَ بالسيف وَالْمُنافِقِينَ بالاحتجاج ، واستعمل الغلظة والخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة. وعن قتادة : مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم. وعن مجاهد: بالوعيد. وقيل : بإفشاء أسرارهم.

(1). قوله «و ترم خلك» في الصحاح «الخل» الثوب البالي. وعبارة النسفي : خالك. وفي الصحاح «الخلل» بالتحريك : الفرجة بين الشيئين ، وفساد في الأمر. (ع)
(2). قوله «أو كيف» لعله : وكيف. (ع)

[سورة التحريم (66) : آية 10]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)

مثل اللّه عز وجل حال الكفار - في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم «1» من غير إبقاء ولا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر ، لأن عداوتهم لهم وكفرهم باللّه ورسوله قطع العلائق وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء اللّه - بحال امرأة نوح وامرأة لوط : لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء مّا من عذاب اللّه وَقِيلَ لهما عند موتهما أو يوم القيامة : ادْخُلَا النَّارَ مَعَ سائر الدَّاخِلِينَ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء. أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط. ومثل حال المؤمنين - في أنّ وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئا من ثوابهم وزلفاهم عند اللّه - بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند اللّه تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء اللّه الناطق بالكلمة العظمى، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أنّ قومها كانوا كفارا. وفي طىّ هذين التمثيلين تعريض بأمّى المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «2» بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ، لما في التمثيل من ذكر الكفر. ونحوه في التغليظ قوله تعالى وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول اللّه ، فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين ، والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول اللّه ، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويزل عن نبصره.

(1). قوله «حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم» أى الذين بينهم وبين المؤمنين علاقة. وقوله «مثلهم» أى ممن لا علاقة بينهم وبين المؤمنين. (ع)
(2). قوله «على التظاهر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» لعله من التظاهر ، كعبارة النسفي. (ع)

فإن قلت ، ما فائدة قوله مِنْ عِبادِنا؟ قلت : لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائنا من كان ، وأنه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند اللّه : قال عبدين من عبادنا صالحين ، فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا ، من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهارا وإبانة ، لأن عبدا من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير ، وأن ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب للرجحان عنده. فإن قلت : ما كانت خيانتهما؟ قلت : نفاقهما وإبطانهما الكفر ، وتظاهرهما على الرسولين ، فامرأة نوح قالت لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط دلت على ضيفانه. ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد ، بخلاف الكفر فإن الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونه حقا ، وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما «ما بغت امرأة نبى قط» «1».

[سورة التحريم (66) : الآيات 11 إلى 12]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (12)

وامرأة فرعون : : آسية بنت مزاحم. وقيل : هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك ، فعذبها فرعون. عن أبى هريرة : أن فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد ، واستقبل بها الشمس ، وأضجعها على ظهرها ، ووضع رحى على صدرها. وقيل : أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت اللّه فرقى بروحها، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه.

وعن الحسن : فنجاها اللّه أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب وتتنعم فيها. وقيل : لما قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة : أريت بيتها في الجنة يبنى. وقيل : إنه من درة.

وقيل : كانت تعذب في الشمس فتظلها الملائكة. فإن قلت : ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة؟ قلت طلبت القرب من رحمة اللّه والبعد من عذاب أعدائه ، ثم بينت مكان القرب بقولها فِي الْجَنَّةِ أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى ، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها عِنْدَكَ.

مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ من عمل فرعون. أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم ، وخصوصا من عمله وهو : الكفر ،

(1). أخرجه عبد الرزاق والطبري وابن مردويه من طريق عنه في تفسير هود وهنا.

وعبادة الأصنام ، والظلم ، والتعذيب بغير جرم وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ من القبط كلهم. وفيه دليل على أنّ الاستعاذة باللّه والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل : من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين : فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ. فِيهِ في الفرج. وقرأ ابن مسعود : فيها ، كما قرئ في سورة الأنبياء ، والضمير للجملة ، وقد مرّ لي في هذا الظرف كلام. ومن بدع التفاسير : أنّ الفرج هو جيب الدرع ، ومعنى أحصنته : منعته جبريل ، وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتى لا زوج لها ، تسلية للأرامل وتطييبا لأنفسهنّ وَصَدَّقَتْ قرئ بالتشديد والتخفيف على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة ، يعنى : وصفتها بالصدق ، وهو معنى التصديق بعينه. فإن قلت : فما كلمات اللّه وكتبه؟ قلت : يجوز أن يراد بكلماته : صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ، سماها كلمات لقصرها «1» ، وبكتبه : الكتب الأربعة «2» ، وأن يراد جميع ما كلم اللّه به ملائكته وغيرهم ، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره. وقرئ : بكلمة اللّه وكتابه. أى : بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل. فإن قلت : لم قيل مِنَ الْقانِتِينَ على التذكير؟ قلت : لأنّ القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين ، فغلب ذكوره على إناثه. ومِنْ للتبعيض. ويجوز أن يكون لابتداء الغاية ، على أنها ولدت من القانتين ، لأنها من أعقاب هرون أخى موسى صلوات اللّه عليهما.

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد.

وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» «3» وأما ما روى أنّ عائشة سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كيف سمى اللّه المسلمة؟

(1). قال محمود : «يجوز أن يراد بالكلمات الصحف التي أنزلها اللّه تعالى على إدريس وغيره : سماها كلمات لقصرها ... الخ» قال أحمد : هو يعتقد حدوث كلام اللّه ويجحد الكلام القديم. فلا جرم أن كلامه لا يعدو الاشعار بأن كلمات اللّه متناهية ، لأنه في الوجه الأول جعلها مجموعة جمع قلة لقصرها ، وفي الثاني حصرها بقوله «جميع» وأين وصفه لها بالقصر والحصر من الآيتين التوأمتين اللتين إحداهما قوله قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي والأخرى قوله وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ... الآية وما هو في الحقيقة إلا غير مؤمن بكلمات اللّه تعالى ، فالحق أن كلام اللّه تعالى صفة من صفات كماله أزلية أبدية غير متناهية ، فهكذا آمنت امرأة فرعون المتلو ثناؤها في كتاب اللّه العزيز ، ثبتنا اللّه على الايمان ، ووقانا الخذلان ، واللّه المستعان.
(2). قوله «و بكتبه الكتب الأربعة» لعلها علمت بالإنجيل والقرآن نزولهما. (ع)
(3). أخرجه الثعلبي من طريق عمرو بن مرزوق عن شعبة عن عمرو بن مرة سمع مرة عن أبى موسى بهذا.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمرو بن مرة من هذا الوجه. قال : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا يوسف القاضي حدثنا عمرو بن مرزوق بهذا. وهو في البخاري من رواية مرة عن أبى موسى دون ذكر خديجة وفاطمة رضى الله عنهما. وفي ابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما رفعه «أفضل نساء العالمين أربع ... فذكره».

تعنى مريم ، ولم يسم الكافرة؟ فقال : بغضالها : قالت : وما اسمها؟ قال : اسم امرأة نوح «واعلة» واسم امرأة لوط «واهلة» فحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بين ، ولقد سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ، ولو كانت التسمية للحب وتركها البغض لسمى آسية ، وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين ، وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمارة تنم عليه ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكم وأسلم من ذلك.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحا» «1»

سورة الملك

مكية ، وهي ثلاثون آية [نزلت بعد الطور] وتسمى : الواقية ، والمنجية ، لأنها تقى وتنجي قارئها من عذاب القبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الملك (67) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

تَبارَكَ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ على كل موجود

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه باسنادهما إلى أبى بن كعب.

وَهُوَ عَلى كُلِّ ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة قَدِيرٌ وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة : ما يصح بوجوده الإحساس. وقيل : ما يوجب كون الشيء حيا ، وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر. والموت عدم ذلك «1» فيه ، ومعنى خلق الموت والحياة : إيجاد ذلك المصحح وإعدامه. والمعنى : خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون لِيَبْلُوَكُمْ وسمى علم الواقع منهم باختيارهم «بلوى» وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر. ونحوه قوله تعالى وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ. فإن قلت : من أين تعلق قوله أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا بفعل البلوى «2»؟ قلت : من حيث أنه تضمن معنى العلم ، فكأنه قيل : ليعلمكم أيكم أحسن عملا ، وإذا قلت : علمته أزيد أحسن عملا أم هو؟ كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه ، كما تقول : علمته هو أحسن عملا. فإن قلت : أتسمى هذا تعليقا؟ قلت : لا ، إنما التعليق أن توقع بعده ما يسدّ مسدّ المفعولين جميعا ، كقولك : علمت أيهما عمرو ، وعلمت أزيد منطلق. ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرا بحرف الاستفهام وغير مصدر به ، ولو كان تعليقا لا فترقت الحالتان كما افترقتا في قولك : علمت أزيد منطلق. وعلمت زيدا منطلقا. أَحْسَنُ عَمَلًا. قيل : أخلصه وأصوبه ، لأنه إذا كان خالصا غير صواب لم يقبل ، وكذلك إذا كان صوابا غير خالص ، فالخالص : أن يكون لوجه الله تعالى ، والصواب : أن يكون على السنة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلاها ، فلما بلغ قوله أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا قال : «أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله» «3» يعنى : أيكم أتم عقلا عن الله وفهما لأغراضه ، والمراد : أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه ، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح ، لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه. وقدم الموت على الحياة ، لأنّ أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل الْغَفُورُ لمن تاب من أهل الإساءة طِباقاً مطابقة بعضها فوق بعض ،

(1). قال محمود : «أى ما يوجب كون الشيء حيا أو ما يصح بوجوده الاحساس والموت عدم ذلك ... الخ» قال أحمد : أخطأ في تفسير الموت ديدنه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية ، ومنها قطع الله ذكرها :
أن الموت عدم ، وهو خطأ صراح. ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودى يضاد الحياة ، وكيف يكون العدم بهذه المثابة ، ولو كان العدم مخلوقا حادثا وعدم الحوادث مقرر أزلا : للزم قطع الحوادث أزلا ، وذلك أبشم من القول بقدم العالم ، فانظر إلى هذا الهوى أين مؤداه. وكيف أهوى بصاحبه فأرداه ، نعوذ بالله من الزلل والخطل.
(2). قال محمود : «أين تعلق قوله أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا بفعل البلوى؟ وأجاب بأن معناه ليعلمكم أيكم أحسن عملا ، لأن البلوى تتضمن العلم ... الخ» قال أحمد : التعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النحاة ، والأصح ما أجازه ، وهو في هذا الفن يمشى وفيه يدرج ويدرى كيف يدخل فيه ويخرج.
(3). تقدم الكلام عليه في أول سورة هود.

من طابق النعل : إذا خصفها طبقا على طبق ، وهذا وصف بالمصدر. أو على ذات طباق ، أو على : طوبقت طباقا مِنْ تَفاوُتٍ وقرئ : من تفوت. ومعنى البناءين واحد ، كقولهم : تظاهروا من نسائهم. وتظهروا. وتعاهدته وتعهدته ، أى : من اختلاف واضطراب في الخلقة ولا تناقض ، إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت : عدم التناسب ، كأن بعض الشيء يفوت بعضا ولا يلائمه. ومنه قولهم : خلق متفاوت. وفي نقيضه : متناصف.

(1). قوله «بالصغار والقماءة» أى : الصغر والذل ، كما في الصحاح. (ع) [.....]
(2). قال محمود : «لم خص الكرتين؟ فأجاب بأن معنى التثنية هاهنا التكثير ... الخ» قال أحمد : وفي قوله يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ وضع الظاهر موضع المضمر. وفيه من الفائدة : التنبيه على أن الذي يرجع خاسئا حسيرا غير مدرك الفطور : هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء. ومن هذا القبيل قوله خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ وأصله : ما ترى في خلقهن من تفاوت ، ولكنه ذكرهن منسربات لخلق الرحمن ، تنبيها على السبب الذي ربأ بهن على الفطور والتفاوت.
(3). قوله «دهدرين ... الخ» في القاموس بضم الدالين وفتح الراء المشددة : اسم لبطل ، وللباطل والكذب كالدهدر. ودهدرين سعد القين : أى بطل سعد الحداد. أو أن فينا ادعى أن اسمه سعد زمانا ، ثم تبين كذبه ، فقيل له ذلك» أى : جمعت باطلا إلى باطل يا سعد الحصاد. ويروى منفصلا «ده» أمر من الدهاء ، و«درين» من در : أى تتابع ، أى : بالغ في الكذب يا سعد. وفيه غير ذلك ، فراجعه، كذا بهامش الأصل. (ع)

ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى وبالنظرة الحمقاء ، وأن يتوقف بعدها ويجم بصره ، ثم يعاود ويعاود ، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة ، فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

[سورة الملك (67) : آية 5]

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (5)

الدُّنْيا القربى ، لأنها أقرب السماوات إلى الناس ، ومعناها : السماء الدنيا منكم. والمصابيح السرج ، سميت بها الكواكب ، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح «1» ، فقيل : ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بِمَصابِيحَ أى بأى مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ، وضممنا إلى ذلك منافع أخر : أنا جَعَلْناها رُجُوماً أعدائكم : لِلشَّياطِينِ الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر. قال قتادة : خلق اللّه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها. فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به وعن محمد بن كعب : في السماء واللّه ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم ، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة. والرجوم : جمع رجم : وهو مصدر سمى به ما يرجم به.

ومعنى كونها مراجم للشياطين : أنّ الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب ، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها ، لأنها قارة في الفلك على حالها. وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار ، والنار ثابتة كاملة لا تنقص. وقيل : من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب. ومنهم من يخبله. وقيل : معناه وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الإنس وهم النجامون «2» وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا.

[سورة الملك (67) : الآيات 6 إلى 12]

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ

(1). قوله «و دورهم بأثقاب المصابيح» في الصحاح «ثقبت النار» : اتقدت. وأثقبتها أنا. وشهاب ثاقب ، أى : مضيء. (ع)
(2). حمل الزمخشري الشياطين على ظاهره ، ونقل عن بعضهم أن معناه : وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب ... الخ. قال أحمد : وهذا من الاستطراد. لما ذكر وعيد الشياطين استطرد ذلك وعيد الكافرين عموما والله أعلم.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أى : ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عَذابُ جَهَنَّمَ ليس الشياطين المرجومين مخصوصين بذلك. وقرئ عذاب جهنم بالنصب عطفا على عذاب السعير إِذا أُلْقُوا فِيها أى طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ، ويرمى به. ومثله قوله تعالى حَصَبُ جَهَنَّمَ. سَمِعُوا لَها شَهِيقاً إمّا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها. أو من أنفسهم ، كقوله لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ وإما للنار تشبيها لحسيسها» المنكر الفظيع بالشهيق وَهِيَ تَفُورُ تغلى بهم غليان المرجل بما فيه. وجعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ، ويقولون : فلان يتميز غيظا ويتقصف غضبا ، وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء : إذا وصفوه بالإفراط فيه. ويجوز أن يراد : غيظ الزبانية أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ توبيخ يزدادون به عذابا إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم. وخزنتها : مالك وأعوانه من الزبانية قالُوا بَلى اعتراف منهم بعدل الله ، وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ، وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة «2» ، وإنما أتوا من قبل أنفسهم ، واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده. فإن قلت : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ من المخاطبون به؟ قلت : هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين ، على أنّ النذير بمعنى الإنذار. والمعنى : ألم يأتكم أهل نذير. أو وصف منذروهم لغلوهم في الإنذار ، كأنهم ليسوا إلا إنذارا ، وكذلك قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ ونظيره قوله تعالى أَنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ أى حاملا رسالته. ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول: أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا. أو أرادوا بالضلال : الهلاك. أو سموا عقاب الضلال باسمه. أو من كلام الرسل لهم حكوه للخزنة ،

(1). قوله «تشبيها لحسيسها» في الصحاح : الحس والحسيس : الصوت ، والخفي. (ع)
(2). قوله «كما تزعم المجبرة» إن كان مراده أهل السنة كعادته لقولهم : إنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ، وأنها بقضائه تعالى وقدره ، بل من جهة ما لهم فيها من الكسب والاختيار كما تقرر في محله وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء لا دخل له في عمله أصلا ، فقد أصاب الفرق الضروري بين حركة اليد في البطش وحركتها في الارتعاش ، كما تقرر في علم التوحيد ، فارجع إليه. (ع)

أى قالوا لنا هذا فلم نقبله لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ الإنذار سماع طالبين للحق «1». أو نعقله عقل متأمّلين. وقيل : إنما جمع بين السمع والعقل ، لأنّ مدار التكليف على أدلة السمع والعقل. ومن بدع التفاسير : أنّ المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب «2» الرأى ، كأنّ هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين ، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم ، وكأن من كان من هؤلاء فهو من من الناجين لا محالة ، وعدّة المبشرين من الصحابة : عشرة ، لم يضم إليهم حادي عشر ، وكأن من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعوا باسم هذين الفريقين بِذَنْبِهِمْ بكفرهم في تكذيبهم الرسل فَسُحْقاً قرئ بالتخفيف والتثقيل ، أى : فبعدا لهم ، اعترفوا أو جحدوا ، فإنّ ذلك لا ينفعهم.

[سورة الملك (67) : الآيات 13 إلى 14]

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (13) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

ظاهره الأمر بأحد الأمرين : الإسرار والإجهار. ومعناه : ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم «3» في علم الله بهما ، ثم أنه علله ب إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أى بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها ، فكيف لا يعلم ما تكلم به. ثم أنكر أن لا يحيط علما بالمضمر والمسر والمجهر مَنْ خَلَقَ الأشياء «4» ، وحاله أنه اللطيف الخبير ، المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن.

(1). قال محمود : «معناه لو كنا نسمع للانذار سماع طالبين للحق ... الخ» قال أحمد : إن عنى أن الأحكام الشرعية تستفاد من العقل كما تستفاد من السمع بناء على قاعدة التحسين والتقبيح ، فهو غير بعيد من أصحاب السعير.
وإن عنى أن العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية : فهو مع أهل السنة.
(2). قال محمود : «و من بدع التفاسير أن المراد : لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأى ... الخ» قال أحمد : ولو تفطن نبيه لهذه الآية لعدها دليلا على تفضيل السمع على البصر ، فانه قد استدل على ذلك بأخفى منها.
(3). قوله «إسراركم وإجهاركم» في الصحاح «إجهار الكلام» : إعلانه. (ع)

(4). قال محمود : «أنكر أن لا يحيط علما بالسر أو الجهر من خلق ذلك ... الخ» قال أحمد : هذه الآية رد على المعتزلة وتصحيح الطريق التي يسلكها أهل السنة في الرد عليهم ، فان أهل السنة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها ، وهو استدلال بنفي اللازم الذي هو العلم على نفى الملزوم الذي هو الخلق ، وبهذه الملازمة دلت الآية ، فان اللّه تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عز وجل بثبوت الخلق ، وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود اللازم ، فهو نور واحد يقتبس منه ثبوت العلم الباري عز وجل ، وإبطال خلق العبد لأفعاله ، وإعراب الآية ينزل على هذا المعنى ، فان الوجه فيها أن يكون مَنْ فاعلا مرادا به الخالق ، ومفعول العلم محذوف تقديره : ذلك إشارة إلى السر والجهر ومفعول خلق محذوف ضميره عائد إلى ذلك. والتقدير في الجميع : ألا يعلم السر والجهر من خلقهما. ومتى حذونا غير هذا الوجه من الإعراب ألقانا إلى مضايق التكلف والتعسف ، فمن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر ، والتقدير : ألا يعلم اللّه المسرين والجاهرين ، وليس مطابقا للمفصل ، فانه لم يقع ذوات الفاعلين ، وإنما وقع على أفعالهم من السر والجهر. وعليه وقع الاستدلال. ويحتمل غير ذلك أبعد منه. والأول هو الأولى لفظا ومعنى. واللّه الموفق.

ويجوز أن يكون مَنْ خَلَقَ منصوبا بمعنى : ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله. وروى أنّ المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء ، فيظهر اللّه رسوله عليها ، فيقولون : أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد ، فنبه اللّه على جهلهم. فإن قلت : قدرت في أَلا يَعْلَمُ مفعولا على معنى : ألا يعلم ذلك المذكور مما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق، فهلا جعلته مثل قولهم : هو يعطى ويمنع ، وهلا كان المعنى : ألا يكون عالما من هو خالق ، لأنّ الخلق لا يصح إلا مع العلم؟

قلت : أبت ذلك الحال التي هي قوله وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ لأنك لو قلت : ألا يكون عالما من هو خالق وهو اللطيف الخبير : لم يكن معنى صحيحا ، لأنّ ألا يعلم معتمد على الحال.

والشيء لا يوقت بنفسه ، فلا يقال : ألا يعلم وهو عالم ، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شيء.

[سورة الملك (67) : آية 15]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

المشي في مناكبها : مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية ، لأنّ المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه ، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشى في مناكبها لم يترك «1». وقيل : مناكبها جبالها. قال الزجاج : معناه سهل لكم السلوك في جبالها ، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها ، فهو أبلغ التذليل. وقيل جوانبها. والمعنى : وإليه نشوركم ، فهو مسائلكم «2» عن شكر ما أنعم به عليكم.

[سورة الملك (67) : الآيات 16 إلى 19]

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (18) أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)

مَنْ فِي السَّماءِ فيه وجهان : أحدهما من ملكوته في السماء ، لأنها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه. والثاني : أنهم

(1). قوله «لم يترك» لعل هنا سقطا تقديره : لم يترك شيئا منها إلا قد ذلله. (ع)
(2). قوله «فهو مسائلكم» عبارة النسفي : سائلكم. (ع)

كانوا يعتقدون التشبيه ، وأنه في السماء ، وأنّ الرحمة والعذاب ينزلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها ، فقيل لهم على حسب اعتقادهم : أأمنتم من تزعمون أنه في السماء ، وهو متعال عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب ، كما تقول لبعض المشبهة : أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل ، إذا رأيته يركب بعض المعاصي فَسَتَعْلَمُونَ قرئ بالتاء والياء كَيْفَ نَذِيرِ أى إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذارى حين لا ينفعكم العلم صافَّاتٍ باسطات أجنحتهن في الجوّ عند طيرانها ، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها «1» صفا وَيَقْبِضْنَ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن. فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ، ولم يقل : وقابضات؟ قلت : لأن الأصلَ في الطيران هو صف الأجنحة ، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارٍ غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ بقدرته

[سورة الملك (67) : الآيات 20 إلى 21]

أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)

أَمَّنْ يشار إليه من الجموع ويقال هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ اللّه إن أرسل عليكم عذابه أَمَّنْ يشار إليه ويقال هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ وهذا على التقدير. ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم ، فكأنهم الجند الناصر والرازق. ونحوه قوله تعالى أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا. بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ بل تمادوا في عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه.

[سورة الملك (67) : الآيات 22 إلى 24]

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

(1). قال محمود : «معناه : باسطات أجنحتها ، لأنها إذا بسطتها صفت قوادمها ... الخ» قال أحمد : ويلاحظ هذا المعنى في قوله وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً بعد قوله إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ولم يقل مسبحات ، مثل محشورة لقربه من هذا التفسير ، ولقد أحسن فيه كل الإحسان.
(2). قوله «من القوادم والخوافي» في الصحاح «قوادم الطير» : مقاديم ريشه ، وهي عشر ريشات في كل جناح. والخوافي ما دون الريشات العشر من مقدم الجناح. (ع) [.....]

يجعل «أكب» مطاوع «كبه» يقال : كببته فأكب ، من الغرائب والشواذ. ونحوه : قشعت الريح السحاب فأقشع، وما هو كذلك ، ولا شيء من بناء أفعل مطاوعا ، ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه ، وإنما «أكب» من باب «انفض ، وألأم» «1» ومعناه : دخل في الكب ، وصار ذاكب ، وكذلك أقشع السحاب : دخل في القشع. ومطاوع كب وقشع : انكب وانقشع. فإن قلت : ما معنى يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ؟ وكيف قابل يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ؟ قلت : معناه : يمشى معتسفا في مكان معتاد غير مستوفيه انخفاض وارتفاع ، فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكبا ، فحاله نقيض حال من يمشى سويا ، أى : قائما سالما من العثور والخرور. أو مستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستو. ويجوز أن يراد الأعمى الذي لا يهتدى إلى الطريق فيعتسف ، فلا يزال ينكب على وجهه ، وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهتدى له ، وهو مثل للمؤمن والكافر. وعن قتادة : الكافر أكب على معاصي اللّه تعالى فحشره اللّه يوم القيامة على وجهه. وعن الكلبي : عنى به أبو جهل بن هشام. وبالسوىّ : رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب.

[سورة الملك (67) : الآيات 25 إلى 27]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هذا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

فَلَمَّا رَأَوْهُ الضمير للوعد. والزلفة : القرب ، وانتصابها على الحال أو الظرف ، أى : رأوه ذا زلفة أو مكانا ذا زلفة سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أى ساءت رؤية الوعد وجوههم : بأن عليها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة ، وكلحوا ، وكما يكون «2» وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب وَقِيلَ القائلون : الزبانية تَدَّعُونَ تفتعلون من الدعاء ،

(1). قوله «من باب انفض وألأم» في الصحاح «انفض القوم» هلكت أموالهم. وانفضوا أيضا : مثل ارملوا فنى زادهم. وفيه أيضا : ألأم الرجل إذا صنع ما يدعوه الناس عليه لئيما. (ع)
(2). قوله «و كما يكون» لعله كما بدون واو. (ع)

أى : تطلبون وتستعجلون به. وقيل : هو من الدعوى ، أى : كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون.

وقرئ : تدعون. وعن بعض الزهاد : أنه تلاها في أول الليل في صلاته ، فبقى يكررها وهو يبكى إلى أن نودي لصلاة الفجر ، ولعمري إنها لوقاذة «1» لمن تصور تلك الحالة وتأملها.

[سورة الملك (67) : آية 28]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (28)

كان كفار مكة يدعون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك ، فأمر بأن يقول لهم : نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين : إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة ، أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو ، فأنتم ما تصنعون؟ من يجيركم - وأنتم كافرون - من عذاب النار؟ لا بدّ لكم منه ، يعنى : إنكم تطلبون لنا الهلاك الذي هو استعجال للفوز والسعادة ، وأنتم في أمر هو الهلاك الذي لإهلاك بعده ، وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه. أو إن أهلكنا اللّه بالموت فمن يجيركم بعد موت هداتكم ، والآخذين بحجزكم من النار ، وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم ، فإنّ المقتول على أيدينا هالك. أو إن أهلكنا اللّه في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون ، فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم ، وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له.

[سورة الملك (67) : آية 29]

قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (29)

فإن قلت : لم أخر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا؟ قلت : لوقوع آمنا تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم، كأنه قيل : آمنا ولم نكفر كما كفرتم ، ثم قال : وعليه توكلنا خصوصا لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم.

[سورة الملك (67) : آية 30]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (30)

غَوْراً غائرا ذاهبا في الأرض. وعن الكلبي لا تناله الدلاء ، وهو وصف بالمصدر كعدل ورضا. وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال : تجيء به الفئوس والمعاول ، فذهب ماء عينيه ، نعوذ باللّه من الجرأة على اللّه وعلى آياته.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر» «2».

(1). قوله «إنها لوقاذة لمن تصور» في الصحاح «وقذه» ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

سورة ن

مكية ، وهي اثنان وخمسون آية [نزلت بعد العلق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القلم (68) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ (1)

قرئ : ن والقلم بالبيان والإدغام ، وبسكون النون وفتحها وكسرها ، كما في ص. والمراد هذا الحرف من حروف المعجم : وأمّا قولهم : هو الدواة فما أدرى أهو وضع لغوى أم شرعي؟ ولا يخلو إذا كان اسما للدواة من أن يكون جنسا أو علما ، فإن كان جنسا فأين الإعراب والتنوين ، وإن كان علما فأين الإعراب ، وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام. فإن قلت : هو مقسم به وجب إن كان جنسا أن تجرّه وتنوّنه ، ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة ، كأنه قيل : ودواة والقلم ، وإن كان علما أن تصرفه وتجرّه ، أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث ، وكذلك التفسير بالحوت : إما أن يراد نون من النينان. أو يجعل علما لليهموت «1» الذي يزعمون ، والتفسير باللوح من نور أو ذهب ، والنهر في الجنة نحو ذلك. وأقسم بالقلم : تعظيما له ، لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ، ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف وَما يَسْطُرُونَ وما يكتب من كتب. وقيل : ما يستره الحفظة ، وما موصولة أو مصدرية. ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه ، فيكون الضمير في يَسْطُرُونَ لهم كأنه قيل : وأصحاب القلم ومسطوراتهم. أو وسطرهم ، ويراد بهم كل ما يسطر ، أو الحفظة.

[سورة القلم (68) : الآيات 2 إلى 3]

ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3)

فإن قلت : بم يتعلق الباء في بِنِعْمَةِ رَبِّكَ وما محله؟ قلت : يتعلق بمجنون منفيا «2» ، كما يتعلق بعاقل مثبتا في قولك : أنت بنعمة اللّه عاقل ، مستويا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك : ضرب زيد عمرا ، وما ضرب زيد عمرا : تعمل الفعل مثبتا ومنفيا إعمالا واحدا ،

(1). قوله «أو يجعل علما اليهموت» لعله باليهموت بالموحدة كعبارة غيره ، فليحرر. (ع)
(2). قوله «يتعلق بمجنون منفيا» في النسفي تتعلق بمحذوف ، ومحله النصب على الحال. والعامل فيهما بِمَجْنُونٍ. (ع)

ومحله النصب على الحال ، كأنه قال : ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك «1» ، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ، لأنها زائدة لتأكيد النفي. والمعنى ، استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوة وحسدا ، وأنه من إنعام اللّه عليه بحصافة العقل «2» والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوّة ، بمنزل وَإِنَّ لَكَ على احتمال ذلك وإساغة الغصة فيه والصبر عليه لَأَجْراً لثوابا غَيْرَ مَمْنُونٍ غير مقطوع كقوله عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ أو غير ممنون عليك به «3» ، لأنه ثواب تستوجبه «4» على عملك ، وليس بتفضل ابتداء ، وإنما تمنّ الفواضل لا الأجور على الأعمال.

[سورة القلم (68) : آية 4]

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

استعظم خلقه لفرط احتماله الممضات «5» من قومه وحسن مخالفته ومداراته لهم. وقيل : هو الخلق الذي أمره اللّه تعالى به في قوله تعالى خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ وعن عائشة رضى اللّه عنها : أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن ، ألست تقرأ القرآن : قد أفلح المؤمنون «6».

[سورة القلم (68) : الآيات 5 إلى 6]

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6)

الْمَفْتُونُ المجنون ، لأنه فتن : أى محن بالجنون. أو لأن العرب يزعمون أنه من تخبيل الجن ، وهم الفتان للفتاك منهم ، والباء مزيدة. أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود ، أى : بأيكم الجنون.

(1). قوله «منعما عليك بذلك» كذا في النسفي بعد ما سبق فيه ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أى بانعامه عليك بالنبوة وغيرها. وهذا مرجع الاشارة. (ع)
(2). قوله «و إنه من إنعام اللّه بحصافة» لعله من إنعام اللّه عليه بحصافة العقل أى استحكامه. كما أفاده الصحاح. (ع)
(3). قال محمود : «معناه غير مقطوع ، كقوله عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ... الخ» قال أحمد : ما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يرضى من الزمخشري بتفسير الآية هكذا. وهو صلى اللّه عليه وسلم يقول «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله قيل : ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللّه بفضل منه ورحمة» ولقد بلغ بالزمخشرى سوء الأدب إلى حد يوجب الحد ، وحاصل قوله : أن اللّه لا منة له على أحد ولا فضل في دخول الجنة لأنه قام بواجب عليه ، نعوذ باللّه من الجرأة عليه.
(4). قوله «لأنه ثواب تستوجبه على عملك» وجوب الثواب عليه تعالى مذهب المعتزلة ، ولا يجب عليه شيء عند أهل السنة. (ع)
(5). قوله «احتماله الممضات» أى : الموجعات. أفاده الصحاح. (ع)
(6). أخرجه مسلم من رواية زرارة ابن أبى أو في عن سعد بن هشام عنه ، وفيه قصة ، وأخرجه الحاكم مختصرا بلفظ المصنف.

أو بأى الفريقين منكم الجنون «1» ، أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؟ أى : في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم : وهو تعريض بأبى جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما ، وهذا كقوله تعالى سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ.

[سورة القلم (68) : الآيات 7 إلى 9]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(9)
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمجانين على الحقيقة ، وهم الذين ضلوا عن سبيله وَهُوَ أَعْلَمُ بالعقلاء وهم المهتدون. أو يكون وعيدا ووعدا ، وأنه أعلم بجزاء الفريقين فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم ، وكانوا قد أرادوه على أن يعبد اللّه مدة ، وآلهتهم مدة ، ويكفوا عنه غوائلهم لَوْ تُدْهِنُ لو تلين وتصانع فَيُدْهِنُونَ. فإن قلت : لم رفع فَيُدْهِنُونَ ولم ينصب بإضمار «أن» وهو جواب التمني؟ قلت : قد عدل به إلى طريق آخر : وهو أن جعل خبر مبتدإ محذوف ، أى : فهم يدهنون ، كقوله تعالى فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ على معنى : ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ. أو ودوا إدهانك فهم الآن يدهنون ، لطمعهم في إدهانك. قال سيبويه : وزعم هرون أنها في بعض المصاحف ودوا لو تدهن فيدهنوا.

[سورة القلم (68) : الآيات 10 إلى 16]

وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ (13)
أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ (14) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

حَلَّافٍ كثير الحلف في الحق والباطل ، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف. ومثله قوله تعالى وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ. مَهِينٍ من المهانة وهي القلة والحقارة ، يريد القلة في الرأى والتمييز. أو أراد الكذاب لأنه حقير عند الناس هَمَّازٍ عياب طعان. وعن الحسن. يلوى شدقيه في أقفية الناس مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مضرب «2» نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم. والنميم والنميمة : السعاية ، وأنشدنى بعض العرب :

(1). قوله «أو بأى الفريقين منكم الجنون» لعله المجنون. وفي النسفي. قال الزجاج : الباء بمعنى في. تقول : كنت ببلد كذا ، أى : في بلد كذا ، وتقديره : في أيكم المفتون ، أى : في أى الفريقين منكم المجنون. (ع)
(2). قوله «مضرب نقال» في الصحاح «التضريب بين القوم» : الإغراء. (ع) [.....]

تشبّبى تشبّب النّميمه تمشى بها زهرا إلى تميمه «1»

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ بخيل. والخير : المال. أو مناع أهله الخير وهو الإسلام ، فذكر الممنوع منه دون الممنوع ، كأنه قال : مناع من الخير. قيل : هو الوليد بن المغيرة المخزومي : كان موسرا ، وكان له عشرة من البنين ، فكان يقول لهم وللحمته : «2» من أسلم منكم منعته رفدي عن ابن عباس. وعنه : أنه أبو جهل. وعن مجاهد :

وكان الوليد دعيا في قريش ليس من سنخهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده. وقيل : بغت أمّه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية ، جعل جفاءه ودعوته أشد معايبه ، لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأنّ الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها. ومن ثم قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده» «5» وبَعْدَ ذلِكَ نظير ثُمَّ في قوله ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وقرأ الحسن : عتل ،

(1). لأعرابى يخاطب النار. والتشبب : التوقد. والتميمة : تزوير الكلام وتزويقه للافساد بين الناس. وثوب منمم ومنمنم : منقش محسن. وزهرا - بالفتح - : اسم امرأة نمامة. وتميمة : قبيلة تميم ، ونزل النار منزلة العاقل فأمرها وقال : اشتعلى كاشتعال النميمة حال كونها تمشى بها هذه المرأة إلى بنى تميم ، وكانت كثيرة الإفساد بين العرب ، حتى ضرب بها المثل ، وجعل اشتعال نميمتها أبلغ من اشتعال النار ، فأمرها أن تتوقد كتوقدها ، وبين نميمة وتميمة الجناس اللاحق.
(2). قوله «يقول لهم وللحمته» في الصحاح «اللحمة» بالضم : القرابة. (ع)
(3). قال محمود : «العتل الجافي ، والزنيم الداعي ، وكذلك كان الوليد بن المخزومي استلحقه المغيرة بعد ثمان عشر من مولده ... الخ» قال أحمد : وإنما أخذ كون هذين أشد معايبه من قوله بعد ذلك ، فانه يعطى تراخى المرتبة فيما بين المذكور أولا والمذكور بعده في الشر والخير. ونظيره في الخير قوله تعالى وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ ومن ثم استعملت ثم لتراخى المراتب ، وإن أعطت عكس الترتيب الوجودي.
(4). لحسان بن ثابت يخاطب الوليد بن المغيرة ، يقول : إنه زنيم ، أى معلق في آل هاشم كالزنمة في الإهاب وهي قطعة جلد صغيرة تترك معلقة بطرفه ، فشبهه بها وشبهه بالقدح المنفرد الفارغ المعلق خلف الراكب.
(5). أخرجه أبو نعيم في ترجمة مجاهد من رواية عبد اللّه بن حسن في ترجمة يوسف بن أسباط من رواية بركة بن محمد عن يوسف بن أسباط عن أبى إسرائيل الملائى عن إسماعيل بن إسحاق عن قبيصة بن عمرو عن مجاهد عن بنى عمر عن أبى هريرة. ثم رواه من طريق إسحاق بن منصور عن أبى إسرائيل به وأبو إسحاق ضعيف جدا. وقد ادعى ابن طاهر وابن الجوزي أن هذا الحديث موضوع. وقد خولف عن مجاهد. رواه النسائي من طريق إبراهيم بن مجاهد عن مجاهد عن محمد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة بلفظ «لا يدخل الجنة ولد زنا. ولا شيء من نسله إلى سبعة آباء» وإبراهيم فيه ضعف. ورواه أيضا من رواية يزيد بن أبى زياد عن مجاهد عن أبى سعيد نحو حديث منصور الآتي. ويزيد ضعيف وروى النسائي أيضا من رواية شعبة عن منصور عن سالم بن أبى الجعد عن عبد اللّه بن شريك عن جابان عن عبد اللّه بن عمر بلفظ «لا يدخل ولد زانية الجنة» ومن رواية سفيان عن منصور بإسقاط عبد اللّه بن شريك. وأخرجه ابن حبان من الوجهين. وقال الطريقان محفوظان. إلا أن الثوري أعرف بحديث ملو.

رفعا على الذم وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك. والزنيم : من الزنمة وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة في حلقها ، لأنه زيادة معلقة بغير أهله أَنْ كانَ ذا مالٍ متعلق بقوله وَلا تُطِعْ يعنى ولا تطعه مع هذه المثالب ، لأن كان ذا مال. أى : ليساره وحظه من الدنيا. ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى : لكونه متمولا مستظهرا بالبنين كذب آياتنا «1» ولا يعمل فيه قالَ الذي هو جواب إذا ، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب. وقرئ : أأن كان؟ على الاستفهام على : إلا لأن كان ذا مال وبنين، كذب. أو أتطيعه لأن كان ذا مال. وروى الزبيري عن نافع : إن كان ، بالكسر والشرط للمخاطب ، أى : لا تطع كل حلاف شارطا يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله تعالى لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ الوجه : أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة. وقالوا الأنف في الأنف ، وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين. وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، «2» فكيف بها على أكرم موضع منه ، ولقد وسم العباس أباعر «3» في وجوهها ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أكرموا الوجوه» «4» فوسمها في جواعرها «5» وفي لفظ الخرطوم : استخفاف به واستهانة. وقيل معناه : سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما عادى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عداوة بان بها عنهم.

(1). قوله «كذب آياتنا» عبارة النسفي : كذب بآياتنا. (ع)
(2). قوله «و إذالة» في القاموس «أذلته» أهنته اه. (ع)
(3). قوله «أباعر» لعله أباعره بالاضافة إلى الضمير ، لأن الجمع أبعرة وأباعر ، كما في الصحاح. (ع)
(4). لم أره هكذا. وفي ابن حبان من حديث ابن عباس «أن العباس وسم بعيرا له. ودابة في وجهها فرآه النبي صلى اللّه عليه وسلم فغضب : فقال العباس : لا أسمه إلا في آخره فوسمه في جاعرتيه» وأصله في مسلم بلفظ «رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حمارا موسوم الوجه ، فأنكر ذلك فقال الرجل : واللّه لا أسمه إلا في أقصى شيء من الوجه. فأمر بحمار له فكوى في جاعرتيه. فهو أول من كوى في الجاعرتين ، زاد الطبراني «و كان الرجل الذي كوى : العباس بن عبد المطلب»
(5). قوله «فوسمها في جواعرها» الجاعرة : ما حول الدبر - أفاده الصحاح. (ع)

وقيل : خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه. وقيل : سنشهره بهذه الشتيمة في الدارين جميعا ، فلا تخفى ، كما لا تخفى السمة على الخرطوم. وعن النضر بن شميل : أن الخرطوم الخمر ، وأن معناه : سنحده على شربها وهو تعسف. وقيل للخمر : الخرطوم ، كما قيل لها : السلافة. وهي ما سلف من عصير العنب. أو لأنها تطير في الخياشيم.

[سورة القلم (68) : الآيات 17 إلى 33]

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (17) وَلا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ (23) أَنْ لا يَدْخُلَنَّها الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (28) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (30) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (31) عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (32) كَذلِكَ الْعَذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (33)

إنا بلونا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليهم كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين ، «1» فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقي ،

(1). قال محمود : «أصحاب الجنة قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين ... الخ» قال أحمد : وفائدة التنكير الإبهام تعظيما لما أصابها ، ومعنى كالصريم : أى لهلاك ثمرها. وقيل الصريم الليل ، لأنها احترقت واسودت. وقيل : النهار ، أى خالية فارغة من قولهم : بيض الإناء ، إذا فرغه. قلت : ومنه البياض من الأرض ، أى : الخالية من الشجر. ورد في الحديث ، ويستعمله الفقهاء في المساقاة ، ومعنى صارمين : حاصدين.
قال : وإنما عدل عن «إلى» في قوله عَلى حَرْثِكُمْ لأن غدوهم كان ليصرموه ، فهو غدو عليه ، ومعنى يَتَخافَتُونَ يسرون حديثهم خيفة من ظهور المساكين عليهم. وقوله أَنْ لا يَدْخُلَنَّها الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ مثل : لا أرينك هاهنا ، والحرد من حاردت السنة إذا منعت خيرها والمعنى : وغدوا على نكد ومنع غير عاجزين عن النفع. وقيل : الحرة السرعة ، أى : غدوا مسارعين نشطين لما عزموا عليه من الحرمان. ومعنى قادِرِينَ على هذا التأويل : عند أنفسهم. وقيل : حرد اسم الجنة المذكورة ، وقولهم إِنَّا لَضَالُّونَ قالوه في بديهة أمرهم دهشا لما رأوا ما لم يعهدوه فاعتقدوا أنهم ضلوا عنها وأنها ليست هي ، ثم لما تبينوا وأيقنوا أنها هي أضربوا عن الأول إلى قولهم بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ.

وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل ، وما في أسفل الأكداس ، «1» وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت ، فكان يجتمع لهم شيء كثير ، فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال ، فحلفوا ليصر منها مصبحين في السدف «2» خفية عن المساكين ، ولم يستثنوا في يمينهم ، فأحرق اللّه جنتهم. وقيل : كانوا من بنى إسرائيل مُصْبِحِينَ داخلين في الصبح مبكرين وَلا يَسْتَثْنُونَ ولا يقولون إن شاء اللّه. فإن قلت. لم سمى استثناء ، وإنما هو شرط؟ قلت : لأنه يؤدى مؤدى الاستثناء ، من حيث أن معنى قولك : لأخرجنّ إن شاء اللّه ، ولا أخرج إلا أن يشاء اللّه. واحد فَطافَ عَلَيْها بلاء أو هلاك طائِفٌ كقوله تعالى وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ وقرئ : طيف فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ كالمصرومة لهلاك ثمرها. وقيل : الصريم الليل ، أى. احترقت فاسودت. وقيل : النهار أى : يبست وذهبت خضرتها. أو لم يبق شيء فيها ، من قولهم : بيض الإناء ، إذا فرغه. وقيل الصريم الرمال صارِمِينَ حاصدين. فإن قلت : هلا قيل : اغدوا إلى حرثكم ، وما معنى عَلى ؟ قلت : لما كان الغدوّ إليه ليصرموه ويقطعوه : كان غدوّا عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدوّ. ويجوز أن يضمن الغدوّ معنى الإقبال ، كقولهم : يغدى عليه بالجفنة ويراح ، أى : فأقبلوا على حرثكم باكرين يَتَخافَتُونَ يتسارّون فيما بينهم.

وخفى ، وخفت ، وخفد : ثلاثتها في معنى الكتم ، ومنه : الخفدود للخفاش أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا أن مفسرة. وقرأ ابن مسعود بطرحها بإضمار القول ، أى يتخافتون يقولون لا يدخلنها ، والنهى عن الدخول للمسكين نهى لهم عن تمكينه منه ، أى : لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل ، كقولك : لا أرينك هاهنا. الحرد : من حردت السنة إذا منعت خيرها ، وحاردت الإبل إذا منعت درّها. والمعنى : وغدوا قادرين على نكد ، لا غير عاجزين عن النفع ، يعنى أنهم عزموا أن يتنكدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم ، فغدوا بحال فقر وذهاب مال لا يقدرون فيها إلا على النكد والحرمان ، وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة. أو وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها قادرين ، بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها ،

(1). قوله «و ما أسفل الأكداس» في الصحاح «الكدس» بالضم : واحد الأكداس الطعام (ع).
(2). قوله «مصبحين في السدف خفية» في الصحاح «السدفة» في لغة نجد : الظلمة ، وفي لغة غيرهم الضوء. (ع)

أى : غدوا حاصلين على الحرمان مكان الانتفاع ، أو لما قالوا اغدوا على حرثكم وقد خبثت نيتهم : عاقبهم اللّه بأن حاردت جنتهم وحرموا خيرها ، فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد. وقادِرِينَ من عكس الكلام للتهكم ، أى : قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين ، وعلى حرد ليس بصلة قادرين ، وقيل : الحرد بمعنى الحرد.

وقرئ : على حرد ، أى لم يقدروا إلا على حنق وغضب بعضهم على بعض ، كقوله تعالى يَتَلاوَمُونَ وقيل : الحرد القصد والسرعة ، يقال : حردت حردك. وقال : أقبل سيل جاء من أمر اللّه يحرد حرد الجنّة المغلّه «1» وقطا حراد : سراع ، يعنى : وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط ، قادرين عند أنفسهم ، يقولون : نحن نقدر على صرامها وزى «2» منفعتها عن المساكين. وقيل حَرْدٍ علم للجنة ، أى غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم. أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان قالُوا في بديهة وصولهم إِنَّا لَضَالُّونَ أى ضللنا جنتنا ، وما هي بها لما رأوا من هلاكها ، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا أَوْسَطُهُمْ أعدلهم وخيرهم ، من قولهم : هو من سطة قومه ، وأعطنى من سطات مالك. ومنه قوله تعالى أُمَّةً وَسَطاً. لَوْلا تُسَبِّحُونَ لولا تذكرون اللّه وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، كأن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا اللّه وانتقامه من المجرمين ، وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم ، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة ، فعصوه فعيرهم. والدليل عليه قولهم سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ، ولكن بعد خراب البصرة. وقيل : المراد بالتسبيح. الاستثناء لالتقائهما في معنى التعظيم للّه ، لأنّ الاستثناء تفويض إليه ، والتسبيح تنزيه له ، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم. وعن الحسن : هو الصلاة ، كأنهم كانوا يتوانون في الصلاة ، وإلا لنهتهم عن الفحشاء والمنكر ، ولكانت لهم لطفا في أن يستثنوا ولا يحرموا سُبْحانَ رَبِّنا سبحوا اللّه ونزهوه عن الظلم وعن كل قبيح ، ثم اعترفوا بظلمهم في منع المعروف وترك الاستثناء يَتَلاوَمُونَ يلوم بعضهم بعضا ، لأنّ منهم من زين ، ومنهم من قبل ، ومنهم من أمر بالكف وعذر ومنهم من عصى الأمر ،

(1). يصف سيلا بالكثرة ، ولذلك قال : من عند اللّه. ويروى : من أمر اللّه ، وحذفت الألف قبل الهاء من لفظ الجلالة لأنه جائز في الوقف. وحرد يحرد من باب ضرب ، بمعنى قصد وأسرع ، أى : يسرع إسراع الجنة أى البستان المغلة كثير الغلة والخير ، ومعنى إسراع الجنة : ظهور خيرها قبل غيرها في زمن يسير ، واختارها لأنها تنشأ عن السيل. [.....]
(2). قوله «وزى منفعتها» في الصحاح : تقول : زوى فلان المال عن وارثه زيا. (ع)

ومنهم من سكت وهو راض أَنْ يُبْدِلَنا قرئ بالتشديد والتخفيف إِلى رَبِّنا راغِبُونَ طالبون منه الخير راجون لعفوه كَذلِكَ الْعَذابُ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أشد وأعظم منه ، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال : لقد كلفتنى تعبا.

وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيرا منها. وروى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه : بلغني أنهم أخلصوا وعرف اللّه منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان : فيها عنب يحمل البغل منه عنقودا.

[سورة القلم (68) : آية 34]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34)

عِنْدَ رَبِّهِمْ أى في الآخرة جَنَّاتِ النَّعِيمِ ليس فيها إلا التنعم الخالص ، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنان الدنيا.

[سورة القلم (68) : الآيات 35 إلى 39]

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (39)

كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها ، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد اللّه المسلمين قالوا : إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في

(1). قال محمود : «هذا خطاب على وجه الالتفات لأهل مكة إذا اعتقدوا أنهم في الآخرة أكثر نعيما من المؤمنين ... الخ» قال أحمد : ولما كان الدرس قولا كسرها.
(2). قوله «إذا ضمنته منه وحلفت له» لعله : عنه ، وكذا قوله «منكم» لعله «عنكم» وفي الصحاح : ضمنته الشيء تضمينا فتضمنه عنى. (ع)

فإن قلت : بم يتعلق إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ؟ قلت : المقدر في الظرف ، أى : هي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا تخرج عن عهدتها إلا يومئذ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون. ويجوز أن يتعلق ببالغة ، على أنها تبلغ ذلكم اليوم وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم. وقرأ الحسن : بالغة ، بالنصب على الحال من الضمير في الظرف إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ جواب القسم ، لأنّ معنى أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا أم أقسمنا لكم.

[سورة القلم (68) : الآيات 40 إلى 41]

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (41)

أَيُّهُمْ بِذلِكَ الحكم زَعِيمٌ أى قائم به وبالاحتجاج لصحته ، كما يقوم الزعيم المتكلم عن القوم المتكفل بأمورهم أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ أى ناس يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون مذهبهم فيه فَلْيَأْتُوا بهم إِنْ كانُوا صادِقِينَ في دعواهم ، يعنى : أنّ أحدا لا يسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم به عند اللّه ، ولا زعيم لهم يقوم به.

[سورة القلم (68) : الآيات 42 إلى 43]

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ (43)

الكشف عن الساق والإبداء عن الخدام «1» : مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب ، وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهنّ في الهرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك.

قال حاتم : أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضّها وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا «2»

(1). قوله «و الإبداء عن الخدام» جمع خدمة ، وهي الخلخال. أفاده الصحاح ، وذلك كرقاب جمع رقبة. (ع)
(2). لجرير. ويروى بدل الشطر الأول :
ألا رب ساهى الطرف من آل مازن إذا شمرت .....
الخ وساهي الطرف : فاتر العين. وأخو الحرب : بمعنى أنه يألفها ويلازمها كالأخ. وشبه الحرب بفرس عضوه على طريق الكناية ، فأثبت لها العضد. وعضها : أى بلغ منها مراده. أو غلب أهلها ، فالعض استعارة لذلك على طريق التصريح. ويجوز أنه ترشيح للأولى. وقوله «به» يدل على أن العض وقع بجزئه. وقوله «عضها» يفيد أنه وقع بها كلها ، يعنى : أنه يكافئ أعداء ، وزيادة. والتشمير عن الساق : كناية عن اشتداد الأمر وصعوبته.
وأصله : أن يسند للإنسان ، لأن تشمير الثوب عن الساق لخوض لجة أو جرى أو نحوه ، فأسند للحرب لتشبيهها بالإنسان على طريق الكناية. وقوله «شمر» أى عن ساعده لا عن ساقه ، لأن تشمير الساعد كناية عن ملاقاة الأمر ومباشرته بنشاط وقوة ، وهو المراد. أو شمر عن ساقه وساعده دليل الإطلاق ، فيكون أبلغ من تشميرها. فان قلت : كان ينبغي ذكر التشمير قبل العض لأنه من باب الاستعداد، قلت : نعم لو بقي على معناه ، ولكن المراد به هنا شدة الأمر ، وصعوبة الحرب : زيادة على أصلها.

وقال ابن الرقيات :

تذهل الشّيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلة العذراء «1»

فمعنى يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ في معنى : يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل ، وإنما هو مثل في البخل.

وأما من شبه فلضيق عطنه «2» وقلة نظره في علم البيان ، والذي غرّه منه حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه : «يكشف الرحمن عن ساقه ، فأمّا المؤمنون فيخرّون سجدا «3» ، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقا طبقا كأنّ فيها سفافيد» «4» ومعناه : يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله ، وهو الفزع الأكبر يوم القيامة ، ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه ، لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن. فإن قلت : فلم جاءت منكرة في التمثيل؟ قلت : للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف ، كقوله يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل ، ويحكى هذا التشبيه عن مقاتل : وعن أبى عبيدة : خرج من خراسان رجلان ، أحدهما : شبه حتى مثل ، وهو مقاتل بن سليمان ، والآخر نفى حتى عطل

(1) كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلة العذراء
لعبيد بن قيس الرقيات. وكيف استفهام إنكارى ، بمعنى نفى النوم. ولما بمعنى لم ، إلا أن فيها استمرار النفي إلى زمن التكلم وتوقيع الوقوع بعده. وشبه الغارة وهي الحرب بماله إحاطة وشمول على طريق المكنية ، والشمول تخييل ، والشعواء الغاشية المنتشرة ، وإذهالها للشيخ عن بنيه : كناية عن اشتدادها ، وكذلك كشفها عن خدام العقيلة ، والخدام : الخلخال. وعقيلة كل شيء : أكرمه. ومن النساء المخدرة التي عقلت في خدرها. والعذراء :
التي يتعذر نوالها ويشق وصالها. وفيه الاقواء ، وهي اختلاف الروى بالضم والكسر. ويروى برفع العقيلة العذراء على أنه فاعل تبدى ، وجعله ابن جرير شاهدا على جواز حذف التنوين إذا تلاه ساكن ، وإن كان الكثير تحريكه حينئذ ، وعلى هذا فتحتاج هذه الجملة إلى رابط يعود على المنعوت وهو غارة ، والتقدير : وتبدى فيها العقيلة عن خلخال.
(2). «قوله وأما من شبه فلضيق عطنه» أى من قال بمذهب المشبهة على ما هو مقرر في علم الكلام ، كما سيشير إليه بعد. (ع)
(3). أخرجه الحاكم من طريق سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن ابن مسعود في أثناء حديث طويل ليس فيه تصريح برفعه. ورواه للطبري مختصرا.
(4). قوله «كأن فيها السفافيد» واحدها سفود بالتشديد ، وهي حديدة يشوى بها اللحم. أفاده الصحاح. (ع)

وهو جهم بن صفوان ، ومن أحس بعظم مضارّ فقد هذا العلم علم مقدار عظم منافعه. وقرئ : يوم نكشف بالنون. وتكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول جميعا ، والفعل للساعة أو للحال ، أى : يوم تشتدّ الحال أو الساعة ، كما تقول : كشفت الحرب عن ساقها على المجاز. وقرئ : تكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين ، من أكشف : إذا دخل في الكشف. ومنه. أكشف الرجل فهو مكشف ، إذا انقلبت شفته العليا. وناصب الظرف : فليأتوا. أو إضمار «اذكر» أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت ، فحذف للتهويل البليغ ، وإن ثم من الكوائن ما لا يوصف لعظمه. عن ابن مسعود رضى اللّه عنه : تعقم أصلابهم ، أى ترد عظاما بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض. وفي الحديث : وتبقى أصلابهم طبقا واحدا ، أى. فقارة واحدة. فإن قلت : لم يدعون إلى السجود ولا تكليف؟ قلت : لا يدعون إليه تعبدا وتكليفا ، ولكن توبيخا وتعنيفا على تركهم السجود في الدنيا ، مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة تحسيرا لهم وتنديما على ما فرّطوا فيه حين دعوا إلى السجود ، وهم سالمون الأصلاب «1» والمفاصل ممكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به.

[سورة القلم (68) : الآيات 44 إلى 45]

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)

يقال : ذرني وإياه ، يريدون كله إلىّ ، فإنى أكفيكه ، كأنه يقول : حسبك إيقاعا به أن تكل أمره إلىّ وتخلى بيني وبينه ، فإنى عامل بما يجب أن يفعل به مطيق له ، والمراد : حسبي مجازيا «2» لمن يكذب بالقرآن ، فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل علىّ في الانتقام منه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وتهديدا للمكذبين. استدرجه إلى كذا : إذا استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه. واستدراج اللّه العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة ، فيجعلوا رزق اللّه ذريعة ومتسلقا إلى ازدياد الكفر والمعاصي مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ أى : من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج وهو الإنعام عليهم ، لأنهم يحسبونه إيثارا لهم وتفضيلا على المؤمنين ، وهو سبب لهلاكهم وَأُمْلِي لَهُمْ وأمهلهم ، كقوله تعالى إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً والصحة والرزق والمدّ في العمر : إحسان من اللّه وإفضال يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يجعلونه سببا في الكفر باختيارهم ، فلما تدرجوا به إلى الهلاك وصف المنعم بالاستدراج. وقيل : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه.

(1). قوله «و هم سالمون الأصلاب» لعله سالمو الأصلاب بالاضافة. (ع)
(2). قوله «و المراد حسبي مجازيا» الاستعمال المعروف : حسبك بى مجازيا. أو حسبك اللّه مجازيا. (ع)

وسمى إحسانه وتمكينه كيدا كما سماه استدراجا ، لكونه في صورة الكيد حيث كان سببا للتورّط في الهلكة ، ووصفه بالمتانة لقوّة أثر إحسانه في التسبب للهلاك.

[سورة القلم (68) : الآيات 46 إلى 47]

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)

المغرم : الغرامة ، أى لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجرا ، فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم ، فيثبطهم ذلك عن الإيمان أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ أى اللوح فَهُمْ يَكْتُبُونَ منه ما يحكمون به.

[سورة القلم (68) : الآيات 48 إلى 50]

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)

لِحُكْمِ رَبِّكَ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ يعنى : يونس عليه السلام إِذْ نادى في بطن الحوت وَهُوَ مَكْظُومٌ مملوء غيظا ، من كظم السقاء إذا ملأه ، والمعنى : لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة ، فتبتلى ببلائه.

حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه. وقرأ ابن عباس وابن مسعود : تداركته. وقرأ الحسن : تداركه ، أى تتداركه على حكاية الحال الماضية ، بمعنى : لولا أن كان يقال فيه تتداركه ، كما يقال : كان زيد سيقوم فمنعه فلان ، أى كان يقال فيه سيقوم. والمعنى : كان متوقعا منه القيام.

ونعمة ربه : أن أنعم عليه بالتوفيق للتوبة وتاب عليه. وقد اعتمد في جواب «لولا» على الحال ، أعنى قوله وَهُوَ مَذْمُومٌ يعنى أنّ حاله كانت على خلاف الذمّ حين نبذ بالعراء ، ولولا توبته لكانت حاله على الذمّ. روى أنها نزلت بأحد حين حل برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما حل به ، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا. وقيل : حين أراد أن يدعو على ثقيف. وقرئ : رحمة من ربه فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فجمعه إليه ، وقربه بالتوبة عليه ، كما قال : ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ أى من الأنبياء. وعن ابن عباس : ردّ اللّه إليه الوحى وشفعه في نفسه وقومه.

[سورة القلم (68) : الآيات 51 إلى 52]

وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَما هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ(52)

إن مخففة من الثقيلة واللام علمها. وقرئ ، ليزلقونك بضم الياء وفتحها. وزلقه وأزلقه بمعنى : ويقال : زلق الرأس وأزلقه : حلقه : وقرئ : ليزهقونك ، من زهقت نفسه وأزهقها ، يعنى : أنهم من شدّة تحديقهم ونظرهم إليك شزرا بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك ، من قولهم : نظر إلىّ نظرا يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلنى ، أى : لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله. قال : يتقارضون إذا التقوا في موطن نظرا يزلّ مواطئ الأقدام «1»

وقيل : كانت العين في بنى أسد ، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء ، فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله إلا عانه ، فأريد بعض العيانين على أن يقول في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مثل ذلك ، فقال : لم أر كاليوم رجلا فعصمه اللّه. وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ أى القرآن لم يملكوا أنفسهم حسدا على ما أوتيت من النبوة وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ حيرة في أمره وتنفيرا عنه ، وإلا فقد علموا أنه أعقلهم. والمعنى : أنهم جننوه لأجل القرآن وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وموعظة لِلْعالَمِينَ فكيف يجنن من جاء بمثله.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة القلم أعطاه اللّه ثواب الذين حسن اللّه أخلاقهم» «2».

(1). يقول : إذا للتقوا في مجلس - وروى موطن - : يتقارضون ، أى : يقرض بعضهم بعضا بنظره إليه ، كأن أحدهم يعطى خصمه النظر ، والثاني يكافئه بنظره إليه حسدا وغيظا ، وإزلال مواطئ الأقدام : كناية عن الإهلاك ، لأن من زلت قدمه سقط على الأرض وربما هلك. أى : ينظر بعضهم بعضا نظر الحسود المغتاظ ، فتسبب عن ذلك زلل الأقدام عن مواطئها ، وإيقاع الازلال على مواضع الأقدام : مجاز عقلى ، لأنه محله ، وفيه مبالغة في زلل القدم.
(2). أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبى بن كعب.

سورة الحاقة

مكية ، وآياتها 52 [نزلت بعد الملك]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحاقة (69) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (6) سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (8)

الْحَاقَّةُ الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء ، التي هي آتية لا ريب فيها. أو التي فيها حواق الأمور من الحساب والثواب والعقاب. أو التي تحق فيها الأمور ، أى : تعرف على الحقيقة ، من قولك لا أحق هذا ، أى : لا أعرف حقيقته. جعل الفعل لها وهو لأهلها وارتفاعها على الابتداء وخبرها مَا الْحَاقَّةُ والأصل : الحاقة ما هي، أى أىّ شيء هي تفخيما لشأنها وتعظيما لهو لها ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، لأنه أهول لها وَما أَدْراكَ وأىّ شيء أعلمك ما الحاقة ، يعنى : أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها ، على أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه ، وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك ، وما في موضع الرفع على الابتداء. وأَدْراكَ معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام. بِالْقارِعَةِ التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال ، والسماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار. ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع. في الحاقة : زيادة في وصف شدتها ، ولما ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيرا لأهل مكة وتخويفا لهم من عاقبة تكذيبهم بِالطَّاغِيَةِ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة. واختلف فيها ، فقيل : الرجفة. وعن ابن عباس : الصاعقة. وعن قتادة : بعث الله عليهم صيحة فأهمدتهم.

وقيل : الطاغية مصدر كالعافية ، أى : بطغيانهم ، وليس بذاك لعدم الطباق بينها وبين قوله بِرِيحٍ صَرْصَرٍ والصرصر : الشديدة الصوت لها صرصرة. وقيل : الباردة من الصر ، كأنها التي كرر فيها البرد وكثر : فهي تحرق لشدة بردها عاتِيَةٍ شديدة العصف والعتوّ استعارة.

أو عتت على عاد ، فما قدروا على ردّها بحيلة ، من استتار ببناء ، أو لياذ بجبل ، أو اختفاء في حفرة ، فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم. وقيل : عتت على خزانها ، فخرجت بلا كيل ولا وزن : وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أرسل الله سفينة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من مطر إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح ، فإنّ الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه السبيل ، ثم قرأ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ وإن الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ «1» ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها. الحسوم : لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشهود وقعود. أو مصدرا كالشكور والكفور ، فإن كان جمعا فمعنى قوله حُسُوماً نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة.

أو متتابعة هبوب الرياح : ما خفتت ساعة حتى أتت عليهم تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء ، كرة بعد أخرى حتى ينحسم. وإن كان مصدرا : فإما أن ينتصب بفعله مضمرا ، أى : تحسم حسوما ، بمعنى تستأصل استئصالا. أو يكون صفة كقولك : ذات حسوم.

أو يكون مفعولا له ، أى : سخرها عليهم للاستئصال. وقال عبد العزيز ابن زرارة الكلابي : ففرّق بين بينهم زمان تتابع فيه أعوام حسوم «2»

وقرأ السدى : حسوما ، بالفتح حالا من الريح ، أى : سخرها عليهم مستأصلة. وقيل : هي أيام العجوز ، وذلك أن عجوزا من عاد توارت في سرب ، فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها.

وقيل : هي أيام العجز ، وهي آخر الشتاء وأسماؤها : الصن والصنبر ، والوبر. والآمر ،

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية موسى بن أعين عن الثوري عن موسى بن المسيب عن شهر بن حوشب عن ابن عباس مرفوعا. وأخرجه الطبري من طريق مهران بن أبى عمر عن سفيان موقوفا. [.....]
(2). لعبد العزيز بن زرارة الكلابي ، وأصل الكلام : ففرق بينهم زمان ، فبينهم ظرف للتفريق ، إلا أنه أراد المبالغة بجعل التفريق بين أجزاء هذا الظرف أيضا ، فقال : ففرق بين بينهم زمان ، وإذا فرق بين الظرف فقد فرق بين أصحابه بالضرورة ، فهو من باب الكناية. ويمكن أن بين الثاني كناية عن الوصلة التي بينهم ، ولعل أصله : ففرق بين ذات بينهم ، وبين سبب تفريق الزمان بينهم بوصفه بأنه تتابع فيه أعوام حسوم ، من الحسم :
وهو القطع ، والكي بالنار مرة بعد أخرى حتى ينقطع الدم. وظاهر كلام الجوهري أنه مفرد ، لأنه قال : أيام حسوم ، أى : مستأصلة. والحسوم : الشؤم. ويجوز أنه جمع حاسم كراكع وركوع ، وساجد وسجود ، أى : حاسمات وقاطعات لأبواب الخيرات.

والمؤتمر ، والمعلل ، ومطفئ الجمر. وقيل : مكفئ الظعن «1» ومعنى سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سلطها عليهم كما شاء فِيها في مهابها. أو في الليالي والأيام. وقرئ : أعجاز نخيل مِنْ باقِيَةٍ من بقية أو من نفس باقية. أو من بقاء ، كالطاغية : بمعنى الطغيان.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 9 إلى 10]

وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (10)

وَمَنْ قَبْلَهُ يريد : ومن عنده من تباعه. وقرئ : ومن قبله ، أى : ومن تقدمه. وتعضد الأولى قراءة عبد اللّه وأبى: ومن معه. وقراءة أبى موسى : ومن تلقاءه وَالْمُؤْتَفِكاتُ قرى قوم لوط بِالْخاطِئَةِ بالخطإ ، أو بالفعلة ، أو بالأفعال ذات الخطإ العظيم رابِيَةً شديدة زائدة في الشدة ، كما زادت قبائحهم في القبح. يقال : ربا الشيء يربو : إذا زاد لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 11 إلى 12]

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (12)

حَمَلْناكُمْ حملنا آباءكم فِي الْجارِيَةِ في سفينة ، لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين ، كان حمل آبائهم منة عليهم ، وكأنهم هم المحمولون ، لأن نجاتهم سبب ولادتهم لِنَجْعَلَها الضمير للفعلة : وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة تَذْكِرَةً عظة وعبرة أُذُنٌ واعِيَةٌ من شأنها أن تعى وتحفظ ما سمعت به ولا تضيعه بترك العمل ، وكل ما حفظته في نفسك فقد وعيته «2» وما حفظته في غير نفسك فقد أوعيته كقولك : وعيت الشيء في الظرف. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لعلىّ رضى اللّه عنه عند نزول هذه الآية «سألت اللّه أن يجعلها أذنك يا علىّ» قال علىّ رضى اللّه عنه : فما نسيت شيئا بعد وما كان لي أن أنسى «3». فإن قلت : لم قيل : أذن واعية، على التوحيد والتنكير؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن اللّه فهي السواد الأعظم عند اللّه ، وأن ما سواها لا يبالى بهم بالة وإن ملئوا ما بين الخافقين. وقرئ : وتعيها بسكون العين للتخفيف : شبه تعى بكبد.

(1). قوله «و قيل مكفئ الظعن» جمع ظعينة وهي الهودج ، أفاده الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «بقال وعيته أى حفظته في نفسك ... الخ» قال أحمد : هو مثل قوله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وقد ذكر أن فائدة التنكير والتوحيد فيه الاشعار قلة الناظرين.
(3). أخرجه سعيد بن منصور والطبري من رواية مكحول به مرسلا بتمامه نحوه. وأخرجه الثعلبي من طريق أبى حمزة الثمالي حدثني عبد اللّه بن حسن قال : حين نزلت فذكره بلفظ المصنف.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 13 إلى 18]

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (18)

أسند الفعل إلى المصدر ، وحسن تذكيره للفصل. وقرأ أبو السمال نفخة واحدة بالنصب مسندا للفعل إلى الجار والمجرور. فإن قلت : هما نفختان ، فلم قيل : واحدة «1»؟ قلت معناه أنها لا تثنى في وقتها. فإن قلت : فأى النفختين هي؟ قلت الأولى لأن عندها فساد العالم ، وهكذا الرواية عن ابن عباس. وقد روى عنه أنها الثانية. فإن

قلت : الملك أعمّ من الملائكة ، ألا ترى أن قولك : ما من ملك إلا وهو شاهد ، أعم من قولك : ما من ملائكة عَلى أَرْجائِها على جوانبها : الواحد رجا مقصور ، يعنى : أنها تنشق ، وهي مسكن الملائكة ، فينضوون «2» إلى أطرافها وما حولها من حافاتها «3» ثَمانِيَةٌ أى : ثمانية منهم.

(1). قال محمود : «إن قلت : لم قال واحدة وهما نفختان ... الخ»؟ قال أحمد : وأما فائدة الاشعار بعظم هذه للنفخة : أن المؤثر لدك الأرض والجبال وخراب العالم هي وحدها غير محتاجة إلى أخرى.
(2). قوله «فينضوون إلى أطرافها» في الصحاح ضويت إليه : أويت إليه وانضممت. (ع)
(3). قال محمود : «أى على حافتها لأنها تنشق تنضوى الملائكة الذين هي سكانها إلى أذيالها ... الخ» قال أحمد : كلاهما معرف تعريف الجنس ، فالواحد والجمع سواء في العموم.

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «هم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أيدهم اللّه بأربعة آخرين فيكونون ثمانية «1»» وروى : ثمانية أملاك : أرجلهم في تخوم الأرض السابعة ، والعرش فوق رؤسهم ، وهم مطرقون مسبحون. وقيل : بعضهم على صورة الإنسان ، وبعضهم على صورة الأسد ، وبعضهم على صورة الثور ، وبعضهم على صورة النسر. وروى : ثمانية أملاك في خلق الأوعال ، ما بين أظلافها إلى ركبها : مسيرة سبعين عاما. وعن شهر بن حوشب : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك. وعن الحسن : اللّه أعلم كم هم ، أثمانية أم ثمانية آلاف؟ وعن الضحاك : ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا اللّه. ويجوز أن تكون الثمانية من الروح ، أو من خلق آخر ، فهو القادر على كل خلق ، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون. العرض : عبارة عن المحاسبة والمساءلة.

شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله. وروى أنّ في يوم القيامة ثلاثة عرضات ، فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ ، وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله خافِيَةٌ سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا بستر اللّه عليكم.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 19 إلى 24]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (22) قُطُوفُها دانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (24)

فَأَمَّا تفصيل للعرض. ها : صوت يصوت به فيفهم منه معنى «خذ» كأف وحس ، وما أشبه ذلك «2». وكِتابِيَهْ منصوب بهاؤم عند الكوفيين ، وعند البصريين باقرءوا ، لأنه أقرب العاملين. وأصله : هاؤم كتابي اقرؤا كتابي، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه.

ونظيره آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً قالوا : ولو كان العامل الأوّل لقيل : اقرؤه وأفرغه. والهاء للسكت في كِتابِيَهْ ،

(1). أخرجه الطبري من طريق أبى إسحاق. قال : بلغنا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال - فذكره. وهو مذكور في الحديث الطويل الذي يرويه إسماعيل بن رافع عن زيد بن أبى زياد عن القرظي عن رجل عن أبى هريرة.
رواه أبو يعلى وغيره وقد تقدم.
(2). قوله «كأف وحس ، وما أشبه ذلك» يفهم من كل منهما معنى التضجر والتألم ، كما يفيده الصحاح. (ع)

وكذلك في حِسابِيَهْ ومالِيَهْ وسُلْطانِيَهْ وحق هذه الهاءات أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل ، «1» وقد استحب إيثار الوقف إيثارا لثباتها لثباتها في المصحف.

وقيل : لا بأس بالوصل والإسقاط. وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغير هاء. وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعا لاتباع المصحف ظَنَنْتُ علمت. وإنما أجرى الظن مجرى العلم ، لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام. ويقال : أظن ظنا كاليقين أنّ الأمر كيت وكيت راضِيَةٍ منسوبة إلى الرضا ، كالدارع والنابل. والنسبة نسبتان : نسبة بالحرف ، ونسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازا وهو لصاحبها عالِيَةٍ مرتفعة المكان في السماء. أو رفيعة الدرجات. أو رفيعة المبانى والقصور والأشجار دانِيَةٌ ينالها القاعد والنائم. يقال لهم كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً «2» أكلا وشربا هنيئا. أو هنيتم هنيئا على المصدر بِما أَسْلَفْتُمْ بما قدمتم من الأعمال الصالحة فِي الْأَيّامِ الْخالِيَةِ الماضية من أيام الدنيا.

وعن مجاهد : أيام الصيام ، أى : كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه اللّه.

وروى. يقول اللّه عز وجل : يا أوليائى طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة ، وغارت أعينكم ، وخمصت بطونكم ، فكونوا اليوم في نعيمكم ، وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 25 إلى 29]

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (26) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (27) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (29)

الضمير في يا لَيْتَها للموتة : يقول : يا ليت الموتة التي متها كانَتِ الْقاضِيَةَ أى القاطعة لأمرى ،

(1). قال محمود : «و حق هذه الهاءات يعنى في كتابيه وحسابيه وماليه وسلطانيه ... الخ» قال أحمد : تعليل القراءة باتباع المصحف عجيب مع أن المعتقد الحق أن القرآات السبع بتفاصيلها منقولة تواترا عن النبي صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم ، فالذي أثبت الهاء في الوصل إنما أثبتها من التواتر عن قراءة النبي صلى اللّه عليه وسلم : أيها كذلك قبل أن تكتب في المصحف ، وما نفس هؤلاء إلا إدخال الاجتهاد في القرآات المستفيضة ، واعتقاد أن فيها ما أخذ بالاختيار النظري وهذا خطأ لا ينبغي فتح بابه ، فانه ذريعة إلى ما هو أكبر منه ، ولقد جرت بيني وبين الشيخ أبى عمرو رحمه اللّه مفاوضة في قوله وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ على قراءة حفص ، انتهت إلى أن ألزم الرد على من أثبت الهاء في الوصل في كلمات سورة الحاقة. لأنى حجته بإثبات القراء المشاهير لها كذلك ، ففهمت من رده لذلك ما فهمه من كلام الزمخشري هاهنا ولم أقبله منه رحمه اللّه ، فتراجع عنه ، وكانت هذه المفاوضة بمكاتبة بيني وبينه ، وهي آخر ما كتب من العلوم على ما أخبرنى به خاصته ، وذلك صحيح لأنها كانت في أوائل مرضه رحمه اللّه ، واللّه أعلم.

(2). قوله «كلوا واشربوا هنيئا» في الصحاح : هنؤ الطعام وهنيء ، أى : صار هنيئا. وهنأنى الطعام يهنئني ويهنؤنى ، ولا نظير له في المهموز هنأ وهناء. وهنئت الطعام ، أى : تهنأت به ، وكلوه هنيئا مريئا. (ع)

فلم أبعث بعدها ، ولم ألق ما ألقى. أو للحالة ، أى : ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت علىّ ، لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته ، فتمناه عندها ما أَغْنى نفى أو استفهام على وجه الإنكار ، أى : أىّ شيء أغنى عنى ما كان لي من اليسار هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ ملكي وتسلطي على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا. وعن ابن عباس : أنها نزلت في الأسود بن عبد الأشد. وعن فناخسرة الملقب بالعضد ، أنه لما قال : عضد الدّولة وابن ركنها ملك الأملاك غلّاب القدر «1»

لم يفلح بعده وجنّ فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية. وقال ابن عباس : ضلت عنى حجتي.

ومعناه : بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 30 إلى 37]

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (37) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهي النار العظمى ، لأنه كان سلطانا يتعظم على الناس. يقال : صلى النار وصلاه النار. سلكه في السلسلة : أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أثناؤها ،

(1) ليس شرب الكأس إلا في المطر وغناء من جوار في سحر
غانيات سالبات النهى ناعمات في تضاعيف الوتر
مبردات الكأس من مطلعها ساقيات الكأس من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر
الحسن بن على الطوسي. وقيل لعضد الدولة نفسه ، يقول : ليس شرب الخمر الكامل اللذة إلا في حال المطر ، وفي حال غناء الجواري في السحر ، غانيات : جميلات مقيمات في العيون عذرات ، سالبات : ناهبات للنهى : جمع نهية وهي العقل ، ناعمات : أى متنعمات. وفي تضاعيف الوتر : متعلق بغناء. ويروى : ناغمات ، بالمعجمة ، أى :
محسنات لأصواتهن في أثناء صوت الوتر ، وهو الخيط المشدود في آلة اللهو. والراح : الخمر. وعضد الدولة :
بدل من الموصول المفعول بساقيات. والعضد في الأصل : استعارة للممدوح لأن به قوتها. كالعضد للإنسان.
والركن كذلك استعارة لأبيه يجامع التقوية أيضا ، وهو أقرب من تشبيه الدولة بالإنسان تارة وبالبناء أخرى ، على طريق المكنية ، ولكنهما الآن لقبان للممدوح وأبيه ، وذكر الضمير وإعادته على الدولة مع أنها جزء العلم في المحلين للمح الأصل كالاستعارة. والقدر: ما قدره الله وقضاه. وفي وصف ممدوحه بأنه غلاب القدر من فجور النساء ما لا يخفى ، ولذلك روى أنه جن وحبس لسانه حتى مات : وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «أغيظ الناس رجلا على الله يوم القيامة وأخبثهم : رجل تسمى ملك الأملاك ، ولا ملك إلا الله».

وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة ، وجعلها سبعين ذراعا إرادة الوصف بالطول ، كما قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة ، يريد : مرات كثيرة ، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد. والمعنى في تقديم السلسلة على السلك : مثله في تقديم الجحيم على النصلية. أى : لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم. ومعنى ثُمَّ الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم ، وما بينها وبين السلك في السلسلة ، لا على تراخى المدة إِنَّهُ تعليل على طريق الاستئناف ، وهو أبلغ ، كأنه قيل : ما له يعذب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بذلك. وفي قولَه وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين ، أحدهما : عطفه على الكفر ، وجعله قرينة له. والثاني : ذكر الحض دون الفعل ، ليعلم أنّ تارك الحض بهذه المنزلة ، فكيف بتارك الفعل ، وما أحسن قول القائل :

إذا نزل الأضياف كان عذوّرا على الحىّ حتّى تستقلّ مراجله «1»

يريد حضهم على القرى واستعجلهم وتشاكس عليهم «2». وعن أبى الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان ، أفلا نخلع نصفها الآخر؟ وقيل : هو منع الكفار. وقولهم : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ والمعنى على بذل طعام المسكين حَمِيمٌ قريب يدفع عنه ويحزن عليه ، لأنهم يتحامونه ويفرون منه ،

(1) تركنا فتى قد أيقن الجوع أنه إذا ما ثوى في أرحل القوم قاتله
فتى قد قد السيف لا متضائل ولا رهل لباته وأباجله
إذا نزل الأضياف كان عذورا على الحي حتى تستقل مراجله
قيل : إنه للعجير السلولي. وقيل : لزينب بنت الطثرية ترثى أخاها يزيد. واللبن الطائر والخاثر : بمعنى. شبه الجوع بإنسان عدو للقوم على سبيل المكنية ، وإثبات الإيقان له تخييل ، وكذلك قتله ، وهذا مبالغة في وصف يزيد بالكرم ، وأنه مانع للجوع من دخوله بيوت القوم ولحوقه بهم ، حتى كأن الجوع يخافه ويتيقن أنه إذا دخل بيوت القوم قتله يزيد. ويجوز أن فاعل ثوى : ضمير يزيد ، لكن الأول أبلغ ، لأنه يفيد أن الجوع لم يدخل على القوم لخوفه من يزيد ، وقد : فعل مبنى للمجهول ، وقد السيف : مفعول مطلق ، أى خلق على شكل السيف في المضي في المكان وتنفيذ العزائم. والمتضائل المتضاعف المتخاشع ، والرهل - كتعب - : الاسترخاء. والرهل - كحذر - : وصف منه ، وجمع اللبة باعتبار ما حولها. والأباجل : جمع أبجل ، وهو عرق غليظ في الفخذ والساق وفرس وهن الأباجل سريع الجري ، والعذور - بالعين المهملة وتشديد الواو - : سيئ الخلق قليل الصبر عن مطلوبه ، كأنه يحتاج إلى الاعتذار عن سوء خلقه. والمراجل : القدور العظام يقول : تركنا في المعركة فتى كريما جوادا سريعا في قرى الضيفان ، إذا نزلوا به كان سيئ الخلق على أهله ، حتى ترتفع قدوره الأثافى ، فيحسن خلقه كما كان.
(2). قوله «و تشاكس عليهم» في الصحاح : رجل شكس ، أى : صعب الخلق. (ع) [.....]

كقوله وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً. والغسلين : غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم ، فعلين من الغسل الْخاطِؤُنَ الآثمون أصحاب الخطايا. وخطئ الرجل : إذا تعمد الذنب «1» ، وهم المشركون : عن ابن عباس : وقرئ : الخاطيون ، بإبدال الهمزة ياء ، والخاطون بطرحها. وعن ابن عباس : ما الخاطون؟ كلنا نخطو. وروى عنه أبو الأسود الدؤلي : ما الخاطون؟ إنما هو الخاطئون ، ما الصابون؟ إنما هو الصابئون : ويجوز أن يراد : الذين يتخطون الحق إلى الباطل ، ويتعدّون حدود الله.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 38 إلى 43]

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (38) وَما لا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (41) وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (43)

هو إقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر. وقيل : الدنيا والآخرة ، والأجسام والأرواح ، والإنس والجنّ ، والخلق والخالق ، والنعم الظاهرة والباطنة ، إن هذا القرآن لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ أى يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند اللّه وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ ولا كاهن كما تدعون والقلة في معنى العدم. أى : لا تؤمنون ولا تذكرون ألبتة. والمعنى : ما أكفركم وما أغفلكم تَنْزِيلٌ هو تنزيل ، بيانا لأنه قول رسول نزل عليه مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ وقرأ أبو السمال : تنزيلا ، أى : نزل تنزيلا. وقيل «الرسول الكريم» جبريل عليه السلام ، وقوله وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ دليل على أنه محمد صلى اللّه عليه وسلم لأنّ المعنى على إثبات أنه رسول ، لا شاعر ولا كاهن.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 44 إلى 52]

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

(1). قوله «و خطئ الرجل إذا تعمد الذنب» في الصحاح : قال الأموى ، المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره. والخاطئ : من تعمد لما لا ينبغي. (ع)

التقوّل : افتعال القول «1» ، كأن فيه تكلفا من المفتعل. وسمى الأقوال المتقولة «أقاويل» تصغيرا بها وتحقيرا، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك ، كأنها جمع أفعولة من القول. والمعنى : ولو ادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبرا ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام ، فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول: وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته.

وخص اليمين عن اليسار لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه.

ومعنى لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ لأخذنا بيمينه ، كما أن قوله لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ لقطعنا وتينه ، وهذا بين. والوتين : نياط القلب وهو حبل الوريد : إذا قطع مات صاحبه. وقرئ : ولو تقول على البناء للمفعول. قيل حاجِزِينَ في وصف أحد ، لأنه في معنى الجماعة ، وهو اسم يقع في النفي العام مستويا فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ومنه قوله تعالى لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ والضمير في عنه للقتل ، أى : لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه. أو لرسول اللّه ، أى : لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه ، والخطاب للناس ، وكذلك في قوله تعالى وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وهو إبعاد على التكذيب. وقيل الخطاب للمسلمين. والمعنى : أن منهم ناسا سيكفرون بالقرآن وَإِنَّهُ الضمير للقرآن لَحَسْرَةٌ على الكافرين به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به. أو للتكذيب ، وأن القرآن اليقين حق اليقين ، كقولك : هو العالم حق العالم ، وجدّ العالم. والمعنى : لعين اليقين ، ومحض اليقين فَسَبِّحْ اللّه بذكر اسمه العظيم وهو قوله : سبحان اللّه ، واعبده شكرا على ما أهلك له من إيحائه إليك.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحاقة حاسبه اللّه حسابا يسيرا» «2».

(1). قال محمود : «التقول : افتعال من القول ، لأن فيه تكلفا ... الخ» قال أحمد : وبناء أفعولة من القول ، وهو معتل ، كما ترى غيب عن القياس التصريفى. ويحتمل أن تكون الأقاويل جمع الجمع ، كالأناعيم : جمع أقوال وأنعام ، وهو الظاهر ، واللّه أعلم.
(2). أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب.

سورة المعارج

مكية ، وآياتها 44 [نزلت بعد الحاقة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المعارج (70) : الآيات 1 إلى 18]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (1) لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَراهُ قَرِيباً (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (14) كَلاَّ إِنَّها لَظى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعى (18)

ضمن سَأَلَ معنى دعا ، فعدّى تعديته ، كأنه قيل : دعا داع بِعَذابٍ واقِعٍ من قولك : دعا بكذا. إذا استدعى وطلبه. ومنه قوله تعالى يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو النضر بن الحرث : قال إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وقيل : هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، استعجل بعذاب للكافرين. وقرئ. سال سائل ، وهو على وجهين : إما أن يكون من السؤال وهي لغة قريش ، يقولون : سلت تسأل ، وهما يتسايلان ، وأن يكون من السيلان. ويؤيده قراءة ابن عباس : سال سيل ، والسيل : مصدر في معنى السائل ، كالغور بمعنى الغائر. والمعنى : اندفع عليهم وادى عذاب فذهب بهم وأهلكهم. وعن قتادة : سأل سائل عن عذاب اللّه على من ينزل وبمن يقع؟ فنزلت ، وسأل على هذا الوجه مضمن معنى : عنى واهتم. فإن قلت : بم يتصل قوله لِلْكافِرِينَ؟ قلت : هو على القول الأوّل متصل بعذاب صفة له ، أى: بعذاب واقع كائن للكافرين ، أو بالفعل ، أى : دعا للكافرين بعذاب واقع. أو بواقع ، أى : بعذاب نازل لأجلهم ، وعلى الثاني : هو كلام مبتدأ جواب للسائل ، أى : هو للكافرين. فإن قلت : فقوله مِنَ اللَّهِ بم يتصل؟ قلت : يتصل بواقع ، أى واقع من عنده ، أو بدافع ، بمعنى : ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وأوجبت الحكمة وقوعه ذِي الْمَعارِجِ ذى المصاعد جمع معرج ، ثم وصف المصاعد وبعد مداها في العلو والارتفاع فقال: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ إلى عرشه وحيث تهبط منه أوامره فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ كمقدار مدة خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مما يعد الناس. والروح. جبريل عليه السلام ، أفرده لتميزه بفضله. وقيل : الروح خلق هم حفظة على الملائكة ، كما أنّ الملائكة حفظة على الناس. فإن قلت. بم يتعلق قوله فَاصْبِرْ؟ قلت : بسأل سائل ، لأنّ استعجال النصر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والتكذيب بالوحي ، وكان ذلك مما يضجر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأمر بالصبر عليه ، وكذلك من سأل عن العذاب لمن هو ، فإنما سأل على طريق التعنت ، وكان من كفار مكة. ومن قرأ : سال سائل ، أو سيل ، فمعناه : جاء العذاب لقرب وقوعه ، فاصبر فقد شارفت الانتقام ، وقد جعل فِي يَوْمٍ من صلة واقِعٍ أى : يقع في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم ، وهو يوم القيامة : إما أن يكون اسْتطالة له لشدّته على الكفار ، وإما لأنه على الحقيقة كذلك. قيل : فيه خمسون موطنا كل موطن ألف سنة ، وما قدر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر. الضمير في يَرَوْنَهُ للعذاب الواقع ، أو ليوم القيامة فيمن علق فِي يَوْمٍ بواقع ، أى : يستبعدونه على جهة الإحالة وَنحن نَراهُ قَرِيباً هينا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر ، فالمرادُ بالبعيد : البعيد من الإمكان ، وبالقريب : القريب منه. نصب يَوْمَ تَكُونُ بقريبا ، أى : يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم. أو بإضمار يقع ، لدلالة واقِعٍ عليه. أو يوم تكون السماء كالمهل. كان كيت وكيت. أو هو بدل عن فِي يَوْمٍ فيمن علقه بواقع كَالْمُهْلِ كدردىّ الزيت. وعن ابن مسعود : كالفضة المذابة في تلوّنها كَالْعِهْنِ كالصوف المصبوغ ألوانا ، لأنّ الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، فإذا بست وطيرت في الجو : أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً أى لا يسأله بكيف حالك ولا يكلمه ، لأن بكل أحد ما يشغله عن المساءلة يُبَصَّرُونَهُمْ أى يبصر الأحماء الأحماء ، فلا يخفون عليهم ، «1» فما يمنعهم من المساءلة أنّ بعضهم لا يبصر بعضا ،

(1). قال محمود : «معناه يبصر الأصدقاء أصدقاءهم فيعرفونهم ... الخ» قال أحمد : وفيه دليل على أن الفاعل والمفعول الواقعين في سياق النفي يعم ، كما التزم في : واللّه لا أشرب ماء من إداوة : أنه عام في المياه والأدوات ، خلافا لبعضهم في الأدوات.

وإنما يمنعهم التشاغل : وقرئ : يبصرونهم. وقرئ : ولا يسئل ، على البناء للمفعول ، أى : لا يقال الحميم أين حميمك ولا يطلب منه ، لأنهم يبصرونهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب. فإن قلت : ما موقع يبصرونهم؟ قلت : هو كلام مستأنف ، كأنه لما قال وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً قيل : لعله لا يبصره ، فقيل : يبصرونهم ، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم. فإن قلت : لم جمع الضميران في يُبَصَّرُونَهُمْ وهما للحميمين؟ قلت : المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين. ويجوز أن يكون يُبَصَّرُونَهُمْ صفة ، أى : حميما مبصرين معرّفين إياهم. قرئ : يومئذ ، بالجرّ والفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن ، ومن عذاب يومئذ ، بتنوين عَذابِ ونصب يَوْمِئِذٍ وانتصابه بعذاب ، لأنه في معنى تعذيب وَفَصِيلَتِهِ عشيرته الأدنون الذين فصل عنهم تُؤْوِيهِ تضمه انتماء إليها ، أو ليإذا بها في النوائب يُنْجِيهِ عطف على يفتدى ، أى : يودّ لو يفتدى ، ثم لو ينجيه الافتداء. أو من في الأرض. وثم : لاستبعاد الإنجاء ، يعنى : تمنى لو كان هؤلاء جميعا تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ، ثم ينجيه ذلك وهيهات أن ينجيه كَلاَّ ردّ للمجرم عن الودادة ، وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب، ثم قال إِنَّها والضمير للنار ، ولم يجر لها ذكر ، لأنّ ذكر العذاب دل عليها. ويجوز أن يكون ضميرا مبهما ترجم عنه الخبر ، أو ضمير القصة.

ولَظى علم للنار ، منقول من اللظى : بمعنى اللهب. ويجوز أن يراد اللهب. ونَزَّاعَةً خبر بعد خبر لأنّ ، أو خبر للظى إن كانت الهاء ضمير القصة ، أو صفة له إن أردت اللهب ، والتأنيث لأنه في معنى النار. أو رفع على التهويل ، أى : هي نزاعة. وقرئ نزاعة ، بالنصب على الحال المؤكدة ، أو على أنها متلظية نزاعة ، أو على الاختصاص للتهويل. والشوى : الأطراف. أو جمع شواة : وهي جلدة الرأس تنزعها نزعا فتبتكها «1» ثم تعاد تَدْعُوا مجاز عن إحضارهم ، كأنها تدعوهم فتحضرهم. ونحوه قول ذى الرمّة :

..... تدعو أنفه الرّبب «2»

(1). قوله «فتبتكها» أى : تقطعها. (ع)
(2) أمسى بوهبين مجتازا لمرتعه من ذى الفوارس تدعو أنفه الربب
لدى الرمة يصف ثورا وحشيا. ووهبين : اسم موضع ، وكذلك ذو الفوارس. والربب - بموحدتين - : جمع ربة وهي أول ما ينبت من الكلا. والدعاء : الطلب ، وهو هنا مجاز عن التسبب في الأمر ، لأن النبات الصغير سبب في وصول أنفه للأرض ، ليرعاه. ويجوز تشبيه الربب بالداعي ، والدعاء تخييل ، ثم يحتمل أن مرتعه من ذى الفوارس ويحتمل أنه سار من ذى الفوارس إلى وهبين. ويروى : مختارا ، أى : متخيرا ومتطلبا خير المراتع.

وقوله : ليالي اللّهو يطبينى فأتبعه «1»

وقول أبى النجم : تقول للرّائد أعشبت أنزل «2»

وقيل : تقول لهم : إلىّ إلىّ يا كافر يا منافق. وقيل : تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح.

ثم تلتقطهم التقاط الحب ، فيجوز أن يخلق اللّه فيها كلاما كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم ، وكما خلقه في الشجرة «3» ويجوز أن يكون دعاء الزبانية. وقيل : تدعو تهلك ، من قول العرب : دعاك اللّه ، أى : أهلكك. قال: دعاك الله من رجل بأفعى «4».

مَنْ أَدْبَرَ عن الحق وَتَوَلَّى عنه وَجَمَعَ المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤدّ الزكاة والحقوق الواجبة فيه ، وتشاغل به عن الدين ، وزهى باقتنائه وتكبر.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 191 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 168 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). قوله «و كما خلقه في الشجرة» على زعم المعتزلة أنه تكليم اللّه موسى ، كأنه كذلك. وعند أهل السنة أنه أطلعه على كلامه القديم القائم بذاته تعالى. (ع)
(4) دعاك اللّه من رجل بأفعي ضئيل تنفث السم الذعافا
دعاك ، أى : أهلك اللّه بأفعى يقال : دعاه اللّه بالمكروه : أنزله به ، ومن رجل : بيان واقع موقع الحال ، أو تمييز مقترن بمن. لأن ما قبله فيه معنى التعجب ، فيحتاج لتمييز جهة التعجب. وقال بعض النحاة :
قد يجيء التمييز لمجرد التوكيد ، فيكون هذا منه ، بأفعى بالتنوين : اسم للحية. وقيل ممنوع من الصرف ، لأنه صفة للحية الشديدة السم ، والذعاف : أى الشديد القاتل ، ضئيل : ضعيفة مهزولة. والنفث : إخراج النفس مع بلل ، وهو هنا إخراج السم الذعاف كغراب: المسرع القتل. ويحتمل أن «دعاك اللّه» من باب المجاز ، كأن اللّه دعاه؟؟؟
لقتله بالأفعى. أو طلبه بأفعى أرسلها إليه لتحضره بإهلاكه. وخص المهزولة لأنها أشد إيذاء من غيرها ، وقال ضئيل ، مع أن موصوفه مؤنث على حد : إن رحمة اللّه قريب ، والمذكر : أفعوان. ويروى «ينفث» على أن الأفعى واحد من الجنس فهو مذكر.

[سورة المعارج (70) : الآيات 19 إلى 35]

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (29) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (34) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)

أريد بالإنسان الناس ، فلذلك استثنى منه إلا المصلين. والهلع : سرعة الجزع عند مسّ المكروه وسرعة المنع عند مسّ الخير ، من قولهم : ناقة هلواع سريعة السير. وعن أحمد بن يحيى قال لي محمد بن عبد اللّه بن طاهر: ما الهلع؟ فقلت : قد فسره اللّه ، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره ، وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدّة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس.

والخير : المال والغنى ، والشرّ : الفقر. أو الصحة والمرض : إذا صحّ الغنى منع المعروف وشحّ بماله ، وإذا مرض جزع وأخذ يوصى. والمعنى : إن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه ورسوخهما فيه ، كأنه مجبول عليهما مطبوع «1» ، وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختيارى ، كقوله تعالى خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع ، ولأنه ذمّ واللّه لا يذمّ فعله ، والدليل عليه : استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره وظلّفوها عن الشهوات ، «2» حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «شرّ ما أعطى ابن آدم شحّ هالع وجبن «3» خالع» فإن قلت : كيف قال عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ ثم على صلاتهم يحافظون؟ قلت : معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ، كما روى عن النبي صلى اللّه عليه

(1). قال محمود : «المعنى أن الإنسان لايثاره الجزع والمنع ورسوبهما فيه كأنه ... الخ» قال أحمد : هو يشرك باطنا وينزه ظاهرا ، فينفى كون الهلع الذي هو موجود للآدمي مخلوقا للّه تعالى تنزيها له عن ذلك ، ويثبت خالقا مع اللّه ، ويتغافل عن اقتضاء نظم الآية لذلك ، فإنك إذا قلت : بريت القلم رقيقا ، فقد نسبت إليك الحال وهو ترقيقه ، كما نسب إليك البرى ، وكذلك الآية. وأما قوله : واللّه لا يذم خلقه ، فاللّه تعالى له الحمد على كل حال ، وإنما المذموم العبد بحجة أنه جعل فيه اختيارا يفرق بالضرورة بين الاختياريات والقسريات ألا للّه الحجة البالغة واللّه أعلم.
(2). قوله : «و ظلفوها عن الشهوات» في الصحاح : ظلف نفسه عن الشيء ، أى : منعها من أن تفعله أو تأتيه. (ع)
(3). أخرجه أبو داود وابن حبان وأحمد وإسحاق والبزار كلهم من طريق عبد العزيز بن مروان : سمعت أبا هريرة بهذا ، لكن قال «شر ما في الرجل»

وسلم «أفضل العمل أدومه وإن قلّ» «1» وقول عائشة : كان عمله ديمة «2». ومحافظتهم عليها : أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسنتها وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط «3» باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها حَقٌّ مَعْلُومٌ هو الزكاة ، لأنها مقدرة معلومة ، أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها في أوقات معلومة. السائل : الذي يسأل وَالْمَحْرُومِ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيا فيحرم يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ تصديقا بأعمالهم واستعدادهم له ، ويشفقون من عذاب ربهم.

واعترض بقوله إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ أى لا ينبغي لأحد وان بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه. وينبغي أن يكون مترجحا بين الخوف والرجاء. قرئ : بشهادتهم وبشهاداتهم. والشهادة من جملة الأمانات. وخصها من بينها إبانة لفضلها ، لأنّ في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها. وفي زيها : تضييعها وإبطالها.

[سورة المعارج (70) : الآيات 36 إلى 44]

فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (37) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (40) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (44)

كان المشركون يحتفون حول النبي صلى اللّه عليه وسلم حلقا حلقا وفرقا فرقا ، يستمعون ويستهزءون بكلامه ، ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم ، فنزلت مُهْطِعِينَ مسرعين نحوك ، مادّى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك عِزِينَ فرقا شتى جمع عزة ،

(1). متفق عليه من حديث عائشة. [.....]
(2). متفق عليه من حديثها رضى اللّه عنها.
(3). قال محمود : «أى لا يتركونها في وقت ولا يحبطونها ... الخ» قال أحمد : حفظها من الإحباط نص عند أهل السنة على حفظها من الكفر خاصة ، فلا يحبط ما سواء خلافا للقدرية ، وقد تقدمت أمثاله واللّه أعلم.

وأصلها عزوة ، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى فهم مفترقون. قال الكميت : ونحن وجندل باغ تركنا كتائب جندل شتّى عزينا «1»

وقيل : كان المستهزءون خمسة أرهط كَلَّا ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة ، ثم علل ذلك بقوله إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ إلى آخر السورة ، وهو كلام دال على إنكارهم البعث ، فكأنه قال : كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء ، فمن أين يطمعون في دخول الجنة؟ فإن قلت : من أى وجه دل هذا الكلام على إنكار البعث؟ قلت : من حيث أنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى ، كالاحتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل ، وذلك قوله خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ أى من النطف ، وبالقدرة على أن يهلكهم ويبدل ناسا خيرا منهم ، وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكوينه لا يعجزه شيء ، والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة. ويجوز أن يراد : إنا خلقناهم مما يعلمون ، أى : من النطفة المذرة ، وهي منصبهم الذي لا منصب أوضع منه.

ولذلك أبهم وأخفى : إشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره ، فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون : لندخلن الجنة قبلهم. وقيل : معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بنى آدم كلهم ، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح ، فلم يطمع أن يدخلها من ليس له إيمان وعمل. وقرئ : برب المشرق والمغرب. ويخرجون ، ويخرجون. ومن الأجداث سراعا ، بالإظهار والإدغام. ونصب ، ونصب : وهو كل ما نصب فعبد من دون اللّه يُوفِضُونَ يسرعون إلى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصابهم.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة سأل سائل أعطاه اللّه ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» «2».

(1). الكميت. والكتائب : جمع كتيبة وهي الجماعة. وشتى : جمع شتيت ، كمرضى ومريض ، وعزين : جمع عزة ، أصلها عزو ، فعوضت التاء عن الواو ، من عزاه إلى كذا ، أى : نسبه إليه ، لأن بعضها ينتسب إلى بعض.
أو لأنها تنتسب إلى رئيسها. أو إلى أصلها الأعلى ، وهذا كناية عن قتله مع كثرة جيشه.
(2). أخرجه الثعلبي والراحدى وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب ،

سورة نوح عليه السلام

مكية ، وهي ثمان وعشرون آية [نزلت بعد النحل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة نوح (71) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (1) قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

أَنْ أَنْذِرْ أصله : بأن أنذر ، فحذف الجار وأوصل الفعل : وهي أن الناصبة للفعل ، والمعنى : أرسلناه بأن قلنا له أنذر ، أى : أرسلناه بالأمر بالإنظار. ويجوز أن تكون مفسّرة ، لأنّ الإرسال فيه معنى القول. وقرأ ابن مسعود: أنذر بغير «أن» على إرادة القول. وأَنِ اعْبُدُوا نحو أَنْ أَنْذِرْ في الوجهين. فإن قلت : كيف قال وَيُؤَخِّرْكُمْ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل ، وهل هذا إلا تناقض؟ قلت : قضى اللّه مثلا أنّ قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة ، فقيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى ، أى : إلى وقت سماه اللّه وضربه أمدا تنتهون إليه لا تتجاوزونه ، وهو الوقت الأطول تمام الألف. ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ، ولم تكن لكم حيلة ، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير.

[سورة نوح (71) : الآيات 5 إلى 20]

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً (6) وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (19) لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (20)

لَيْلًا وَنَهاراً دائبا من غير فتور مستغرقا به الأوقات كلها فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي جعل الدعاء فاعل زيادة الفرار. والمعنى على أنهم ازدادوا عنده فرارا ، لأنه سبب الزيادة. ونحوه فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ ، فَزادَتْهُمْ إِيماناً لِتَغْفِرَ لَهُمْ ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم ، فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصا ليكون أقبح لإعراضهم عنه. سدّوا مسامعهم عن استماع الدعوة وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وتغطوا بها ، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم ، أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين اللّه. وقيل : لئلا يعرفهم ، ويعضده قوله تعالى أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ. الإصرار : من أصر الحمار على العانة «1» إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها : استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها وَاسْتَكْبَرُوا وأخذتهم العزة من «2» اتباع نوح وطاعته ، وذكر المصدر تأكيد ودلالة على فرط استقبالهم وعتوهم. فإن قلت : ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا ، ثم دعاهم جهارا ، ثم دعاهم في السرو العلن ، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف. قلت : قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر : في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة في السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان. ومعنى ثُمَّ الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين ، أغلظ من إفراد أحدهما.

(1). قوله «من أصر الحمار على العانة» هي القطيع من حمر الوحش ، والكدم : العض بأدنى الفم. أفاده الصحاح. وفيه : صر الفرس أذنيه ضمها إلى رأسه ، فإذا لم يوقعوا قالوا : أصر الفرس بالألف اه ، يعنى : إذا لم يجعلوا الفعل متعديا إلى مفعول. (ع)
(2). قوله «و أخذتهم العزة من اتباع نوح» لعله : عن. (ع)

وجِهاراً منصوب بدعوتهم ، نصب المصدر لأنّ الدعاء أحد نوعيه الجهار ، فنصب به نصب القرفصاء بقعد ، لكونها أحد أنواع القعود. أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم. ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا ، بمعنى دعاء جهارا ، أى : مجاهرا به. أو مصدرا في موضع الحال ، أى : مجاهرا.

أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي ، وقدّم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحبّ إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجلة ، ترغيبا في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين ، كما قال وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ وقيل : لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة : حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة. وروى : سبعين.

فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضى الله عنه : أنه خرج يستسقى ، فما زاد على الاستغفار ، فقيل له : ما رأيناك استسقيت! فقال : لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر «1». شبه الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ.

وعن الحسن : أنّ رجلا شكا إليه الجدب فقال. استغفر الله ، وشكا إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أبوابا ويسألون أنواعا ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار! فتلا له هذه الآية. والسماء : المظلة لأنّ المطر منها ينزل إلى السحاب ، ويجوز أن يراد السحاب أو المطر ، من قوله.

إذا نزل السّماء بأرض قوم «2»

والمدرار : الكثير الدرور ، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث ، كقولهم : رجل أو امرأة معطار ومتفال جَنَّاتٍ بساتين لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً لا تأملون له توقيرا أى تعظيما.

والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب «3» ، لِلَّهِ بيان للموقر ،

(1). أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة والطبراني في الدعاء والطبري وغيرهم من رواية الشعبي : أن عمر ... بهذا وزاد : ثم قرأ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً ورجاله ثقات ، إلا أنه منقطع.
(2) إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
تطلق السماء على المظلة ، وعلى السحاب ، وعلى المطر كما هنا ، لما فيه من السمو والارتفاع ، وتطلق على النبات مجازا ، لأن المطر سببه ، فلذلك قال : رعيناه ، ففي الكلام استخدام ، حيث أطلق السماء بمعنى ، وأعاد عليها الضمير بمعنى آخر ، والغضاب : جمع غضبان والمعنى : أننا شجعان دون غيرنا.
(3). قال محمود : «ما لكم لا تكونون على حال يكون فيها تعظيم الله تعالى ... الخ» قال أحمد : وهذا التفسير يبقى الرجاء على بابه الخ.

ولو تأخر لكان صلة للوقار. وقوله وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً في موضع الحال ، كأنه قال : ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه وهي حال موجبة للإيمان به ، لأنه خلقكم أطوارا : أى تارات : خلقكم أوّلا ترابا ، ثم خلقكم نطفا ، ثم خلقكم علقا ، ثم خلقكم مضغا ، ثم خلقكم عظاما ولحما ، ثم أنشأكم خلقا آخر. أو لا تخافون لله حلما وترك معاجلة العقاب فتؤمنوا؟ وقيل : ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ وعن ابن عباس : لا تخافون لله عاقبة ، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب ، من «وقر» إذا ثبت واستقرّ. نبههم على النظر في أنفسهم أوّلا ، لأنها أقرب منظور فيه منهم ، ثم على النظر في العالم وما سوّى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السماوات والأرض والشمس والقمر فِيهِنَّ في السماوات ، وهو في السماء الدنيا ، لأنّ بين السماوات ملابسة من حيث أنها طباق «1» فجاز أن يقال : فيهنّ كذا ، وإن لم يكن في جميعهنّ ، كما يقال : في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما : أنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء وظهورهما مما يلي الأرض «2» وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره ، والقمر ليس كذلك ، إنما هو نور لم يبلغ قوّة ضياء الشمس. ومثله قوله تعالى هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً والضياء : أقوى من النور.

استعير الإنبات للإنشاء ، كما يقال : زرعك الله للخير ، وكانت هذه الاستعارة أدلّ على الحدوث «3» ، لأنهم إذا كانوا نباتا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات : ومنه قيل للحشوية : النابتة والنوابت ، لحدوث مذهبهم في الإسلام من غير أوّلية لهم فيه «4». ومنه قولهم : نجم فلان لبعض المارقة. والمعنى : أنبتكم فنبتم نباتا. أو

(1). قال محمود : «و إنما هو في السماء الدنيا لأن بين السماوات وبين السماء الدنيا مناسبة» قال أحمد : ويلاحظ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ.
(2). حديث ابن عباس موقوف ، أخرجه ابن مردويه في يونس من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عنه بهذا. بلفظ «و أقفيتهما إلى الأرض» وروى الحاكم منه ذكر القمر حسب. وحديث ابن عمر رضى اللّه عنهما مثله» أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : قال عبد اللّه بن عمر : فذكره موقوفا. وروى الطبري من طريق هشام الدستوائى عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد اللّه بن عمر. «تنبيه» وقع في الأصل ابن عمر مصحف. وإنما هو عمر ورضى اللّه عنهما.
(3). قوله «أدل على الحدوث» لعله : أدل دليل على الحدوث. (ع)
(4). قوله «من غير أولية لهم فيه» إن كان مراده بالحشوية أهل السنة ، فأوليتهم في مذهبهم : الكتاب والسنة. (ع)

[سورة نوح (71) : الآيات 21 إلى 24]

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (21) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22) وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (24)

وَاتَّبَعُوا رؤسهم المقدمين أصحاب الأموال والأولاد ، وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الأصنام ، وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزدهم إلا وجاهة ومنفعة في الدنيا زائدة خَساراً في الآخرة ، وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها ، تحقيقا له وتثبيتا ، وإبطالا لما سواه. وقرئ : وولده بضم الواو وكسرها وَمَكَرُوا معطوف على لم يزده ، وجمع الضمير وهو راجع إلى من ، لأنه في معنى الجمع والماكرون: هم الرؤساء.

ومكرهم : احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح ، وتحريش الناس على أذاه ، وصدّهم عن الميل إليه والاستماع منه. وقولهم لهم : لا تذرون آلهتكم إلى عبادة رب نوح مَكْراً كُبَّاراً قرئ بالتخفيف والتثقيل. والكبار : أكبر من الكبير. والكبار : أكبر من الكبار ، ونحوه : طوال وطوّال وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم ، فخصوها بعد قولهم لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب ، فكان ودّ لكلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير ، ولذلك سمت العرب بعبد ودّ وعبد يغوث. وقيل هي أسماء رجال صالحين. وقيل : من أولاد آدم ماتوا ، فقال إبليس لمن بعدهم : لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ، ففعلوا ، فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم. وقيل : كان ودّ على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر. وقرئ : ودّا ، بضم الواو. وقرأ الأعمش : ولا يغوثا ويعوقا ، بالصرف ، وهذه قراءة مشكلة ، لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببا منع الصرف : إما التعريف ووزن الفعل ، وإما التعريف والعجمة ، ولعله قصد الازدواج فصرفهما ، لمصادفته أخواتهما منصرفات ودا وسواعا ونسرا ، كما قرئ : وضحاها بالإمالة ، لوقوعه مع الممالات للازدواج وَقَدْ أَضَلُّوا الضمير للرؤساء. ومعناه : وقد أضلوا كَثِيراً قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام ليسوا بأوّل من أضلوهم. أو وقد أضلوا بإضلالهم كثيرا ، يعنى أنّ هؤلاء المضلين فيهم كثرة. ويجوز أن يكون للأصنام ، كقوله تعالى إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ. فإن قلت : علام عطف قوله وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ؟ قلت : على قوله رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد قالَ وبعد الواو النائبة عنه : ومعناه : قال رب إنهم عصوني ، وقال : لا تزد الظالمين إلا ضلالا ، أى : قال هذين القولين وهما في محل النصب ، لأنهما مفعولا «قال» كقولك : قال زيد نودي للصلاة وصل في المسجد ، تحكى قوليه معطوفا أحدهما على صاحبه. فإن قلت : كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو اللّه بزيادته؟ قلت : المراد بالضلال : أن يخذلوا «1» ويمنعوا الألطاف «2» ، لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم ، وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به ، بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال : الضياع والهلاك ، لقوله تعالى وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً.

[سورة نوح (71) : الآيات 25 إلى 27]

مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (25) وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً (27)

تقديم مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان ، فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم ، وأكد هذا المعنى بزيادة «ما» وفي قراءة ابن مسعود : من خطيئاتهم ما أغرقوا ، بتأخير الصلة ، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا ، فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم ، وإن كانت كبراهنّ. وقد نعيت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم ، ولم يفرق بينه وبينهن في استيجاب العذاب ، لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه ، ويعلم أنّ معه ما يستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى. وقرئ : خطيئاتهم بالهمزة. وخطياتهم بقلبها ياء وإدغامها. وخطاياهم. وخطيئتهم. بالتوحيد على إرادة الجنس. ويجوز أن يراد الكفر فَأُدْخِلُوا ناراً جعل دخولهم النار في الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم ، لاقترابه ، ولأنه كائن لا محالة ، فكأنه قد كان. أو أريد عذاب القبر. ومن مات في ماء أو في نار أو أكلته السباع والطير : أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب. وتنكير النار إما لتعظيمها ، أو لأن اللّه أعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعا من النار فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً تعريض باتخاذهم آلهة من دون اللّه وأنها غير قادرة على نصرهم ،

(1). قوله «يخذلوا ويمنعوا مبنى على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر ولا يفعله ، وأجيب : بأنه إنما دعا عليهم بذلك بعد أن أعلمه اللّه تعالى أنهم لا يؤمنون ، حيث قال له : إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن.
وهذا على مذهب أهل السنة الذين أجازوا أنه تعالى يفعل الشر كخلق الضلال في القلب ، لأن فعله لا يخلو عن حكمة. (ع) [.....]
(2). قال محمود : «كيف جاز أن يريد الضلال ، وأجاب بأن المراد به منع الألطاف» قلت : هذا على قاعدته.

وتهكم بهم ، كأنه قال : فلم يجدوا لهم من دون اللّه آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب اللّه ، كقوله تعالى أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا. دَيَّاراً من الأسماء المستعملة في النفي العام ، يقال : ما بالدار ديار وديور ، كقيام وقيوم ، وهو فيعال من الدور. أو من الدار ، أصله ديوار ، ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت ، ولو كان فعالا لكان دوّارا. فإن قلت : بم علم أن أولادهم يكفرون ، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة؟ قلت : لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم ، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ، ويقول : احذر هذا ، فإنه كذاب ، وإن أبى حذرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ، وقد أخبره اللّه عزّ وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، ومعنى لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر. فوصفهم بما يصيرون إليه ، كقوله عليه السلام «من قتل قتيلا فله سلبه» «1»

[سورة نوح (71) : آية 28]

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً (28)

وَلِوالِدَيَّ أبوه لمك بن متوشلخ ، وأمه شمخا بنت أنوش : كانا مؤمنين. وقيل. هما آدم وحواء. وقرأ الحسين بن على : ولولدي ، يريد : ساما وحاما بَيْتِيَ منزلي. وقيل : مسجدى. وقيل : سفينتي ، خص أوّلا من يتصل به ، لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عم المؤمنين والمؤمنات تَباراً هلاكا. فإن قلت : ما فعل صبيانهم حين أغرقوا؟ قلت : غرقوا معهم لا على وجه العقاب «2» ، ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت ، وكم منهم من يموت بالغرق والحرق ، وكأن ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمّهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون.

(1). متفق عليه ، وقد تقدم.
(2). قال محمود : «ما موجب إغراقهم حين أغرقوا ، وأجاب بأنهم ما أغرقوا لا على وجه العقاب ... الخ» قال أحمد : هذا السؤال مفصح عما في باطنه من وجوب تعليل أفعال اللّه تعالى ، وعليه يبنى أنه لا يجوز الألم من اللّه تعالى إلا باستحقاق سابق ، أو لأعواض مترقبة ، أو لغير ذلك من المصالح ، بناء على القاعدة لهم في الصلاح والأصلح والصبيان لا جناية سبقت منهم ولا عوض يترقب فيهم. فبرد السؤال على ذلك. وأما أهل السنة فاللّه تعالى قد تكفل الجواب عنهم بقوله لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهذا الكلام بالنظر إلى خصوص واقعة قوم نوح ، وينجر الكلام منها إلى حكم اللّه علينا في العدو إذا خيف من مقاتلتهم بالآلات على ذراريهم أن ذلك لا يوجب الاكفاف عن مقاتلتهم بالآلات المهلكة لهم والمذرية ، ويستدل برمي النبي صلى اللّه عليه وسلم على أهل الطائف بالمجانيق. وقيل له فيهم الذرية ، فقال : هم من آبائهم ، وأما رميهم بالنار وفيهم الذرية : فمنعه مالك رحمه اللّه ، إلا أن يخاف غائلتهم فيرمون بها إن لم يندفعوا بغيرها ، واللّه تعالى أعلم.

ومنه قوله عليه السلام «يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى» «1» وعن الحسن : أنه سئل عن ذلك فقال : علم اللّه براءتهم فأهلكهم بغير عذاب. وقيل : أعقم اللّه أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة ، فلم يكن معهم صبى حين أغرقوا.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام» «2».

سورة الجنّ

مكية ، وآياتها 28 [نزلت بعد الأعراف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجن (72) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (2) وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً (3) وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5)

قرئ : أحى ، وأصله وحى ، يقال : أوحى إليه ووحى إليه ، فقلبت الواو همزة ، كما يقال : أعد وأزن وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة ، وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضا كإشاح وإسادة ، وإعاء أخيه ، وقرأ ابن أبى عبلة : وحى على الأصل أَنَّهُ اسْتَمَعَ بالفتح ، لأنه فاعل أوحى. وإنا سمعنا : بالكسر : لأنه مبتدأ محكي بعد القول ، ثم تحمل عليهما البواقي ، فما كان من الوحى فتح ، وما كان من قول الجنّ كسر : وكلهن من قولهم إلا الثنتين الأخريين وَأَنَّ الْمَساجِدَ ، وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ ومن فتح كلهنّ فعطفا على محل الجار والمجرور في آمنا به ،

(1). أخرجه مسلم من طريق ابن الزبير عن عائشة رضى الله عنها.
(2). أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب.

كأنه قيل : صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا ، وأنه كان يقول سفيهنا ، وكذلك البواقي نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقيل : كانوا من الشيصبان ، وهم أكثر الجنّ عددا وعامة جنود إبليس منهم فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا أى : قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم ، كقوله فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً ، عَجَباً بديعا مباينا لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه ، قائمة فيه دلائل الإعجاز. وعجب مصدر يوضع موضع العجيب. وفيه مبالغة : وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ يدعو إلى الصواب. وقيل : إلى التوحيد والإيمان. والضمير في بِهِ للقرآن ، ولما كان الإيمان به إيمانا باللّه وبوحدانيته وبراءة من الشرك : قالوا وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً أى : ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به في طاعة الشيطان. ويجوز أن يكون الضمير للّه عز وجل ، لأنّ قوله بِرَبِّنا يفسره جَدُّ رَبِّنا عظمته من قولك : جدّ فلان في عينى ، أى : عظم. وفي حديث عمر رضى اللّه عنه : كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا. وروى في أعيننا «1». أو ملكه وسلطانه. أو غناه ، استعارة من الجد الذي هو الدولة والبخت ، لأن الملوك والأغنياء هم المجدودون. والمعنى : وصفه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته. أو لسلطانه وملكوته. أو لغناه. وقوله مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً بيان لذلك. وقرئ : جدّا ربنا ، على التمييز. وجدّ ربنا ، بالكسر : أى صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد ، وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان : تنبهوا على الخطإ فيما اعتقده كفرة الجنّ من تشبيه اللّه بخلقه واتخاذه صاحبة وولدا ، فاستعظموه ونزهوه عنه. سفيههم : إبليس لعنه اللّه أو غيره من مردة الجن. والشطط : مجاوزة الحدّ في الظلم وغيره. ومنه : أشط في السوم ، إذا أبعد فيه ، أى : يقول قولا هو في نفسه شطط ، لفرط ما أشط فيه ، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى اللّه ، وكان في ظننا أنّ أحدا من الثقلين لن يكذب على اللّه ولن يفترى عليه ما ليس بحق ، فكنا نصدّقهم فيما أضافوا إليه من ذلك ، حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم وافتراؤهم كَذِباً قولا كذبا ، أى : مكذوبا فيه. أو نصب نصب المصدر لأنّ الكذب نوع من القول. ومن قرأ : أن لن تقوّل : وضع كذبا موضع تقوّلا ، ولم يجعله صفة ، لأنّ التقوّل لا يكون إلا كذبا.

[سورة الجن (72) : الآيات 6 إلى 7]

وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (7)

(1). لم أره عن عمر ، بل هو عن أنس ، كما مضى في البقرة.

والرهق : غشيان المحارم. والمعنى : أنّ الإنس باستعاذتهم بهم زادوهم كبرا وكفرا ، وذلك أنّ الرجل من العرب كان إذا أمسى في واد قفر في بعض مسايره وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا : سدنا الجن والإنس ، فذلك رهقهم. أو فزاد الجن الإنس رهقا بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم وَأَنَّهُمْ وأنّ الإنس ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ وهو من كلام الجن ، يقوله بعضهم لبعض.

وقيل : الآيتان من جملة الوحى. والضمير في وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا للجنّ ، والخطاب في ظَنَنْتُمْ لكفار قريش.

[سورة الجن (72) : الآيات 8 إلى 9]

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (9)

اللمس : المس ، فاستعير للطلب ، لأنّ الماس طالب متعرّف. قال : مسسنا من الآباء شيئا وكلّنا إلى نسب في قومه غير واضع «1»

يقال : لمسه والتمسه وتلمسه «كطلبه وأطلبه وتطلبه» ونحوه : الجس. وقولهم جسوه بأعينهم وتجسسوه. والمعنى : طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها. والحرس : اسم مفرد في معنى الحرّاس ، كالخدم في معنى الخدّام ، ولذلك وصف بشديد ، ولو ذهب إلى معناه لقيل : شدادا ، ونحوه أخشى رجيلا أو ركيبا غاديا «2» لأنّ الرجل والركب مفردان في معنى الرجال والركاب. والرصد : مثل الحرس : اسم جمع للراصد ،

(1) مسسنا عن الآباء شيئا فكلنا إلى نسب في قومه غير واضع
فلما بلغنا الأمهات وجدتم بنى عمكم كانوا كرام المضاجع
ليزيد بن الحاكم الكلابي. ومسسنا : أى نلنا ، فالمس مجاز مرسل ، فكل منا ينتمي إلى نسب في قومه غير منخفض ويروى : إلى حسب ، فاستوينا من جهة الآباء في التفاخر ، فلما بلغنا فيه ذكر الأمهات وجدتم أقاربكم كرام المضاجع كناية عن الأزواج. أو عبر باسم المحل عن الحال فيه ، وهن الأزواج مجازا مرسلا ، وكرم النساء مذموم ، لأنه كناية عن الخنا ، كما يكنى ببخلهن عن العفة ، فلسنا سواء في الأمهات.
(2) أخشى رجيلا أو ركيبا غاديا والذئب أخشاه وكلبا عاويا
الرجيل : تصغير رجل. والركيب : تصغير ركب. غاديا : أى سائرا في الغداة على العادة. يقول : أخاف لهرمى.
وضعفى الرجل الصغير والركب القليل. والذئب : نصب بمضمر ، كالمذكور على الاشتغال. أى : وأخشى الذئب وكلبا عطف عليه. أو نصب بمضمر ، أى : وأخشى كلبا عاويا. والجملة معطوفة على جملة «أخشى رجيلا» وعيد الكلب بكونه علويا ، لئلا يتوهم كذبه في دعواه.

على معنى : ذوى شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ، ويمنعونهم من الاستماع. ويجوز أن يكون صفة للشهاب ، بمعنى الراصد أو كقوله : ..... ومعى جياعا «1»

يعنى. يجد شهابا راصدا له ولأجله. فإن قلت : كأن الرجم لم يكن في الجاهلية ، وقد قال اللّه تعالى وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ فذكر فائدتين «2» في خلق الكواكب : التزيين ، ورجم الشياطين؟ قلت : قال بعضهم حدث بعد مبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو إحدى آياته ، والصحيح أنه كان قبل المبعث ، وقد جاء ذكره في شعر أهل الجاهلية. قال بشر بن أبى خازم : والعير يرهقها الغبار وجحشها ينقض خلفهما انقضاض الكوكب «3»

(1). قوله : «و معى جياعا» في الصحاح المعى واحد الأمعاء والجياع جمع الجائع. وأول البيت :
كأن قتود رحلي حين ضمت حوالب غزرا ومعى جياعا
والقتود : جمع قتد ، وهو خشب الرحل. (ع)
(2). قال محمود : «إن قلت كأن الرجم لم يكن في الجاهلية. وقد قال تعالى وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ فذكر فائدتى الزينة والرجم ... الخ» قال أحمد : ومن عقائدهم أن الرشد والضلال جميعا مرادان للّه تعالى بقولهم وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل ، والمراد بالمريد : هو اللّه عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد ، فجمعوا بين العقيدة الصحيحة والآداب المليحة.
(3) والعير يرهقها الحبار وجحشها ينقض خلفهما انقضاض الكوكب
فعلاهما سبط كأن ضبابه محبوب صادات دواجر تنضب
فتجاريا شأوا بطيئا مثله هيهات شأوهما وشأو التولب
لبشر بن أبى خازم. والعير : الحمار يرهقها : يكلفها ، أى : الأتان. والجبار - بضم المهملة ، وقيل بفتحها - :

الأثر من كل شيء ، وبالمعجمة : الأرض اللينة. وروى : الغبار ، والانقضاض : الاسراع ، والسبط : الغبار الممتد ، والضباب : ندى يغشى الأرض بالغدوات. والصاد : الديك الذي ينكت التراب فيثير غباره ، ويطلق على القدر من النحاس ومن البرام ، وعلى داء في الرأس يداوى بالكي بالنار. قيل : وعلى العلم ، وفسر به هنا. والدواجر :
التواشط ، من دجر إذا نشط سرورا ، أو المظلمات. والليل الدجور والديجور : المظلم. وتنضب : اسم شجر دخانه أبيض ، وعلم على قرية قريبة من مكة. والشأو : الطلق ، يقال : شأى كسهى ، إذا سبق غيره. والتولب :
الجحش إذا مضى عليه سنة واحدة ، يقول : إن حمار الوحش يكلف أتانه اقتفاء أثره عند الجري ، وجحشها يسرع خلفها كاسراع شهاب الرجم ، فارتفع فوقهما ممتد من الغبار ، كأن ما أشبه الضباب منه غبار أثارته الديكة لأنها تحبه ، وكأنه مرتفع «خان ذلك الشجر أو مظلمة ، لأنه يحجب الضوء وإن كان أبيض ، فدواجر خبر بعد خبر.
ويجوز أنه على حذف العاطف ، فقد أجازه السيرافي وابن عصفور وابن مالك ، ومنعه ابن جنى والسهيلي ، وخرجا ما يوهمه على بدل الاضراب ، ويجوز ذلك هنا أيضا ، فشبه التيار بثلاثة أشياء ، ثم قال : فتجاريا شوطا طويلا مثله ، وإثبات البعد للمثل كناية عن إثباته للشأو. ويحتمل أن ضمير مثله للجحش ، فهو بالنصب. ثم قال : بعد ما بين شوطهما وشوطه كأنه تأخر. ويحتمل أن المعنى : بعد كل من الشوطين وطال.

وقال أوس بن حجر : وانقضّ كالدّرّي يتبعه نقع يثور تخاله طنبا «1»

وقال عوف بن الخرع : يردّ علينا العير من دون إلفه أو الثّور كالدّرّىّ يتبعه الدّم «2»

ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال ، فلما بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة حتى تنبه لها الإنس والجن ، ومنع الاسترق أصلا. وعن معمر : قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال : نعم. قلت : أرأيت قوله تعالى وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ فقال : غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى اللّه عليه وسلم. وروى الزهري عن على بن الحسين عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟

فقالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم «3». وفي قوله مُلِئَتْ دليل على أن الحادث هو المل والكثرة ، وكذلك قوله نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، والآن ملئت المقاعد كلها ، وهذا ذكر ما حملهم على الضرب في البلاد حتى عثروا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واستمعوا قراءته.

(1). لأوس بن حجر يصف فرسا بشدة العدو والسرعة ، كالكوكب الدري نسبة للدر لصفاته ، أو مأخوذ من الدرء لدرئه الظلام ، يتبعه : أى الفرس نقع ، أى غبار ينتشر تظنه طنبا بضمتين ، وهو حبل الخيمة كما يتبع الدري شعاعه ممتدا عند هويه ، فقد شبه النقع بالطنب تصريحا ، وبشعاع الكوكب : ضمنا.
(2). لعوف بن الخرع ، يصف فرسا بشدة العدو في الصيد ، وأنه يرد عليه الحمار الوحشي حال كونه. أى الحمار من دون إلفه أى بقربه أو يرده من دونه ، أى من قربه ، وإذا رده من جنب ألفه كان رده وهو وحده أهون عليه ، لأنه إذا كان مع إلفه كان أشد فرارا. ويجوز أن المعنى : حال كون الحمار بدون إلفه أى منفردا لا إلف معه يوجب ارتباكه. أو يرد علينا الثور الوحشي حال كونه ، أى الثور ، كالدرى. أو حال كون الفرس كالدرى ، أى : كالكوكب نسبة للدر لصفاء جوهره وإضاءته. أو من الدرة ، أى : الدفع ، لأنه يدرؤ الظلام حال كون الكوكب يتبعه عند سقوطه من السماء خط أحمر من ضوئه يشبه الدم ، فالدم : استعارة مصرحة.
(3). أخرجه مسلم من رواية الأوزاعي عن الزهري عن على بن الحسين عن ابن عباس أخبرنى رجال من الأنصار ، وقال «بينما هم جلوس - فذكره مطولا» ورواه الترمذي من رواية معمر عن الزهري عن على بن الحسين عن ابن عباس قال «بينما - فذكره» ولم يقل : أخبرنى رجال. [.....]

[سورة الجن (72) : آية 10]

وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10)

يقولون : لما حدث هذا الحادث من كثرة الرجم ومنع الاسترق ، قلنا : ما هذا إلا لأمر أراده اللّه بأهل الأرض ، ولا يخلو من أن يكون شرا أو رشدا ، أى : خيرا ، من عذاب أو رحمة ، أو من خذلان أو توفيق.

[سورة الجن (72) : آية 11]

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (11)

مِنَّا الصَّالِحُونَ منا الأبرار المتقون وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ ومنا قوم دون ذلك ، فحذف الموصوف ، كقوله وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه.

أو أرادوا الطالحين كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً بيان للقسمة المذكورة ، أى : كنا ذوى مذاهب مفترقة مختلفة. أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة. أو كنا في طرائق مختلفة ، كقوله : كما عسل الطّريق الثّعلب «1»

أو كانت طرائقنا طرائق قددا على حذف المضاف الذي هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه والقدّة من قدّ ، كالقطعة من قطع ، ووصفت الطرائق بالقدد ، لدلالتها على معنى التقطع والتفرّق.

[سورة الجن (72) : آية 12]

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (12)

فِي الْأَرْضِ وهَرَباً حالان ، أى : لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها ، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء. وقيل : لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمرا ، ولن نعجزه هربا إن طلبنا. والظن بمعنى اليقين ، وهذه صفة أحوال الجن وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم : منهم أخيار ، وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أنّ اللّه عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ولا ينجى عنه مهرب.

[سورة الجن (72) : آية 13]

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً (13)

لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى هو سماعهم القرآن وإيمانهم به فَلا يَخافُ فهو لا يخاف ، أى فهو غير خائف ، ولأنّ الكلام في تقدير مبتدإ وخبر دخلت الفاء ، ولولا ذاك لقيل : لا يخف.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 92 فراجعه إن شئت اه مصححه.

فإن قلت : أى فائدة : في رفع الفعل وتقدير مبتدإ قبله حتى يقع خبرا له ووجوب إدخال الفاء ، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال. لا يخف؟ قلت : الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك ، فكأنه قيل : فهو لا يخاف ، فكان دالا على تحقيق أنّ المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره وقرأ الأعمش : فلا يخف ، على النهى بَخْساً وَلا رَهَقاً أى جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يبخس أحدا حقا ولا رهق ظلم أحد «1» فلا يخاف جزاءهما. وفيه دلالة على أن من حق من آمن باللّه أن يجتنب المظالم. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «المؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم» «2» ويجوز أن يراد : فلا يخاف أن يبخس بل يجزى الجزاء الأوفى ، ولا أن ترهقه ذلة ، من قوله عز وجل وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ.

[سورة الجن (72) : الآيات 14 إلى 15]

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14) وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15)
الْقاسِطُونَ الكافرون الجائرون عن طريق الحق. وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه : أنّ الحجاج قال له حين أراد قتله : ما تقول فيّ؟ قال : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل ، فقال الحجاج : يا جهلة ، إنه سماني ظالما مشركا ، وتلا لهم قوله تعالى أَمَّا الْقاسِطُونَ وقوله تعالى ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ وقد زعم من لا يرى للجن ثوابا أنّ اللّه تعالى أوعد قاسطيهم وما وعد مسلميهم ، وكفى به وعدا أن قال فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً فذكر سبب الثواب وموجبه ، واللّه أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد.

[سورة الجن (72) : الآيات 16 إلى 17]

وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (17)

وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا أن مخففة من الثقيلة ، وهو من جملة الموحى. والمعنى : وأوحى إلىّ أن الشأن والحديث لو استقام الجن على الطريقة المثلى ،

(1). قوله «و لا رهق ظلم أحد» في الصحاح : رهقه بالكسر يرهقه رهقا ، أى : غشيه. (ع)
(2). أخرجه ابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد بهذا. وأتم منه. وفي الباب عن أبى هريرة بلفظ «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» وأخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم. وعن أنس أخرجه ابن حبان والحاكم أيضا. وعن أبى مالك الأشعرى وواثلة بن الأسقع ، أخرجهما الطبراني مطولا. وأخرج حديث واثلة أبو يعلى. وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أخرجه عبد بن حميد.

أى : لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة اللّه والطاعة ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام ، لأنعمنا عليهم ولوسعنا رزقهم. وذكر الماء الغدق وهو الكثير بفتح الدال وكسرها.

وقرئ بهما ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خوّلوا منه. ويجوز أن يكون معناه : وأن لو استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاسماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم ، لنفتنهم فيه : لتكون النعمة سببا في اتباعهم شهواتهم ، ووقوعهم في الفتنة ، وازديادهم إثما ، أو لنعذبهم في كفران النعمة عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ عن عبادته أو عن موعظته أو عن وحيه يَسْلُكْهُ وقرئ بالنون مضمومة ومفتوحة ، أى : ندخله عَذاباً والأصل : نسلكه في عذاب ، كقوله ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ فعدّى إلى مفعولين : إمّا بحذف الجار وإيصال الفعل ، كقوله وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ وإمّا بتضمينه معنى «ندخله» يقال : سلكه وأسلكه. قال : حتّى إذا أسلكوهم في قتائدة «1»

والصعد : مصدر صعد ، يقال : صعد صعدا وصعودا ، فوصف به العذاب ، لأنه يتصعد المعذب أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. ومنه قول عمر رضى اللّه عنه : ما تصعدنى شيء ما تصعدتنى خطبة النكاح «2» ، يريد : ما شق علىّ ولا غلبني.

[سورة الجن (72) : آية 18]

وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18)

وَأَنَّ الْمَساجِدَ من جملة الموحى. وقيل معناه : ولأن المساجد لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا على أنّ اللام متعلقة بلا تدعوا ، أى : فلا تدعوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً في المساجد ، لأنها للّه خاصة ولعبادته.

وعن الحسن : يعنى الأرض كلها ، لأنها جعلت للنبي صلى اللّه عليه وسلم مسجدا. وقيل : المراد بها المسجد الحرام ، لأنه قبلة المساجد. ومنه قوله تعالى وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وعن قتادة : كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا باللّه ، فأمرنا أن نخلص للّه الدعوة إذا دخلنا المساجد. وقيل: المساجد أعضاء السجود السبعة. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أمرت أن أسجد على سبعة آراب : وهي الجبهة ، والأنف ، واليدان ،

(1). قوله «إذا أسلكوهم في قتائدة» في الصحاح : «قتائدة» اسم عقبة. قال عبد مناف بن ربع :
حتى إذا أسلكوهم في قتائدة شلا كما تطرد الجمالة الشردا
والشل : الطرد. والشرد : جمع شارد ، كالخدم جمع خادم. (ع)
(2). حدثني أبو عبيدة في الغريب من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عمر بهذا ، وهو منقطع.

والركبتان ، والقدمان «1»». وقيل : هي جمع مسجد وهو السجود.

[سورة الجن (72) : آية 19]

وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)

عَبْدُ اللَّهِ النبي صلى اللّه عليه وسلم. فإن قلت : هلا قيل : رسول اللّه أو النبي؟ قلت : لأن تقديره : وأوحى إلىّ أنه لما قام عبد اللّه. فلما كان واقعا في كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن نفسه : جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل. أو لأن المعنى أن عبادة عبد اللّه للّه ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر ، حتى يكونوا عليه لبدا. ومعنى قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ قام يعبده ، يريد : قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن فاستمعوا لقراءته صلى اللّه عليه وسلم كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً أى يزدحمون عليه متراكمين تعجبا مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به قائما وراكعا وساجدا ، وإعجابا بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم

[سورة الجن (72) : الآيات 20 إلى 28]

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (28)

(1). أخرجه البزار من حديث العباس بهذا اللفظ ، لكن قال «الوجه عوض الجبهة والأنف» ورواه الأربعة في السنن من حديثه بلفظ «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب : وجهه وكفاه وقدماه وركبتاه» وفي الصحيحين عن ابن عباس مرفوعا «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم» وفي لفظ «أعضاء» وعند أبى داود «أمرت» وقال «أمر نبيكم صلى اللّه عليه وسلم أن يسجد على سبعة آراب»

قُلْ للمتظاهرين عليه «1» إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي يريد : ما أتيتكم بأمر منكر ، إنما أعبد ربى وحده وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً وليس ذاك مما يوجب إطباقكم على مقتى وعداوتي. أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين : ليس ما ترون من عبادتي اللّه ورفضى الإشراك به بأمر يتعجب منه ، إنما يتعجب ممن يدعو غير اللّه ويجعل له شريكا. أو قال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وَلا رَشَداً ولا نفعا. أو أراد بالضر : الغىّ ، ويدل عليه قراءة أبىّ «غيا ولا رشدا» والمعنى : لا أستطيع أن أضركم وأن أنفعكم ، إنما الضارّ والنافع اللّه «2». أو لا أستطيع أن أقسركم على الغىّ والرشد ، إنما القادر على ذلك اللّه عز وجل : وإِلَّا بَلاغاً استثناء منه. أى لا أملك إلا بلاغا من اللّه «3». وقُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفى الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه ، على معنى أنّ اللّه إن أراد به سوءا من مرض أو موت أو غيرهما : لم يصح أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملاذا يأوى إليه : والملتحد الملتجأ ، وأصله المدّخل ، من اللحد. وقيل : محيصا ومعدلا. وقرئ: قال لا أملك ،

(1). قوله «قال للمتظاهرين عليه» هذه قراءة غير عاصم وحمزة ، كذا في النسفي ، وهو يفيد أن قراءتهما قُلْ بصيغة الأمر ، كأنه سقط من كلام المصنف ذكر هذه القراءة فليحرر.

(2). قال محمود : «معناه أى لا أستطيع أن أنفعكم أو أضركم إنما النافع والضار اللّه عز وجل ... الخ» قال أحمد : في الآية دليل بين على أن اللّه تعالى هو الذي يملك لعباده الرشد والغى أى يخلقهما لا غير ، فان النبي صلى اللّه عليه وسلم إنما سلب ذلك عن قدر» ليمحض إضافته إلى قدرة اللّه وحده ، وفطن الزمخشري لذلك فأخذ يعمل الحبل ، فتارة يحمل الرشد على مطلق النفع ، فيضيف ذلك إلى اللّه تعالى ، وتارة يكنع عنه لأن فيه إبطالا لخصوصية الرشد المنصوص عليه في الآية ، فيثور له من تقليده الرأى الفاسد ثوائر تصرفه عن الحق وعن اعتقاد أن اللّه تعالى هو الذي يخلق الرشد لعبيده مقارنا لاختيارهم ، فيدخل زيادة القسر ، لأن معنى ما ورد من إضافة الرشد إلى قدرة انه تعالى عندهم أنه يخلق أن يخضع لها الرقاب ، فيخلق العبد لنفسه عند ظهورها رشدا. فيضاف إلى قدرة اللّه تعالى ، لأنه خلق السبب وهو في الحقيقة مخلوق بقدرة العبد «هذه قاعدة القدرية وعقيدتهم ، وما الجن بعد هذا إلا أوفر منهم عقلا وأسد منهم نظرا ، لأنهم قالوا : وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، فأضافوا الرشد نفسه إلى إرادة اللّه عز وجل وقدرته.

(3). قال محمود : «هو اعتراض. وقوله إِلَّا بَلاغاً استثناء من قوله لا أَمْلِكُ أى لا أملك لكم إلا بلاغا.
وقيل بلاغا بدل من ملتحدا ... الخ» قال أحمد : فيكون تقدير الكلام : بلاغا من اللّه مستفادا من قوله قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً.

أى قال عبد اللّه للمشركين أو للجن. ويجوز أن يكون من حكاية الجن لقومهم. وقيل بَلاغاً بدل من مُلْتَحَداً أى : لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلنى به. وقيل : إِلَّا هي «إن لا» ومعناه : أن لا أبلغ بلاغا ، كقولك : إن لا قياما فقعودا وَرِسالاتِهِ عطف على بلاغا ، كأنه قيل : لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات. والمعنى: إلا أن أبلغ عن اللّه فأقول : قال اللّه كذا ، ناسبا لقوله إليه ، وأن أبلغ رسالاته التي أرسلنى بها من غير زيادة ولا نقصان.

فإن قلت : ألا يقال : بلغ عنه. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «بلغوا عنى بلغوا عنى»؟ «1» قلت : من ليست بصلة للتبليغ ، إنما هي بمنزلة من في قوله بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ بمعنى بلاغا كائنا من اللّه. وقرئ : فأن له نار جهنم ، على : فجزاؤه أنّ له نار جهنم ، كقوله فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ أى : فحكمه أنّ للّه خمسه. وقال خالِدِينَ حملا على معنى الجمع في من. فإن قلت : بم تعلق «حتى» ، وجعل ما بعده غاية له؟ قلت : بقوله يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ، ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ من يوم بدر وإظهار اللّه له عليهم. أو من يوم القيامة فَسَيَعْلَمُونَ حينئذ أنهم أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال : من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده ، كأنه قال : لا يزالون على ما هم عليه حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ قال المشركون : متى يكون هذا الموعود؟ إنكارا له ، فقيل قُلْ إنه كائن لا ريب فيه ، فلا تنكروه ، فإن اللّه قد وعد ذلك وهو لا يخلف الميعاد. وأما وقته فما أدرى متى يكون ، لأنّ اللّه لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة. فإن قلت : ما معنى قوله أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً والأمد يكون قريبا وبعيدا ألا ترى إلى قوله تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً؟ قلت : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يستقرب الموعد ، فكأنه قال : ما أدرى أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية أى : هو عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ فلا يطلع. وإِنْ رَسُولٍ تبيين لمن ارتضى ، يعنى : أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة ، لا كل مرتضى. وفي هذا إبطال للكرامات «2» ، لأنّ الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين ، فليسوا برسل «3». وقد

(1). أخرجه البخاري من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاصي بلفظ «بلغوا عنى ولو آية ... الحديث».
(2). قوله «و في هذا إبطال للكرامات» إبطالها مذهب المعتزلة ، وإثباتها مذهب أهل السنة ، وهي لا تنحصر في الاخبار بالغيب. (ع)
(3). قال محمود : «إبطال للكرامات ، لأنه حصر ذلك في المرتضى من الرسل ، والولي وإن كان من المرتضين ... الخ» قال أحمد: ادعى عاما واستدل خاصا ، فان دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها ، والمدلول عليه بالآية إبطال اطلاع الولي على الغيب خاصة، ولا يكون كرامة وخارق للعادة إلا الاطلاع على الغيب لا غير ، وما القدرية إلا ولهم شبهة في إبطالها ، وذلك أن اللّه عز وجل لا يتخذ منهم وليا أبدا وهم لم يحدثوا بذلك عن أشياعهم فط ، فلا جرم أنهم يستمرون على الإنكار ولا يعلمون أن شرط الكرامة الولاية ، وهي مسلوبة عنهم اتفاقا وأما سلب الايمان فمسألة خلاف ، فما أطمع من يكون إيمانه مسألة خلاف وهو يريد الكرامة لأنه لم يؤتها واللّه الموفق.

خصّ اللّه الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأنّ أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ يدي من ارتضى للرسالة وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم ، حتى يبلغ ما أوحى به إليه. وعن الضحاك : ما بعث نبىّ إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك لِيَعْلَمَ اللّه أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ يعني الأنبياء : وحد أولا على اللفظ في قوله مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ثم جمع على المعنى ، كقوله فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ والمعنى : ليبلغوا رسالات ربهم كما هي ، محروسة من الزيادة والنقصان ، وذكر العلم كذكره في قوله تعالى حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ وقرئ : ليعلم ، على البناء للمفعول وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ بما عند الرسل من الحكم والشرائع ، لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفا ، فهو مهيمن عليها حافظ لها وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً من القطر والرمل وورق الأشجار ، وزبد البحار ، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه.

وعددا : حال ، أى : وضبط كل شيء معدودا محصورا. أو مصدر في معنى إحصاء.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنى صدق محمدا صلى اللّه عليه وسلم وكذب به عتق رقبة» «1».

(1). أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب.

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

مكية [إلا الآيات 10 و11 و20 فمدنية] وآياتها 19 وقيل 20 [نزلت بعد القلم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المزمل (73) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4)

الْمُزَّمِّلُ المتزمّل ، وهو الذي تزمّل في ثيابه : أى تلفف بها ، بإدغام التاء في الزاى :

ونحوه : المدثر في المتدثر. وقرئ : المتزمّل على الأصل والمزمل بتخفيف الزاى وفتح الميم وكسرها. على أنه اسم فاعل أو مفعول ، من زمله ، وهو الذي زمله غيره أو زمل نفسه وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نائما بالليل متزمّلا في قطيفة ، فنبه ونودي بما يهجن إليه «1» الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم ، كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن. ألا ترى إلى قول ذى الرمّة : وكائن تخطّت ناقتي من مفازة ومن نائم عن ليلها متزمّل «2»

(1). قال محمود : «هو المتلفف في ثيابه كالمدثر ونودي بما يهجن إليه ... الخ» قال أحمد : أما قوله الأول أن نداءه بذلك تهجين للحالة التي ذكر أنه كان عليها واستشهاده بالأبيات المذكورة. فخطأ وسوء أدب. ومن اعتبر عادة خطاب اللّه تعالى له في الإكرام والاحترام : علم بطلان ما تخيله الزمخشري ، فقد قال العلماء : أنه لم يخاطب باسمه نداء ، وأن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراما له وتشريفا ، فأين تداؤه بصيغة مهجنة من نسائه ، باسمه ، واستشهاده على ذلك بأبيات قيلت ذما في جفاة حفاة من الرعاء ، فأنا أبرأ إلى اللّه من ذلك وأربأ به صلى اللّه عليه وسلم ، ولقد ذكرت بقوله :

أوردها سعد وسعد مشتمل

ما وقعت عليه من كلام ابن خروف النحوي يرد على الزمخشري ويخطئ رأيه في تصنيفه المفصل ، وإجحامه في الاختصار بمعاني كلام سيبويه ، حتى سماه ابن خروف : البرنامج ، وأنشد عليه :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وأما ما نقله أن ذلك كان في مرط عائشة رضى اللّه عنها فبعيد ، فان السورة مكية ، وبنى النبي صلى اللّه عليه وسلم على عائشة رضى اللّه عنها بالمدينة. والصحيح في الآية ما ذكره آخرا ، لأن ذلك كان في بيت خديجة عند ما لقبه جبريل أول مرة ، فبذلك وردت الأحاديث الصحيحة ، واللّه أعلم. [.....]

(2). لذي الرمة. وكائن : بمعنى كم الخيرية ، والأكثر استعمالها مع «من» كقول : وكائن من كذا. والمتزمل المتلفف في ثيابه عند كثرة النوم ، يقول : كثيرا من المفاوز تخطته ناقتي وسارته ، وكثيرا من نائم وغافل عن ليلها - أى : المفازة أو الناقة - متكاسل عما فيه من عظائم الأمور ، فالمتزمل كناية عن ذلك.

يريد : الكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معاظم الأمور وكفايات الخطوب ، ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ، ونحوه : فأنت به حوش الفؤاد سبطّنا سهدا إذا ما نام ليل الهوجل «1»

وفي أمثالهم : أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل «2»

(1) ولقد سربت على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مثقل
ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل
ومبرأ من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
حملت به في ليلة مزؤدة كرها وعقد نطاقها لم يحلل
فأتت به حوش الفؤاد مبطنا سهدا إذا ما نام ليل الهوجل

لأبى كبير الهذلي يصف مأبط شرا ، واسمه : جابر بن ثابت ، تزوج الهذلي بأمه بعد جابر فخاف منه ، فأغرته على قتله فخرج به متحيلا لذلك فلم يقدر ، فمدحه بالشجاعة والفطنة : يقول : سرت ليلا في الظلمة بمغشم ، أى مع فتى يقدم على الأمر بلا مبالاة ولا تدبير ولا خوف عاقبة ، مع جراءة ، جلد ، أى : صلب صبور غير مثقل ، أى : خفيف في السير منزه عن كل ما يوجب الضعف والثباطؤ ، وبينه بقوله : ممن حملن. أى : هو ممن حملن ، أى جنس النسوة به ، أو هو بعض الفتيان الذين حملت بهم النسوة ، وأفرد ضمير «به» مراعاة للفظ «من» وضمن العمل معنى العلوق ، فعداه بالباء ، وإلا فهو يتعدى بنفسه. والحبك : جمع حباك كخزام. أو جمع حبيك أو حبيكة ، وهو الخيوط التي يحبك بها النطاق. والمهبل : المدعو عليه بالهبل ، أى ، الثكل والفقد. والغبر - بالضم فالتشديد- : بقية الحيض وغيره ، وكذلك الغبر - بالضم وبالفتح مع السكون. والغابر : الباقي والذاهب. ويجوز أن غبر : جمع غابر ، وغبر يغبر غبورا - كدخل - : بقي وذهب ، أى : لم تحمل به أمه في زمن بقية الحيض. ومرضع : من الصفات المختصة بالمؤنث ، والغالب تجريدها من التاء ، فما هنا على خلاف الغالب. والغيلة : إحبال الرجل امرأته وهي ترضع ولدها : فيمرض ، فالمغيل :

والرجل الحوش والحوشى : الذي يجانب الناس مبطنا خميص البطن منضمره : سهدا - بضمتين - : كثير السهاد أى السهر : وإسناد النوم إلى الليل مجاز عقلى ، وإنما النائم الهوجل :
وهو الرجل الطويل الأحمق ، ومن تجربة العرب : أن المرأة إذا حملت بولدها كارهة غير مستعدة للوطء : جاء ولدها نجيبا ، حكى عن أم تأبط شرا أنها قالت فيه : واللّه إنه الشيطان ، ما رأيته ضاحكا قط ، ولا هم بشيء في صباء إلا فعله ، ولقد حملت به في ليلة ظلماء ، وإن نطاقى لمشدود ، وذلك يدل على نجابته وشجاعته.
(2). لمالك بن زيد مناة يخاطب أخاه ، وكان قد بنى على امرأته فلم يحسن سعد القيام بأمر الإبل ، فقال : أوردها سعد إلى الماء والحال أنه مشتمل متلفف بثيابه لا متشمر. وذكر الظاهر مكان المضمر : فيه نوع من التوبيخ.
ما هكذا تورد ، أى : تساق إلى الماء ، وكان معرضا عنه فالتفت إليه ونداؤه نداء البعيد : دلالة على أنه بليد.
وحق هاء التنبيه : الدخول على اسم الاشارة ، لكن قدمت على كاف التشبيه مبادرة واهتماما بالتنبيه. ويروى بدل الشطر الثاني : يا سعد ما تروى بهذا كالإبل. وهذاك اسم إشارة ، وصار هذا البيت يضرب مثلا لكل من لم يحسن القيام بشأن ما تولاه.

فذمه بالاشتمال بكسائه ، وجعل ذلك خلاف الجلد والكبس ، وأمر بأن يختار على الهجود التهجد ، وعلى التزمل التشمر ، والتخفف للعبادة والمجاهدة في اللّه ، لا جرم أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر ، وأقبلوا على إحياء لياليهم ، ورفضوا له الرقاد والدعة ، وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم ، وظهرت السيمى في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد رحمهم له ربهم ، فخفف عنهم. وقيل : كان متزملا في مرط لعائشة «1» يصلى ، فهو على هذا ليس بتهجين ، بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التي كان عليها ، وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه. وعن عائشة رضى اللّه عنها : أنها سئلت ما كان تزميله؟ قالت : كان مرطا طوله أربع عشرة ذراعا نصفه علىّ وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلى ، فسئلت : ما كان؟ قالت : واللّه ما كان خزا ولا قزا ولا مرعزى «2» ولا إبريسما ولا صوفا : كان سداه شعرا ولحمته وبرا«3». وقيل : دخل على خديجة ، وقد جئث فرقا «4» أول ما أتاه جبريل وبوادره ترعد ، فقال : زملوني زملوني ، وحسب أنه عرض له ، فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل : يا أيها المزمل «5». وعن عكرمة : أنّ المعنى : يا أيها الذي زمل أمرا عظيما ، أى : حمله. والزمل : الحمل. وازدمله : احتمله. وقرئ : قم الليل بضم الميم وفتحها. قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة التبلغ بها هربا من التقاء الساكنين ، فبأى الحركات تحرّك فقد وقع الغرض نِصْفَهُ بدل من الليل. وإلا قليلا : استثناء من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصف الليل. والضمير في منه وعليه للنصف ، والمعنى : التخيير بين أمرين ، بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت ، وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه. وإن شئت جعلت نصفه بدلا من قليلا ،

(1). قوله «و قيل كان متزملا في مرط لعائشة» كيف والسورة مكية. (ع)
(2). قوله «و لا مرعزى» المرعزى الزغب الذي تحت شعر العنز اه صحاح. (ع)
(3). لم أره هكذا ومن قوله «ما كان خزا» رواه البيهقي في الدعوات من حديثها في ليلة النصف من شعبان «انسل النبي صلى اللّه عليه وسلم من مرطى. ثم قالت : واللّه ما كان مرطى من حرير ولا قز. ولا كتان ولا كرسف ولا صوف. فقلنا : من أى شيء كان؟ قالت : إن كان سداه لمن شعر وإن كانت لحمته لمن وبر».
(4). «قوله وقد جئث فرقا» أى أفزع ، فهو مجؤوث : أى مذعور ، كذا في الصحاح. وفيه البوادر من الإنسان وغيره : اللحمة التي بين المنكب والعنق. (ع)
(5). لم أره هكذا. وأصله في الصحيحين عن عائشة رضى اللّه عنها.

وكان تخييرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه ، وبين قيام الناقص منه وبين قيام الزائد عليه ، وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل ، وإن شئت قلت : لما كان معنى قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ إذا أبدلت النصف من الليل ، قم أقل من نصف الليل ، رجع الضمير في منه وعليه إلى الأقل من النصف ، فكأنه قيل : قم أقل من نصف الليل. أو : قم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلا ، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث.

ويجوز إذا أبدلت نصفه من قليلا وفسرته به أن تجعل قليلا الثاني بمعنى نصف النصف : وهو الربع ، كأنه قيل. أو انقص منه قليلا نصفه. وتجعل المزيد على هذا القليل ، أعنى الربع ، نصف الربع كأنه قيل : أو زد عليه قليلا نصفه. ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة الثلث ، فيكون تخييرا بين النصف والثلث والربع. فإن قلت : أكان القيام فرضا أم نفلا؟ قلت : عن عائشة رضى اللّه عنها أنّ اللّه جعله تطوّعا بعد أن كان فريضة. وقيل : كان فرضا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ثم نسخ بهنّ إلا ما تطوّعوا به. وعن الحسن : كان قيام ثلث الليل فريضة ، وكانوا على ذلك سنة. وقيل : كان واجبا ، وإنما وقع التخيير في المقدار ، ثم نسخ بعد عشر

ترتيل القرآن : قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلوّ منه شبيها بالثغر المرتل : وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان ، وألا يهذه هذا ولا يسرده سردا «1» ، كما قال عمر رضى اللّه عنه : شر السير الحقحقة. وشر القراءة الهذرمة ، حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر الألص «2». وسئلت عائشة رضى اللّه عنها عن قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ فقالت : لا كسردكم هذا ، لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها. وتَرْتِيلًا تأكيد في إيجاب الأمر به ، وأنه ما لا بد منه للقارئ.

[سورة المزمل (73) : آية 5]

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5)

هذه الآية اعتراض ، ويعنى بالقول الثقيل : القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين ،

(1). قوله «و أن لا يهذّه هذّا ولا يسرده» الهذ : الاسراع. والسرد : التتابع. والحقحقة : شدة السير. والألص : متقارب الأسنان. أفاده الصحاح. وفيه «الهذرمة» سرعة القراءة. (ع)
(2). لم أره عنه من رواية منصور ، وإنما قال أبو عبيد بن قتيبة في الغريب قال عمر «شر القراءة الهزرمة» وأخرجه الخطيب في الجامع من رواية منصور بن جعفر قال : قرأت على أبى محمد بن درستويه. قال : قرأنا على ابن قتيبة بهذا وروى ابن المبارك في الزهد من رواية الحسن قال «كان يقال : شر السير الجعجعة» ورواه ابن عدى مرفوعا من رواية الحسن بن دينار عن الحسن بن أبى هريرة. والحسن بن دينار ضعيف.

خاصة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته ، فهي أثقل عليه وأبهظ له ، وأراد بهذا الاعتراض : أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن ، لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : كان إذا نزل عليه الوحى ثقل عليه «1» وتربد له «2» جلده. وعن عائشة رضى اللّه عنها : رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليرفض عرقا «3». وعن الحسن : ثقيل في الميزان. وقيل : ثقيل على المنافقين. وقيل : كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف.

[سورة المزمل (73) : آية 6]

إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6)

ناشِئَةَ اللَّيْلِ النفس الناشئة بالليل ، التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة «4» ، أى : تنهض وترتفع ، من نشأت السحابة : إذا ارتفعت. ونشأ من مكانه ونشز : إذا نهض ، قال : نشأنا إلى خوص برى نيّها السّرى وألصق منها مشرفات القماحد «5»

وقيام الليل ، على أنّ الناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض على فاعلة : كالعاقبة. ويدل عليه ما روى عن عبيد بن عمير : قلت لعائشة : رجل قام من أوّل الليل ، أتقولين له قام ناشئة؟

قالت لا ، إنما الناشئة القيام بعد النوم. ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع أو العبادة التي تنشأ بالليل ، أى : تحدث ، وترتفع. وقيل : هي ساعات الليل كلها ، لأنها تحدث واحدة بعد أخرى. وقيل : الساعات الأول منه. وعن على بن الحسين رضى اللّه عنهما أنه كان يصلى بين المغرب والعشاء ويقول : أما سمعتم قول اللّه تعالى إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هذه ناشئة الليل هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً هي خاصة دون ناشئة النهار ، أشدّ مواطأة يواطئ قلبها لسانها : إن أردت النفس. أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه :

(1). أخرجه أحمد من حديث ابن عباس في قصة ابن أمية. قال «و كان النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك في تربد جلده» وأبو نعيم في الدلائل «كان إذا نزل عليه الوحى تربد له وجهه وجسده» وفي الباب حديث عبادة بن الصامت «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه.
(2). قوله «و تربد» أى تعبس. (ع)
(3). متفق عليه من حديث عائشة.

(4). قال محمود : «قيل الناشئة النفس القائمة بالليل التي تنشأ عن مضجعها ... الخ» قال أحمد : فان حملت الناشئة على النفس فاضافة المواطأة إليها حقيقة ، وإن حملتها على الساعات أو المصدر فهو من الاتساع المجازى [.....]
(5). نشأنا : نهضنا. والخوص - جمع خوصاء : الناقة المرتفعة الأعلى ، الضخمة الأسفل. والى : الشحم.
والسرى : سير الليل. والقماحد : جمع قمحدوة : وهي أعلى عظم الرأس. يقول : نهضنا إلى نوق عظيمة أذاب شحمها سير الليل ، وألصق عظام رأسها بعضها ببعض ، كناية عن تمرنها على السير واعتيادها له.

إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات. أو أشدّ موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص. وعن الحسن : أشدّ موافقة بين السر والعلانية ، لانقطاع رؤية الخلائق. وقرئ : أشدّ وطأ بالفتح والكسر. والمعنى : أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل. أو أثقل وأغلظ على المصلى من صلاة النهار ، من قوله عليه السلام «اللهم اشدد وطأتك على مضر» «1» وَأَقْوَمُ قِيلًا وأسد مقالا وأثبت قراءة لهدوّ الأصوات. وعن أنس رضى اللّه عنه أنه قرأ : وأصوب قيلا ، فقيل له : يا أبا حمزة ، إنما هي : وأقوم ، فقال : إنّ أقوم وأصوب وأهيأ واحد. وروى أبو زيد الأنصارى عن أبى سرار الغنوي أنه كان يقرأ : فحاسوا ، محاء غير معجمة ، فقيل له : إنما هو فَجاسُوا بالجيم ، فقال : وجاسوا وحاسوا واحد.

[سورة المزمل (73) : آية 7]

إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7)

سَبْحاً تصرفا وتقلبا في مهماتك وشواغلك ، ولا تفرغ إلا بالليل ، فعليك بمناجاة اللّه التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل. وأما القراءة بالخاء. فاستعارة من سبخ الصوف : وهو نفشه ونشر أجزائه ، لانتشار الهم وتفرّق القلب بالشواغل : كلفه قيام الليل ، ثم ذكر الحكمة فيما كلفه منه : وهو أن الليل أعون على المواطأة وأشد للقراءة ، لهدوّ الرجل وخفوت الصوت : وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار ، لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب في حوائج المعاش والمعاد. وقيل : فراغا وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك. وقيل : إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه.

[سورة المزمل (73) : الآيات 8 إلى 10]

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9) وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10)

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ودم على ذكره في ليلك ونهارك ، واحرص عليه. وذكر اللّه يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح ، وتهليل ، وتكبير ، وتمجيد ، وتوحيد ، وصلاة ، وتلاوة قرآن ، ودراسة علم ، وغير ذلك مما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يستغرق به ساعة ليله ونهاره وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ وانقطع إليه. فإن قلت : كيف قيل تَبْتِيلًا مكان تبتلا؟ قلت : لأن معنى تبتل بتل نفسه ، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قرئ مرفوعا على المدح ، ومجرورا على البدل من ربك. وعن ابن عباس : على القسم بإضمار حرف

(1). متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم في الأنبياء.

القسم ، كقولك : اللّه لأفعلنّ ، وجوابه لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كما تقول : واللّه لا أحد في الدار إلا زيد. وقرأ ابن عباس : رب المشارق والمغارب فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا مسبب على التهليلة ، لأنه هو وحده هو الذي «1» يجب لتوحده بالربوبية أن توكل إليه الأمور. وقيل وَكِيلًا : كفيلا بما وعدك من النصر والإظهار. الهجر الجميل : أن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة. وعن أبى الدرداء رضى اللّه عنه : إنا لنكشر في وجوه قوم ونضحك إليهم ، وإن قلوبنا لتقليهم «2». وقيل : هو منسوخ بآية السيف.

[سورة المزمل (73) : الآيات 11 إلى 14]

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً (12) وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً (14)

إذا عرف الرجل من صاحبه أنه مستهم بخطب يريد أن يكفاه ، أو بعدوّ يشتهى أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه قال : ذرني وإياه ، أى : لا تحتاج إلى الظفر «3» بمرادك ومشتهاك ، إلا أن تخلى بيني وبينه

(1). قوله «هو الذي» لعله «الذي» بدون : هو. (ع)
(2). أخرجه البخاري في صحيحه تعليقا في الأدب : ويذكر عن أبى الدرداء. ووصله البيهقي في الشعب في السادس والخميسين من طريق أبى الأحوص يعنى ولد أحوص بن حكم عن أبى الزهراء قال قال أبو الدرداء. ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أبى الدرداء من طريق سفيان عن خلف بن حوشب قال قال أبو الدرداء مثل رواية البيهقي.
(3). قوله «لا تحتاج إلى الظفر» لعله : في الظفر. (ع)
(4). أخرجه أحمد في الزهد والطبري من طريق وكيع عن حمزة الزيات عن حمران بن أعين «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم بهذا» ورواه ابن عدى من رواية أبى يوسف عن حمزة عن حمدان عن أبى حرب بن أبى الأسود. وقال غيره : أن يوسف يرويه عن حمزة عن حسب عن حمران.

وعن الحسن : أنه أمسى صائما ، فأتى بطعام ، فعرضت له هذه الآية ، فقال : ارفعه ، ووضع عنده الليلة الثانية، فعرضت له ، فقال : ارفعه ، وكذلك الليلة الثالثة ، فأخبر ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء ، فجاءوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق يَوْمَ تَرْجُفُ منصوب بما في لدينا. والرجفة : الزلزلة والزعزعة الشديدة. والكثيب : الرمل المجتمع من كثب الشيء إذا جمعه ، كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله. ومنه الكثبة من اللبن ، قالت الضائنة : أجز جفالا وأحلب كثبا «1» عجالا ، أى : كانت مثل رمل مجتمع هيل هيلا ، أى : نثر وأسيل.

[سورة المزمل (73) : الآيات 15 إلى 16]

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16)

الخطاب لأهل مكة شاهِداً عَلَيْكُمْ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم. فإن قلت : لم نكر الرسول ثم عرف؟ قلت : لأنه أراد : أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل ، فلما أعاده وهو معهود بالذكر أدخل لام التعريف إشارة إلى المذكور بعينه وَبِيلًا ثقيلا غليظا ، من قولهم : كلأ وبيل وخم لا يستمرأ لثقله. والوبيل : العصا الضخمة. ومنه الوابل للمطر العظيم.

[سورة المزمل (73) : الآيات 17 إلى 18]

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (17) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (18)

يَوْماً مفعول به ، أى : فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهو له ، إن بقيتم على الكفر.

ولم تؤمنوا وتعملوا صالحا. ويجوز أن يكون ظرفا ، أى : فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا. ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم ، أى فكيف تتقون اللّه وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء : لأن تقوى اللّه خوف عقابه يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال. والأصل فيه : أنّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان. أسرع فيه الشيب. قال أبو الطيب :

والهمّ يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصّبىّ ويهرم «2»

(1). قوله «و أجز جفالا وأحلب كثبا» الجفال : الصوف الكثير. والكثبة من اللبن : قدر حلبة ، والجمع كثب ، كذا في الصحاح. (ع)

(2). لأبى الطيب ، يقول : ان الهم ينتقص الرجل الجسيم ويقتطعه شيئا فشيئا. ونحف نحافة : هزل هزالا ، فنحافة مفعول مطلق ، لأنها تلاقى الاحترام في المعنى. ويجوز أنها تمييز ، أى : ينتقص الهم العظيم الجسيم من جهة النحافة إلى تنشأ عنه. ويجوز جعلها مفعولا لأجله على مذهب من لم يشترط اتحاد الفعل والمصدر في الفاعل.
والناصية : مقدم الرأس ، أى : يشيب رأس الصبى. وخص الناصية ، لأنها التي تقابل الناظر عند التقابل ، ولا شعر الصبى إلا في رأسه ، ويهرم ، أى : يصير الصبى هرما ضعيفا.

وقد مرّ بى في بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب ، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة ، فقال : أريت القيامة والجنة والنار في المنام ، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون.

ويجوز أن يوصف اليوم بالطول. وأنّ الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ وصف لليوم بالشدّة أيضا. وأنّ السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق. وقرئ : منفطر ومتفطر. والمعنى : ذات انفطار. أو على تأويل السماء بالسقف. أو على تأويل السماء شيء منفطر ، والباء في بِهِ مثلها في قولك : فطرت العود بالقدوم فانفطر به ، يعنى : أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهو له كما ينفطر الشيء بما يفطر به. ويجوز أن يراد السماء مثقلة به إثقالا يؤدّى إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه، كقوله ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ. وَعْدُهُ من إضافة المصدر إلى المفعول ، والضمير لليوم. ويجوز أن يكون مضافا إلى الفاعل وهو الله عز وعلا ، ولم يجر له ذكر لسكونه معلوما.

[سورة المزمل (73) : آية 19]

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (19)

إِنَّ هذِهِ الآيات الناطقة بالوعيد الشديد تَذْكِرَةٌ موعظة فَمَنْ شاءَ اتعظ بها.

واتخذ سبيلا إلى الله بالتقوى والخشية. ومعنى اتخاذ السبيل إليه : التقرّب والتوسل بالطاعة.

[سورة المزمل (73) : آية 20]

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)

أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ أقل منهما ، وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل ، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت : قل ما بينهما من الأحياز ، وإذا بعدت كثر ذلك. وقرئ : ونصفه وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين ، وتقوم النصف والثلث : وهو مطابق لما مرّ في أوّل السورة : من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه - وهو الثلث - وبين قيام الزائد عليه - وهو الأدنى من الثلثين. وقرئ : ونصفه ، وثلثه : بالجرّ ، أى : تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف والثلث ، وهو مطابق للتخيير بين النصف : وهو أدنى من الثلثين.

والثلث : وهو أدنى من النصف. والربع : وهو أدنى من الثلث ، وهو الوجه الأخير وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده ، وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنيا عليه يقدّر : هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير ، والمعنى : أنكم لا تقدرون عليه ، والضمير في لَنْ تُحْصُوهُ لمصدر يقدّر ، أى علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية ، إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط : وذلك شاق عليكم بالغ منكم فَتابَ عَلَيْكُمْ عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدّر ، كقوله فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ والمعنى : أنه رفع التبعة في تركه عنكم ، كما يرفع التبعة عن التائب. وعبر عن الصلاة بالقراءة ، لأنها بعض أركانها ، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود. يريد : فصلوا ما تيسر عليكم ، ولم يتعذر من صلاة الليل ، وهذا ناسخ للأوّل ، ثم نسخا جميعا بالصلوات الخمس. وقيل هي قراءة القرآن بعينها ، قيل : يقرأ مائة آية. ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن ، وقيل : من قرأ مائة آية كتب من القانتين. وقيل : خمسين آية. وقد بين الحكمة في النسخ. وهي تعذر القيام على المرضى ، والضاربين في الأرض للتجارة ، والمجاهدين في سبيل الله. وقيل : سوّى الله

(1). أخرجه الثعلبي من رواية فرقد السبخي عن إبراهيم عن ابن مسعود موقوفا. وفرقد ضعيف. ووصله ابن مردويه بذكر علقمة بن إبراهيم وعبد اللّه ورفعه أيضا. وزاد : ثم قرأ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ - الآية
(2). أخرجه الثعلبي من رواية القاسم بن عبد اللّه عن أبيه عن نافع عن ابن عمر به. وإسناده ضعيف. ورواه ابن معبد في الطاعة والمعصية عن ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن نافع أن عمر قال «ما خلق اللّه موتة أموتها إلا أن أموت مجاهدا في سبيل اللّه أحب إلى من أن أموت - إلى آخره» والبيهقي في الشعب في الثالث عشر من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد اللّه ذكر عمر أو غيره قال «ما خلق اللّه إلى آخره».

وعَلِمَ استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ يعنى المفروضة والزكاة الواجبة وقيل : زكاة الفطر ، لأنه لم يكن بمكة زكاة. وإنما وجبت بعد ذلك ، ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيا وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يجوز أن يريد : سائر الصدقات وأن يريد : أداء الزكاة على أحسن وجه : من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء ، ومراعاة النية وابتغاء وجه اللّه ، والصرف إلى المستحق ، وأن يريد : كل شيء يفعل من الخيز مما يتعلق بالنفس والمال خَيْراً ثانى مفعولي وجد. وهو فصل. وجاز وإن لم يقع بين معرفتين ، لأنّ أفعل من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة. وقرأ أبو السمال : هو خير وأعظم أجرا، بالرفع على الابتداء والخبر : عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المزمّل دفع اللّه عنه العسر في الدنيا والآخرة» «1».

سورة المدثر صلى الله عليه وسلم

مكية ، وهي ست وخمسون آية [نزلت بعد المزمل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المدثر (74) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)

الْمُدَّثِّرُ لابس الدثار ، وهو ما فوق الشعار : وهو الثوب الذي يلي الجسد. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «الأنصار شعار والناس دثار» «2» وقيل : هي أوّل سورة نزلت. وروى جابر بن عبد اللّه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «كنت على جبل حراء فنوديت : يا محمد ، إنك رسول اللّه ، فنظرت عن يمينى ويساري فلم أر شيأ ، فنظرت فوقى فرأيت شيأ» «3».

(1). أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبى رضى اللّه عنه.
(2). تقدم في آل عمران.
(3). متفق عليه من رواية أبى سلمة عنه وأتم منه.

وفي رواية عائشة : «فنظرت فوقى فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض - يعنى الملك الذي ناداه - فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت : دثروني دثروني ، فنزل جبريل وقال : «يا أيها المدثر»»

وعن الزهري : أوّل ما نزل : سورة اقرأ باسم ربك إلى قوله ما لَمْ يَعْلَمْ فحزن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وجعل يعلو شواهق الجبال ، فأتاه جبريل فقال : إنك نبىّ اللّه ، فرجع إلى خديجة وقال : دثروني وصبوا علىّ ماء باردا ، فنزل : يا أيها المدثر «2». وقيل : سمع من قريش ما كرهه فاغتم ، فتغطي بثوبه مفكرا كما يفعل المغموم. فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه.

وعن عكرمة أنه قرأ على لفظ اسم المفعول. من دثره. وقال : دثرت هذا الأمر وعصب بك ، كما قال في المزمّل : قم من مضجعك. أو قم قيام عزم وتصميم فَأَنْذِرْ فحذر قومك من عذاب اللّه إن لم يؤمنوا. والصحيح أنّ المعنى : فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ واختص ربك بالتكبير : وهو الوصف بالكبرياء ، وأن يقال : اللّه أكبر. ويروى أنه لما نزل قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «اللّه أكبر» فكبرت خديجة وفرحت ، وأيقنت أنه الوحى ، وقد يحمل على تكبير الصلاة ، ودخلت الفاء لمعنى الشرط. كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ، لأنّ طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلا بها ، وهي الأولى والأحب في غير الصلاة ، وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثا. وقيل : هو أمر بتقصيرها ، ومخالفة العرب في تطويلهم الثياب وجرهم الذيول ، وذلك ما لا يؤمن معه إصابة النجاسات. وقيل: هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ويستهجن من العادات. يقال : فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق. وفلان دنس الثياب للغادر ، وذلك لأنّ الثوب يلابس الإنسان ويشتمل عليه ، فكنى به عنه. ألا ترى إلى قولهم : أعجبنى زيد ثوبه ، كما يقولون : أعجبنى زيد عقله وخلقه ، ويقولون : المجد في ثوبه ، والكرم تحت حلته ، ولأنّ الغالب أنّ من طهر باطنه ونقاه عنى بتطهير الظاهر وتنقيته ، وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر في كل شيء وَالرُّجْزَ قرئ بالكسر والضم ، وهو العذاب ، ومعناه : اهجر ما يؤدى إليه من عبادة الأوثان وغيرها من المآثم. والمعنى : الثبات على هجره ، لأنه كان بريئا منه.

(1). لم أره عن عائشة. وإنما هو قصة حديث جابر. ولعل الزمخشري قصد بقوله «و في رواية عائشة لفظة منه وإلا فالجميع من حديث جابر رضى اللّه عنه قلت : يوجد ما ذكره الزمخشري من رواية النعمان بن راشد عن الزهري عن عروة عن عائشة عند الطبري. [.....]
(2). أخرجه الطبري من رواية محمد بن ثور عن معمر عن الزهري قال «كان أول شيء نزل على النبي صلى اللّه عليه وسلم اقرأ - فذكره وأتم منه. رواه الحاكم من طريق محمد بن سيرين عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى اللّه عنها.
(645/4)

[سورة المدثر (74) : الآيات 6 إلى 7]

وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

قرأ الحسن : ولا تمنّ. وتستكثر ، مرفوع منصوب المحل على الحال ، أى : ولا تعط مستكثرا رائيا لما تعطيه كثيرا ، أو طالبا للكثير : نهى عن الاستغزار : وهو أن يهب شيئا وهو يطمع أن يتعوّض من الموهوب له أكثر من الموهوب ، وهذا جائز. ومنه الحديث «المستغزر يثاب من هبته» «1» وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون نهيا خاصا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لأنّ اللّه تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق. والثاني : أن يكون نهى تنزيه لا تحريم له ولأمّته. وقرأ الحسن : تستكثر ، بالسكون. وفيه ثلاثة أوجه ، الإبدال من تمنن. كأنه قيل : ولا تمنن لا تستكثر ، على أنه من المنّ في قوله عز وجل ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لأنّ من شأن المنان بما يعطى أن يستكثره ، أى : يراه كثيرا ويعتدّ به ، وأن يشبه ثرو بعضد ، فيسكن تخفيفا ، وأن يعتبر حال الوقف. وقرأ الأعمش بالنصب بإضمار «أن» كقوله : ألا أيّهذا الزّاجرى أحضر الوغى «2»

وتؤيده قراءة ابن مسعود : ولا تمنن أن تستكثر. ويجوز في الرفع أن تحذف «أن» ويبطل عملها ، كما روى : أحضر الوغى بالرفع ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ولوجه اللّه ، فاستعمل الصبر. وقيل : على أذى المشركين. وقيل : على أداء الفرائض. وعن النخعي : على عطيتك ، كأنه وصله بما قبله ، وجعله صبرا على العطاء من غير استكثار. والوجه أن يكون أمرا بنفس الفعل ، وأن يتناول على العموم كل مصبور عليه ومصبور عنه ، ويراد الصبر على أذى الكفار ، لأنه أحد ما يتناوله العام.

[سورة المدثر (74) : الآيات 8 إلى 10]

فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)

والغاء في قوله فَإِذا نُقِرَ للتسبيب ، كأنه قال : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه. والفاء في فَذلِكَ للجزاء. فإن قلت : بم انتصب إذا ، وكيف صح أن يقع يَوْمَئِذٍ ظرفا ليوم عسير؟ قلت : انتصب إذا بما دلّ عليه الجزاء ،

(1). تقدم في الروم من قول شريح.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 159 فراجعه إن شئت اه مصححه.

لأنّ المعنى : فإذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين ، والذي أجاز وقوع يَوْمَئِذٍ ظرفا ليوم عسير : أنّ المعنى : فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير ، لأنّ يوم القيامة يأتى ويقع حين ينقر في الناقور. واختلف في أنها النفخة الأولى أم الثانية. ويجوز أن يكون يومئذ مبنيا مرفوع المحل ، بدلا من فَذلِكَ ويَوْمٌ عَسِيرٌ خبر ، كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير. فإن قلت : فما فائدة قوله غَيْرُ يَسِيرٍ وعَسِيرٌ مغن عنه؟ قلت : لما قال عَلَى الْكافِرِينَ فقصر العسر عليهم قال : غَيْرُ يَسِيرٍ ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرا هينا ، ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم.

ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرا ، كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا.

[سورة المدثر (74) : الآيات 11 إلى 25]

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلاَّ إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25)

وَحِيداً حال من اللّه عز وجل على معنيين ، أحدهما. ذرني وحدي معه ، فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم. والثاني : خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد. أو حال من المخلوق على معنى : خلقته وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد ، كقوله وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يلقب في قومه بالوحيد ، ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية ، فإن كان ملقبا به قبل فهو تهكم به

وقيل : كان له ألف مثقال. وقيل : أربعة آلاف. وقيل تسعة آلاف. وقيل : ألف ألف. وعن ابن جريج : غلة شهر بشهر وَبَنِينَ شُهُوداً حضورا معه بمكة لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة ، لأنهم مكفيون لوفور نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسب وطلب المعاش بأنفسهم ، فهو مستأنس بهم لا يشتغل قلبه بغيبتهم ، وخوف معاطب السفر عليهم ولا يحزن لفراقهم والاشتياق إليهم. ويجوز أن يكون معناه : أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل. أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه. وعن مجاهد : كان له عشرة بنين. وقيل : ثلاثة عشر. وقيل : سبعة كلهم رجال : الوليد بن الوليد ، وخالد ، وعمارة ، وهشام ، والعاص ، وقيس ، وعبد شمس : أسلم منهم ثلاثة : خالد ، وهشام ، وعمارة وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه ، فأتممت عليه نعمتي المال والجاه واجتماعهما : هو الكمال عند أهل الدنيا. ومنه قول الناس : أدام الله تأييدك وتمهيدك ، يريدون : زيادة الجاه والحشمة. وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم ، ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش ثُمَّ يَطْمَعُ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه «1» ، يعنى أنه لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة. وقيل : إنه كان يقول : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لي كَلَّا ردع له وقطع لرجائه وطمعه إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً تعليل للردع على وجه الاستئناف ، كأن قائلا قال : لم لا يزاد؟ فقيل : إنه عاند آيات المنعم وكفر بذلك نعمته ، والكافر لا يستحق المزيد : ويروى : أنه ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله حتى هلك سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً سأغشيه عقبة شاقة المصعد : وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذي لا يطاق. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «يكلف أن يصعد عقبة في النار كلما وضع عليها يده ذابت «2» ، فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، فإذا رفعها عادت» وعنه عليه السلام : الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك أبدا «3» ، إِنَّهُ فَكَّرَ تعليل الوعيد ، كأن الله تعالى عاجله بالفقر بعد الغنى ، والذل بعد العز في الدنيا بعناده، ويعاقب في الآخرة بأشدّ العذاب وأفظعه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه في تفكيره ، وتسميته القرآن سحرا. ويجوز أن تكون كلمة الردع متبوعة بقوله سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ردّا لزعمه أن الجنة لم تخلق إلا له ،

(1). قال محمود : «دخلت ثم استبعادا لطمعه وحرصه على الزيادة ، واستنكارا لذلك فرد الله طمعه خائبا ... الخ» قال أحمد : لأن الكلمة الشنعاء لما خطرت بباله بعد إمعانه النظر : لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث.

(2). أخرجه البزار والطبرانى في الأوسط والبيهقي في الشعب والطبري وابن أبى حاتم. كلهم من طريق شريك عن عمار الدهني عن عطية عن أبى سعيد مرفوعا. قال البزار : لا نعلمه رفعه إلا شريك. وبه جزم الطبراني.
ورواه البزار والبيهقي من رواية ابن عيينة عن عمارة مرفوعا.

(3). أخرجه الترمذي من طريق أبى لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا انتهى. وقد رواه الحاكم والطبري والبيهقي في الشعب من رواية عمرو بن الحارث عن دراج. ورواه ابن مردويه من رواية رشدين ابن سعد عن دراج أيضا.

وإخبارا بأنه من أشدّ أهل النار عذابا ، ويعلل ذلك بعناده ، ويكون قوله إِنَّهُ فَكَّرَ بدلا من قوله إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً بيانا لكنه عناده. ومعناه فكر ما ذا يقول في القرآن وَقَدَّرَ في نفسه ما يقول وهيأه فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحز. ورميه الغرض الذي كان تنتحيه قريش. أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به. أو هي حكاية لما كرروه من قولهم. قتل كيف قدّر تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله. ومعنى قول القائل : قتله الله ما أشجعه. وأخزاه الله ما أشعره : الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك. روى أنّ الوليد قال لبنى مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إنّ له لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد إليه حزينا وكلمه بما أحماه فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ، وتقولون إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ، وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ، وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ، فقالوا في كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر. أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادي فرحا ، وتفرّقوا معجبين بقوله متعجبين منه ثُمَّ نَظَرَ في وجوه الناس «1» ، ثم قطب وجهه «2»، ثم زحف مدبرا ، وتشاوس مستكبرا لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء ، وهمّ بأن يرمى بها وصف أشكاله التي تشكل بها حتى استنبط ما استنبط ، استهزاء به.

وقيل : قدّر ما يقوله ، ثم نظر فيه ، ثم عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول. وقيل : قطب في وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثُمَّ أَدْبَرَ عن الحق وَاسْتَكْبَرَ عنه فقال ما قال. وثُمَّ نَظَرَ عطف على فَكَّرَ وَقَدَّرَ والدعاء : اعتراض بينهما. فإن قلت : ما معنى ثُمَّ الداخلة في تكرير الدعاء؟

قلت ، الدلالة على أن الكرّة الثانية أبلغ من الأولى. ونحوه قوله.

ألا يا أسلمي ثمّ أسلمي ثمّت أسلمي

(1). قوله «ثم نظر في وجوه الناس ، أى نظر بمؤخر عينه تكبرا أو تغيظا ، كما في الصحاح. (ع)
(2). قوله «ثم قطب وجهه» في الصحاح : قطب وجهه تقطيبا : عبس. وفيه أيضا : عبس عبوسا كلح ، وبسر بسورا : كلح. يقال : عبس وبسر اه. (ع)

فإن قلت : ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها؟ قلت ، الدلالة على أنه قد تأتى في التأمّل وتمهل ، وكأنّ بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد. فإن قلت : فلم قيل فَقالَ إِنْ هذا بالفاء بعد عطف ما قبله بثم؟ قلت : لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث.

فإن قلت : فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين؟ قلت : لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد.

[سورة المدثر (74) : الآيات 26 إلى 31]

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ (27) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ(30) وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ(31)
سَأُصْلِيهِ سَقَرَ بدل من سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً. لا تُبْقِي شيئا يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد. أو لا تبقى على شيء ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة لَوَّاحَةٌ من لوح الهجير. قال : تقول ما لاحك يا مسافر يا ابنة عمّى لاحنى الهواجر «1»

قيل. تلفح الجلد لفحة فتدعه أشدّ سوادا من الليل. والبشر : أعالى الجلود. وعن الحسن.

تلوح للناس ، كقوله ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ وقرئ : لواحة ، نصبا على الاختصاص للتهويل عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ أى يلي أمرها ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكا. وقيل : صنفا من الملائكة.

وقيل : صفة. وقيل : نقيبا. وقرئ : تسعة عشر ، بسكون العين لتوالى الحركات في ما هو في حكم

(1). لاحه الحر لوحا : غيره وسوده. والهاجرة : شدة الحر. وأهجر القوم وهجروا بالتشديد وتهجروا : ساروا في الهاجرة ، وفيه النفات ، كأنه خاطب غيرها أولا. وعجبه من استفهامها عن الشيء الظاهر سببه وهو السفر ، بل هي معترفة أنه مسافر كما قالت ، ومن قساوة قلبها عليه ، ثم التفت إليها بجواب سؤالها. وفي ندائها معنى التنبيه والإيقاظ والاستعطاف.

اسم واحد. وقرئ : تسعة أعشر ، جمع عشير ، مثل : يمين وأيمن. جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ، ولا يستروحون إليهم ، ولأنهم أقوم خلق اللّه بحق اللّه وبالغضب له ، فتؤمن هوادتهم ، ولأنهم أشد الخلق بأسا وأقواهم بطشا. عن عمرو بن دينار : واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم. «كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصي ، «1» يجرون أشعارهم ، لأحدهم مثل قوّة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمى بهم في النار ويرمى بالجبل عليهم» «2». وروى أنه لما نزلت عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ قال أبو جهل لقريش. ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبى كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش. أنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفوني أنتم اثنين ، فأنزل اللّه وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً أى ما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون. فإن قلت : قد جعل افتنان الكافرين بعدة الزبانية سببا لاستيقان أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين واستهزاء الكافرين والمنافقين ، «3» فما وجه صحة ذلك؟ قلت. ما جعل افتتانهم بالعدة سببا لذلك ،

ولقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها ، لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب ،

(1). قوله «الصياصي» هي الحصون ، واحدها صيصية. أفاده الصحاح. (ع)
(2). لم أجده.
(3). قال محمود : «إن قلت قد جعل افتتان الكافرين بعدة الزبانية سببا ... الخ» قال أحمد : ما جعل افتتانهم بالعدة سببا لذلك ، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سببا ، لأن المراد : وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر ، فوضع فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا
موضع ذلك ، لأن حال هذه العدة الناقصة واحدا من العشرين : أن يفتتن بها من لا يؤمن باللّه وبحكمته ولا يذعن ، وإن خفى عليه وجه الحكمة كأنه قيل : لقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب. قال أحمد : السائل جعل الفتنة التي هي في تقدير الصفة العدة ، إذ معنى الكلام ذات فتنة سببا فيما بعدها ، والمجيب جعل العدة التي عرضت لها هذه الصفة سببا لا باعتبار عروض الصفة لها. ويجوز أن يكون لِيَسْتَيْقِنَ راجعا إلى ما قبل الاستثناء ، كأنه قيل : جعلنا عدتهم سببا لفتنة الكافرين وسببا ليقين المؤمنين ، وهذا الوجه أقرب مما ذكره الزمخشري ، وإنما ألجأه إليه اعتقاد أن اللّه تعالى ما فتنهم ولكنهم فتنوا أنفسهم ، بناء على قاعدة التبعيض في المشيئة وبئست القاعدة فاحذرها.

لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين ، فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من اللّه ، وازدياد المؤمنين إيمانا لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل ، ولما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك. فإن قلت : لم قال وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ والاستيقان وازدياد الإيمان دالا على انتفاء الارتياب؟ قلت. لأنه إذا جمع لهم إثبات اليقين ونفى الشك. كان آكد وأبلغ لوصفهم «1» بسكون النفس وثلج الصدر ، ولأن فيه تعريضا بحال من عداهم ، كأنه قال : ولتخالف حالهم حال الشاكين المرتابين من أهل النفاق والكفر. فإن قلت : كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون ، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة؟ قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة وَالْكافِرُونَ بمكة ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب ، وذلك لا يخالف كون السورة مكية. ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب. فإن قلت : قد علل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب وقول المنافقين والكافرين ما قالوا ، فهب أن الاستيقان وانتفاء الارتياب يصح أن يكونا غرضين ، فكيف صح أن يكون قول المنافقين والكافرين غرضا؟ قلت : أفادت اللام معنى العلة والسبب ، ولا يجب في العلة أن تكون غرضا ، ألا ترى إلى قولك : خرجت من البلد لمخافة الشر ، فقد جعلت المخافة علة لخروجك وما هي بغرضك. مَثَلًا تمييز لهذا ، أو حال منه ، كقوله هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً. فإن قلت : لم سموه مثلا؟ قلت : هو استعارة من المثل المضروب. لأنه مما غرب من الكلام وبدع ، استغرابا منهم لهذا العدد واستبداعا له.

والمعنى : أى شيء أراد اللّه بهذا العدد العجيب ، وأى غرض قصد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين سواء ، ومرادهم إنكاره من أصله ، وأنه ليس من عند اللّه ، وأنه لو كان من عند اللّه لما جاء بهذا العدد الناقص. الكاف في كَذلِكَ نصب ، وذلك : إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى ، أى : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدى المؤمنين ، يعنى : يفعل فعلا حسنا مبنيا على الحكمة والصواب ، فيراه المؤمنون حكمة ويذعنون له لاعتقادهم أن أفعال اللّه كلها حسنة وحكمة فيزيدهم إيمانا ، وينكره الكافرون ويشكون. فيه فيزيدهم كفرا وضلالا

(1). قال محمود : «و قوله تعالى وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بعد قوله لِيَسْتَيْقِنَ ليحصل لهم فائدة الجمع بين إثبات اليقين ... الخ» قال أحمد : أطلق الغرض على اللّه عز وجل ، مع أنه موهم ولم يرد فيه سماع.
وأورده السؤال على قاعدته بعد ذلك كله في أن اللّه لم يرد من المنافقين والكافرين أقوالهم ، وإنما قالوا على خلاف «ما أراد ، وقد عرفت فساد القاعدة فأرح فكرك من هذا السؤال. فالكل مراد ، وحسبك تتمة الآية كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ.

وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ وما عليه. كل جدد من العدد الخاص من كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عدد ناقص ، وما في اختصاص كل جند بعدده من الحكمة إِلَّا هُوَ ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك كما لا يعرف الحكمة في أعداد السماوات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النصب والحدود والكفارات والصلوات في الشريعة. أو : وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو يعلمها. وقيل : هو جواب لقول أبى جهل : أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار - إلى قوله - إلا هو : اعتراض. وقوله وَما هِيَ إِلَّا

[سورة المدثر (74) : الآيات 32 إلى 37]

كَلاَّ وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (34) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)

كَلَّا إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى ، لأنهم لا يتذكرون. أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر نذيرا. و«دبر» بمعنى أدبر «1» ، كقبل بمعنى أقبل. ومنه صاروا كأمس الدابر. وقيل : هو من دبر الليل النهار إذا خلفه. وقرئ : إذ أدبر إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ جواب القسم. أو تعليل لكلا ، والقسم معترض للتوكيد. والكبر: جمع الكبرى ، جعلت ألف التأنيث كتائها «2» ، فلما جمعت فعلة على فعل : جمعت فعلى عليها ، ونظير ذلك : السوافي في جمع السافياء ، والقواصع في جمع القاصعاء ، كأنها جمع فاعلة ، أى : لإحدى البلايا أو الدواهي الكبر ، ومعنى كونها إحداهنّ : أنها من بينهن واحدة في العظم لا نظيرة لها ، كما تقول : هو أحد الرجال ، وهي إحدى النساء. ونَذِيراً تمييز من إحدى ، على معنى : إنها لإحدى الدواهي إنذارا ، كما تقول : هي إحدى النساء عفافا. وقيل : هي حال. وقيل : هو متصل بأوّل السورة ، يعنى : قم نذيرا ، وهو من بدع التفاسير. وفي قراءة أبى :

(1). قوله «و دبر بمعنى أدبر» يعنى في قراءة : والليل إذ أدبر. وعبارة النسفي : والليل إذ أدبر : نافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف وغيرهم إذا دبر. ودبر بمعنى أدبر. وقوله الآتي : وقرئ : إذ أدبر ، يفيد أن قراءة «دبر» هي المشهورة. (ع) [.....]
(2). قوله «جعلت ألف التأنيث كتائها» لعله كتائه. (ع)

نذير بالرفع خبر بعد خبر «لأن» أو بحذف المبتدإ أَنْ يَتَقَدَّمَ في موضع الرفع بالابتداء. ولمن شاء : خبر مقدّم عليه ، كقولك : لمن توضأ أن يصلى ، ومعناه مطلق لمن شاء التقدّم أو التأخر أن يتقدّم أو يتأخر ، والمراد بالتقدّم والتأخر : السبق إلى الخير والتخلف عنه ، وهو كقوله فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ ويجوز أن يكون لِمَنْ شاءَ بدلا من لِلْبَشَرِ على أنها منذرة للمكلفين الممكنين : الذين إن شاءوا تقدّموا ففازوا ، وإن شاءوا تأخروا فهلكوا.

[سورة المدثر (74) : الآيات 38 إلى 48]

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (47) فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

رَهِينَةٌ ليست بتأنيث رهين «1» في قوله كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ لتأنيث النفس ، لأنه لو قصدت الصفة لقيل: رهين ، لأنّ فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هي اسم بمعنى الرهن ، كالشتيمة بمعنى الشتم ، كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهن ، ومنه بيت الحماسة :

أبعد الّذى بالنّعف نعف كويكب رهينة رمس ذى تراب وجندل «2»

(1). قال محمود : «و ليست بتأنيث رهين ... الخ» قال أحمد : لأنه فعيل بمعنى مفعول ، يستوي مذكره ومؤنثه ، كقتيل وجديد.
(2) أبعد الذي بالنعف نعف كويكب رهينة رمس ذى تراب وجندل
أأذكر بالبقيا على من أصابنى وبقياى أنى جاهد غير مؤتل
لمسور بن زيادة الحارثي. وقيل : لعبد الرحمن بن زيد ، قتل أبوه زيادة فعرض عليه فيه سبع ديات ، فأبى إلا الثأر.
والاستفهام إنكارى. والنعف - بالفتح - : الجبل والمكان المرتفع. وقيل : ما يستقبلك من الجبل. وكويكب :
جبل بعينه. وفي هذا الاندال من التفصيل بعد الإجمال : ما ينبئ عن تفخيم المحل والحال ، أى : أبعد قتل أبى المدفون في ذلك الموضع حال كونه محتبسا في رمس. وقيل : رهينة بالجر ، بدل من الذي ، فهو اسم ملحق بالجوامد بمعنى الرهن. ويقال : رمست الشيء رمسا إذا دفنته في التراب ، فأطلق المصدر وأريد مكانه ، وهو القبر. والجندل : الحجارة ، وكررت همزة الاستفهام في قوله «أ أذكر» توكيدا للأولى. لأنها داخلة على هذا الفعل تقديرا أيضا. ويحتمل أنها داخلة على مقدر ، أى : أبعد أبى أفرح بالدية. وروى «أذكر» بالتشديد والبناء للمجهول ، فالهمزة الأولى داخلة عليه ، ولا شاهد فيه حينئذ. والبقيا : الإبقاء على الشيء ، أى : لا أذكر بين الناس بأنى أبقيت على قاتل أبى ، والحال أن إبقائى عليه كوني جاهدا ومصمم العزم على الفتك به غير حالف على ذلك ، لأنى لا أحتاج إلى الحلف في تنفيذ أمورى. أو غير مقصر في الاجتهاد ، لأن الائتلاء يجيء بمعنى الحلف وبمعنى التقصير ،

كأنه قال : رهن رمس. والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند اللّه غير مفكوك إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق. وعن علي رضى اللّه عنه أنه فسر أصحاب اليمين بالأطفال ، لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : هم الملائكة فِي جَنَّاتٍ أى هم في جنات لا يكتنه وصفها يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ يسأل بعضهم بعضا عنهم «1». أو يتساءلون غيرهم عنهم ، كقولك : دعوته وتداعيناه. فإن قلت : كيف طابق قوله ما سَلَكَكُمْ وهو سؤال للمجرمين : قوله يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ وهو سؤال عنهم؟ وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل : يتساءلون المجرمين ما سلككم قلت : ما سلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسئولين عنهم ، لأنّ المسئولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ، فيقولون : قلنا لهم ما سلككم فِي سَقَرَ قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار ، كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه. الخوض : الشروع في الباطل وما لا ينبغي. فإن قلت : لم يسألونهم وهم عالمون بذلك قلت : توبيخا لهم وتحسيرا ، وليكون حكاية اللّه ذلك في كتابه تذكرة للسامعين. وقد عضد بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال : أنهم «2» إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار. فإن قلت : أيريدون أنّ كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار ، أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعا. فإن قلت : لم أخر التكذيب وهو أعظمها؟ قلت : أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيما للتكذيب. كقوله ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا والْيَقِينُ الموت ومقدماته ، أى : لو شفع لهم الشافعون جميعا من الملائكة والنبيين وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم ، لأنّ الشفاعة لمن ارتضاه اللّه وهم مسخوط عليهم.

وفيه دليل على أنّ الشفاعة تنفع يومئذ ، لأنها تزيد في درجات المرتضين.

(1). قال محمود : «يتساءلون يعنى يسأل بعضهم بعضا عنهم ... الخ» قال أحمد : إنما أورد السؤال ذريعة وحيلة لتحميل الآية الدلالة على أن فساق المسلمين تاركي الصلاة مثلا ، يسلكون في النار مخلدين مع الكفار ، فجعل كل واحدة من الخلال الأربع توجب ما توجب الأخرى من الخلود. والصحيح في معنى الآية أنها خاصة بالكفار.
ومعنى قولهم لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ : لم نك من أهل الصلاة ، وكذلك إلى آخرها ، لأنهم يكذبون بيوم الدين ، والمكذب لا يصح منه طاعة من هذه الطاعات ، ولو فعلها لم تنفعه وقدرت كالعدم ، وإنما يتأسفون على ترك فعل هو نافع لهم.
(2). قوله «أنهم» لعله : بأنهم. (ع)

[سورة المدثر (74) : الآيات 49 إلى 56]

فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52) كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (55) وَما يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

عَنِ التَّذْكِرَةِ عن التذكير وهو العظة ، يريد : القرآن أو غيره من المواعظ.

ومُعْرِضِينَ نصب على الحال ، كقولك : مالك قائما. والمستنفرة : الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه «1». وقرئ بالفتح : وهي المنفرة المحمولة على النفار : والقسورة : جماعة الرماة الذين يتصيدونها. وقيل : الأسد. يقال : ليوث قساور وهي فعولة من القسر : وهو القهر والغلبة ، وفي وزنه «الحيدرة» من أسماء الأسد. وعن ابن عباس : ركز الناس وأصواتهم. وعن عكرمة : ظلمة الليل ، شبههم في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه ، بحمر جدت في نفارها مما أفزعها. وفي تشبيههم بالحمر : مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين ، كما في قوله كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل. ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو إذا رابها رائب ، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدّة سيرها بالحمر ، وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص صُحُفاً مُنَشَّرَةً قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي يتكاتب بها. أو كتبا كتبت في السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضة رطبة لم تطو بعد ، وذلك أنهم قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لن نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، نؤمر فيها باتباعك. ونحوه قوله وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ وقال : وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ... الآية وقيل : قالوا إن كان محمد صادقا فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. وقيل : كانوا يقولون : بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح مكتوبا على رأسه ذنبه وكفارته ، فأتنا بمثل ذلك ، وهذا من الصحف المنشرة بمعزل. إلا أن يراد بالصحف المنشرة : الكتابات الظاهرة المكشوفة. وقرأ سعيد بن جبير : صحفا منشرة بتخفيفهما ، على أن أنشر الصحف ونشرها : واحد ، كأنزله ونزله. ردعهم بقوله

(1). قوله «في جمعها له وحملها عليه» متعلق بكأنها ، لأنه وجه الشبه. (ع)

الصحف ، ثم ردعهم عن إعراضهم عن التذكرة وقال إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ يعنى تذكرة بليغة كافية ، مبهم أمرها في الكفاية فَمَنْ شاءَ أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينه فعل ، فإنّ نفع ذلك راجع إليه. والضمير في إِنَّهُ وذَكَرَهُ للتذكرة في قوله فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ وإنما ذكر لأنها في معنى الذكر أو القرآن وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ يعنى : إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه. لأنهم مطبوع على قلوبهم. معلوم أنهم لا يؤمنون اختيارا هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه ، فيؤمنوا ويطيعوا ، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا. وروى أنس عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «هو أهل أن يتقى ، وأهل أن يغفر لمن اتقاه» «1» وقرئ : يذكرون. بالياء والتاء مخففا ومشددا.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المدثر أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة» «2».

سورة القيامة

مكية ، وآياتها 40 [نزلت بعد القارعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القيامة (75) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (3) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (6)

(1). أخرجه لترمذى والنسائي وابن ماجة والطبراني في الأوسط وابن عدى والحاكم وأحمد وأبو يعلى والبزار كلهم من رواية سهل بن إبراهيم العطفى عن ثابت عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية «قال الله تعالى : أنا أهل أن أتقى - إلى آخره» قال الترمذي والطبراني وابن عدى : تفرد به سهل. ورواه الحكيم الترمذي في السابع والسبعين بعد المائة ، بلفظ «قال : هو أهل أن يتقى. فمن اتقى فهو أهل أن يغفر له» وله شاهد من رواية عبد الله قال سمعت ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا هريرة وابن عمر وابن عباس رضى الله عنه يقولون : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى فذكره.
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب.

إدخال «لا» النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم. قال امرؤ القيس :

لا وأبيك أبنة العامرىّ لا يدّعى القوم أنّى أفرّ «1»

وقال غوثة بن سلمى :

ألا نادت أمامة باحتمال لتحزننى فلا بك ما أبالى «2»

وفائدتها توكيد القسم ، وقالوا إنها صلة مثلها في لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ وفي قوله : في بئر لا حور سرى وما شعر «3»

واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوّله ، وأجابوا بأنّ القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض ، والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد. ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته. والوجه أن يقال : هي للنفي. والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاما له يدلك عليه قوله تعالى فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ فكأنه بإدخال حرف النفي يقول : إنّ إعظامى له بإقسامى به كلا إعظام ، يعنى أنه يستأهل فوق ذلك. وقيل إن «لا» نفى لكلام

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 692 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2) إذا نادت أمامة باحتمال لتحزننى فلا بك ما أبالى
فسيرى ما بدا لك أو أقيمي فأيا ما أتيت ففي نقالى
لغوثة بن سلمى بن ربيعة ، يقول : إذا أظهرت أمامة محبوبتى أمارات الارتحال عنى لتحزننى ، فأطلق النداء على ذلك مجازا. ويروى «ألا» بدل «إذا» ولا زائدة قبل القسم ، لأن المعنى فبحقك وحياتك ما أبالى ولا أحزن ، وحسن زيادتها : أنها في الغالب مسلطة على دعوى الخصم نافية لها ، وفي القسم بمحبوبته على عدم المبالاة ببعدها عنه نوع تهكم بها. وقيل : المعنى فلا يقع ما أبالى على الدعاء ، وهذا إنما يظهر على رواية : فلا بك ما أبالى ، وأصله يكن ، أى : يحصل ، فحذفت النون عند الجزم تخفيفا. وما موصولة. ويروى : فأبك ، أى : أبعدك الله : دعاء أيضا. والتقالى : التباغض ، أى : فسيرى ما دام يظهر لك المسير ، أو أقيمى ، فهما منك سواء ، وأى شيء تفعلينه فهو ناشئ عن تباغض بيني وبينك ، ومع ذلك لا أعتنى بشأنك لأنى مشغول بأهم منك : وهو موت أقاربه ، والتفت إليها بالخطاب ليصدعها بالجواب.
(3) في بئر لا حور سرى وما شعر بافكه حتى إذا الصبح حشر
«لا» زائدة بين المضاف والمضاف إليه شذوذا. والحور - بالضم - : الهلكة جمع حائر أى هالك ، كبزل وبازل ، ونزل ونازل. وقيل: الحور بمعنى الهلاك ، وجمعه : أحور ، أى : سرى في بئر هلاك وما درى بذلك. وقوله «بافكه» يجوز تعلقه بشعر ، ويجوز تعلقه بسرى ، وشبه سبب الهلاك بالبئر على طريق التصريح التحير والضرر بالوقوع في كل ، ولذلك قال : سرى ، وهو يناسب الظلمة

وردّ له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل : لا ، أى ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أقسم بيوم القيامة. فإن قلت : قوله تعالى فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ والأبيات التي أنشدتها : المقسم عليه فيها منفي ، فهلا زعمت أنّ «لا» التي قبل القسم زيدت موطئة النفي بعده ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف هاهنا منفيا ، كقولك لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، لا تتركون سدى؟

قلت : لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول ماغ ، ولكنه لم يقصر. ألا ترى كيف لقى لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ بقوله لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وكذلك فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ بقوله إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ وقرئ : لأقسم ، على أنّ اللام للابتداء. وأقسم خبر مبتدإ محذوف ، معناه : لأنا أقسم. قالوا : ويعضده أنه في الإمام بغير ألف بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس فيه أى في يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى أو بالتي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان. وعن الحسن : إن المؤمن لا تراه إلا لائما نفسه ، وإنّ الكافر يمضى قدما لا يعاتب نفسه «1». وقيل : هي التي تتلوّم يومئذ على ترك الازدياد إن كانت محسنة.

وعلى التفريط إن كانت مسيئة. وقيل : هي نفس آدم ، لم تزل تتلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة. وجواب القسم ما دل عليه قوله أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ وهو لتبعثن. وقرأ قتادة : أن لن نجمع عظامه، على البناء للمفعول. والمعنى : نجمعها بعد تفرقها ورجوعها رميما ورفاتا مختلطا بالتراب ، وبعد ما سفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض. وقيل إن عدى ابن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق «2» وهما اللذان كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول فيهما : «اللهم اكفني جارى السوء» «3» قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره؟ فأخبره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أو من به أو يجمع اللّه العظام ، فنزلت بَلى أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع ، فكأنه قيل بَلى نجمعها. وقادِرِينَ حال من الضمير في نجمع ، أى : نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول ، إلى أن نسوى بنانه أى : أصابعه التي هي أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه. أو على أن نسوى بنانه ونضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولا من غير نقصان ولا تفاوت ، فكيف بكبار العظام. وقيل : معناه بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه

(1). قوله : «و أن الكافر يمضى قدما لا يعاتب» في الصحاح مضى قدما - بضم الدال - : لم يعرج ولم ينثن اه. (ع)
(2). قوله «ختن الأخنس بن شريق» في الصحاح «الختن» بالتحريك : كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ ، وعند العامة : ختن الرجل زوج ابنته. (ع)
(3). ذكره الثعلبي والبغوي ، والواحدي بغير إسناد. [.....]

ورجليه ، أى نجعلها مستوية شيئا واحدا كخف البعير وحافر الحمار لا تفرق بينها ، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال ، والبسط والقبض ، والتأتى لما يريد من الحوائج. وقرئ قادرون ، أى : نحن قادرون ، بَلْ يُرِيدُ عطف على أَيَحْسَبُ فيجوز أن يكون مثله استفهاما ، وأن يكون إيجابا على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر. أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب لِيَفْجُرَ أَمامَهُ ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه. وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه : يقدم الذنب ويؤخر التوبة. يقول : سوف أتوب ، سوف أتوب : حتى يأتيه الموت على شرّ أحواله وأسوإ أعماله يَسْئَلُ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة في قوله أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ ونحوه : ويقولون متى هذا الوعد.

[سورة القيامة (75) : الآيات 7 إلى 15]

فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلاَّ لا وَزَرَ (11) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (15)
بَرِقَ الْبَصَرُ تحير فزعا ، وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره. وقرئ : برق من البريق ، أى لمع من شدة شخوصه. وقرأ أبو السمال : بلق إذا انفتح وانفرج. يقال : بلق الباب وأبلقته وبلقته : فتحته وَخَسَفَ الْقَمَرُ وذهب ضوؤه ، أو ذهب بنفسه. وقرئ : وخسف على البناء للمفعول وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حيث يطلعهما اللّه من المغرب. وقيل : وجمعا في ذهاب الضوء «1» وقيل : يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار. وقيل يجمعان ثم يقذفان في البحر ، فيكون نار اللّه الكبرى الْمَفَرُّ بالفتح المصدر ، وبالكسر :

المكان. ويجوز أن يكون مصدرا كالمرجع. وقرئ بهما كَلَّا ردع عن طلب المفرّ لا وَزَرَ لا ملجأ ، وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتخلصت به فهو وزرك إلى رَبِّكَ خاصة يَوْمَئِذٍ مستقرّ العباد ، أى استقرارهم ، يعنى : أنهم لا يقدرون أن يستقرّوا إلى غيره وينصبوا إليه. أو إلى حكمه «2» ترجع أمور العباد ، لا يحكم فيها غيره ، كقوله لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ أو إلى ربك مستقرّهم ، أى : موضع قرارهم من جنة أو نار ، أى : مفوض ذلك إلى مشيئته ، من شاء أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار بِما قَدَّمَ من عمل عمله وَبما أَخَّرَ

(1). قوله «و قيل وجمعا في ذهاب الضوء» لعله : وقيل جمعا. (ع)
(2). قوله «و ينصبوا إليه أو إلى حكمه» في الصحاح «نصب القوم» : ساروا يومهم ، وهو سير لين ، ونصب الرجل - بالكسر - نصبا : تعب. (ع)

منه لم يعمله أو بما قدم من ماله فتصدق به ، أو بما أخره فخلفه. وبما قدم من عمل الخير والشر ، وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده. وعن مجاهد : بأوّل عمله وآخره. ونحوه : فينبئهم بما عملوا أحصاه اللّه ونسوه بَصِيرَةٌ حجة بينة وصفت بالبصارة على المجاز ، كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً أو عين بصيرة. والمعنى أنه ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ، ففيه ما يجزئ عن الإنباء ، لأنه شاهد عليها بما عملت ، لأنّ جوارحه تنطق بذلك يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ، وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها. وعن الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وقال : المعاذير الستور ، واحدها معذار ، فإن صح فلأنه يمنع رؤية المحتجب ، كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب. فإن قلت : أليس قياس المعذرة أن تجمع معاذر لا معاذير؟ قلت : المعاذير ليس بجمع معذرة ، إنما هو اسم جمع لها، ونحوه : المناكير في المنكر.

[سورة القيامة (75) : الآيات 16 إلى 25]

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (19) كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (22) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (25)

الضمير في بِهِ للقرآن ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا لقن الوحى نازع جبريل القراءة ، ولم يصبر إلى أن يتمها ، مسارعة إلى الحفظ وخوفا من أن يتفلت منه ، فأمر بأن يستنصت له ملقيا إليه بقلبه وسمعه ، حتى يقضى إليه وحيه ، ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه. والمعنى : لا تحرّك لسانك بقراءة الوحى ما دام جبريل صلوات اللّه عليه يقرأ لِتَعْجَلَ بِهِ لتأخذه على عجلة ، ولئلا يتفلت منك. ثم علل النهى عن العجلة بقوله إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ في صدرك وإثبات قراءته في لسانك فَإِذا قَرَأْناهُ جعل قراءة جبريل قراءته : والقرآن : القراءة فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ فكن مقفيا له فيه ولا تراسله ، وطأ من نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ ، فنحن في ضمان تحفيظه ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ إذا أشكل عليك شيء من معانيه ، كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعا ، كما ترى بعض الحراص على العلم ، ونحوه وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، كَلَّا ردع لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن عادة العجلة وإنكار لها عليه ، وحث على الأناة والتؤدة ، وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ كأنه قال : بل أنتم يا بنى آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء ، ومن ثم تحبون العاجلة وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ وقرئ بالياء وهو أبلغ. فإن قلت : كيف اتصل قوله لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ إلى آخره، بذكر القيامة؟ قلت : اتصاله به من جهة هذا للتخلص منه ، إلى التوبيخ بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة. الوجه : عبارة عن الجملة «1». والناضرة : من نضرة النعيم إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول. ألا ترى إلى قوله إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ، إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ ، إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص ، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم ، فإنّ المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا «2» إليه : محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى ، تريد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل : وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما «3»

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ، ويأوون إلى مقائلهم. تقول : عيينتى نويظرة إلى اللّه وإليكم ، والمعنى : أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه ، والباسر : الشديد العبوس ، والباسل : أشد منه ،

(1). قال محمود : «الوجوه كناية عن الجملة ، وقدم إلى ربها ليفيد الحصر ... الخ» قال أحمد : ما أقصر لسانه عند هذه الآية ، فكم له يدندن ويطبل في جحد الرؤية ويشقق القباء ويكثر ويتعمق ، فلما فغرت هذه الآية فاه :
صنع في مصادمتها بالاستدلال ، على أنه لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول ، لأنها حينئذ غير منحصرة على تقدير رؤية الله تعالى ، وما يعلم أن المتمتع برؤية جمال وجه الله تعالى لا يصرف عنه طرفه ، ولا يؤثر عليه غيره ، ولا يعدل به عز وعلا منظورا سواه ، وحقيق له أن يحصر رؤيته إلى من ليس كمثله شيء ، ونحن نشاهد العاشق في الدنيا إذا أظفرته برؤية محبوبه لم يصرف عنه لحظه ، ولم يؤثر عليه ، فكيف بالمحب لله عز وجل إذا أحظاه النظر إلى وجهه الكريم ، نسأل الله العظيم أن لا يصرف عنا وجهه ، وأن يعيذنا عن مزالق البدعة ومزلات الشبهة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.
(2). قوله «لو كان منظورا إليه» عدم كونه منظور إليه تعالى مبنى على مذهب المعتزلة ، وهو عدم جواز رؤيته تعالى. ومذهب أهل السنة جوازها. ويجوز أن يكون تقديم المفعول هنا للاهتمام بذكر المنظور إليه ، الذي يقتضى النظر إليه نضرة وجوه الناظرين ، لا للاختصاص. (ع)
(3). يقول : وإذا رجوت مكارمك زدتني نعما فالنظر إليه كناية عن ذلك. ويجوز أن المعنى : بمجرد نظري إليك تجيبني فوق مسئولي، ولا تحتاج إلى التصريح بالطلب. ومن ملك : تمييز مقترن بمن. والبحر دونك : جملة اعتراضية أو حالية ، أى : أقل منك في الخيرات والمكارم.

ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه تَظُنُّ تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدّته وفظاعته فاقِرَةٌ داهية تقصم فقار الظهر ، كما توقعت الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير.

[سورة القيامة (75) : الآيات 26 إلى 30]

كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ راقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (30)

كَلَّا ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة ، كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك ، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم ، وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين. والضمير في بَلَغَتِ للنفس وإن لم يجر لها ذكر ، لأنّ الكلام الذي وقعت فيه يدل عليها ، كما قال حاتم : أماويّ ما يغنى الثّراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصّدر «1»

وتقول العرب : أرسلت ، يريدون : جاء المطر ، ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء التَّراقِيَ العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال. ذكرهم صعوبة الموت الذي هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها : وقال حاضر وصاحبها - وهو المحتضر - بعضهم لبعض مَنْ راقٍ أيكم يرقيه مما به؟ وقيل : هو من كلام ملائكة الموت : أيكم يرقى بروحه؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وَظَنَّ المحتضر أَنَّهُ الْفِراقُ أنّ هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة وَالْتَفَّتِ ساقه بساقه والتوت عليها عند علز «2» الموت. وعن قتادة : ماتت رجلاء فلا تحملانه ، وقد كان عليهما جوالا. وقيل : شدّة فراق الدنيا بشدّة إقبال الآخرة ،

(1) أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
وقد علم الأقوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
لحاتم الطائي ، والهمزة النداء ومأوى : مرخم ، أصله : ماوية ، اسم أمه وهي بنت عفير ، وكانت تلومه. وأصله :
نسبة للماء ، لأنها تشبهه في اللين والرقة والصفاء والثراء. والثروة : الغنى. والحشرجة : تردد صوت النفس في الصدر. والضمير النفس وإن لم تذكر ادعاء لشهرتها. روى أنه لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه قالت له عائشة لعمرك ما يغنى ... البيت» فقال : لا تقولي هذا يا بنية وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ وهي قراءة منسوبة إليه وكرر نداء ماوية التقريع ، وغاد ورائح : آت وذاهب. وقوله «من المال» أى من آثاره ، ولو كفت «علم» عن العمل في المفعول وعبر عن نفسه بالظاهر ، لأن هذا الكلام تتحدث به نفوس الأقوام ، فاعتبر صدوره منهم.
وثراه المال : الغنى به ، أو جمعه. والوفر : الزيادة والمال الكثير.
(2). قوله «علز الموت» هو كالرعدة تأخذ المريض. (ع)

على أن الساق مثل في الشدّة. وعن سعيد بن المسيب : هما ساقاه حين تلفان في أكفانه الْمَساقُ أى يساق إلى الله وإلى حكمه.

[سورة القيامة (75) : الآيات 31 إلى 35]

فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (31) وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (34) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35)

فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى يعنى الإنسان في قوله أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ ألا ترى إلى قوله أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً وهو معطوف على يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ أى : لا يؤمن بالبعث ، فلا صدق بالرسول والقرآن ، ولا صلى. ويجوز أن يراد : فلا صدق ماله ، بمعنى : فلا زكاه. وقيل : نزلت في أبى جهل يَتَمَطَّى يتبختر. وأصله يتمطط ، أى : يتمدد ، لأنّ المتبختر يمدّ خطاه. وقيل : هو من المطا وهو الظهر ، لأنه يلويه. وفي الحديث : «إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم» «1» يعنى : كذب برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتولى عنه وأعرض ، ثم ذهب إلى قومه يتبختر افتخارا بذلك أَوْلى لَكَ بمعنى ويل لك ، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره.

[سورة القيامة (75) : الآيات 36 إلى 40]

أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (37) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (39) أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (40)

فَخَلَقَ فقدر فَسَوَّى فعدل مِنْهُ من الإنسان الزَّوْجَيْنِ الصنفين أَلَيْسَ ذلِكَ الذي أنشأ هذا الإنشاء بِقادِرٍ على الإعادة.

(1). أخرجه الترمذي وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى. وابن عدى من رواية موسى بن عبيدة عن عبد اللّه ابن دينار عن ابن عمر. وموسى ضعيف. وروى الترمذي أيضا والبزار عن محمد بن إسماعيل عن أبى معاوية عن يحيى بن سعيد عن عبد اللّه بن دينار نحوه. قال الترمذي : ليس له أصل. وإنما المعروف حديث موسى بن عبيدة.
وقال البزار : لا نعلم أحدا تابع عليه محمد بن إسماعيل وإنما يعرف عن موسى. واختلف فيه على يحيى بن سعيد.
فرواه الحاكم من طريق حماد بن سلمة عنه عن عبيد عن خولة بنت قيس. ورواه الطبراني في الأوسط من رواية ابن لهيعة عن عمارة بن خزيمة عن يحيى بن بخنس مولى الزبير عن أبى هريرة. ورواه الأصبهانى في الترغيب من طريق فرج بن فضالة عن يحيى بن بخنس مرسلا.